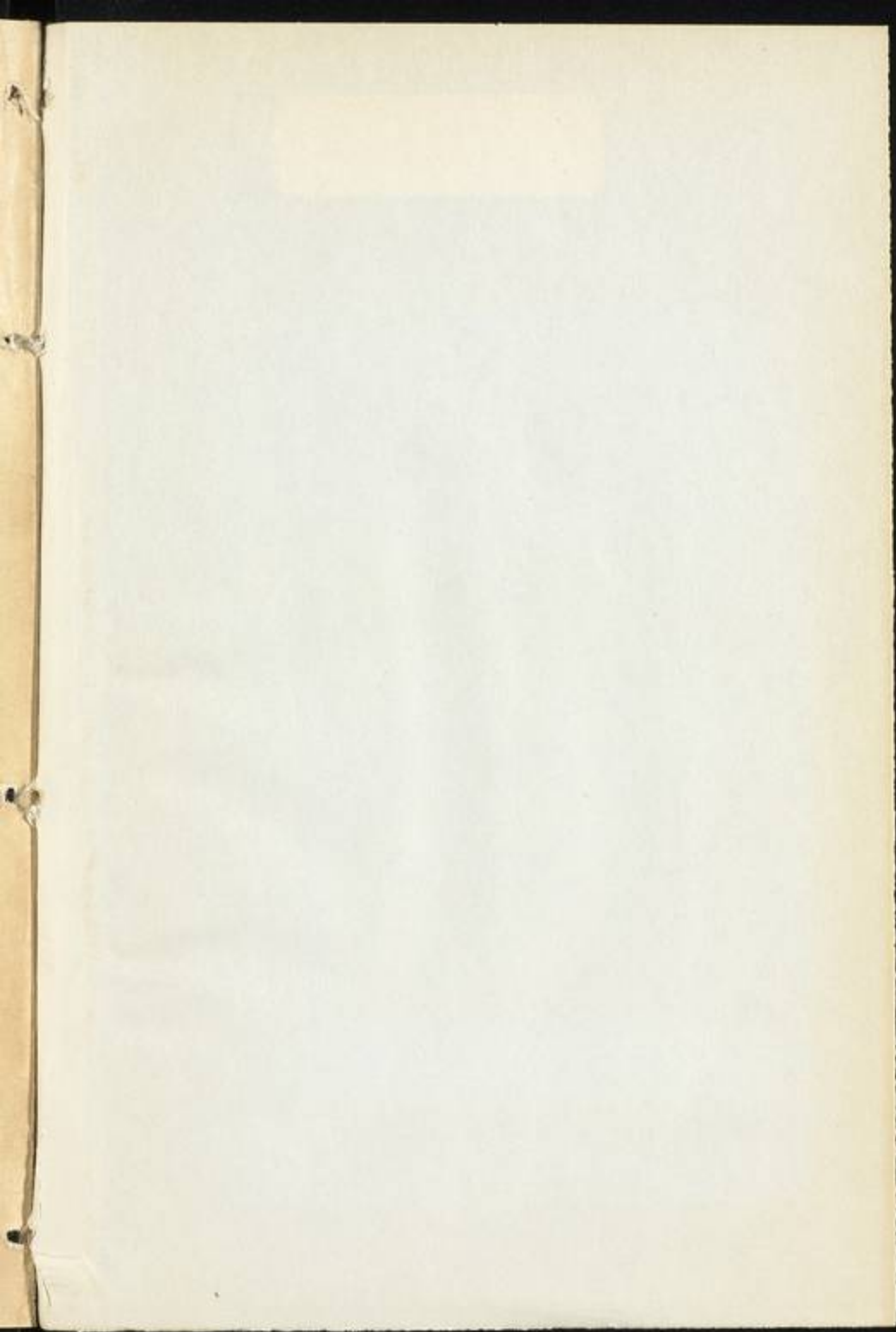


Princeton University Library



32101 074067354



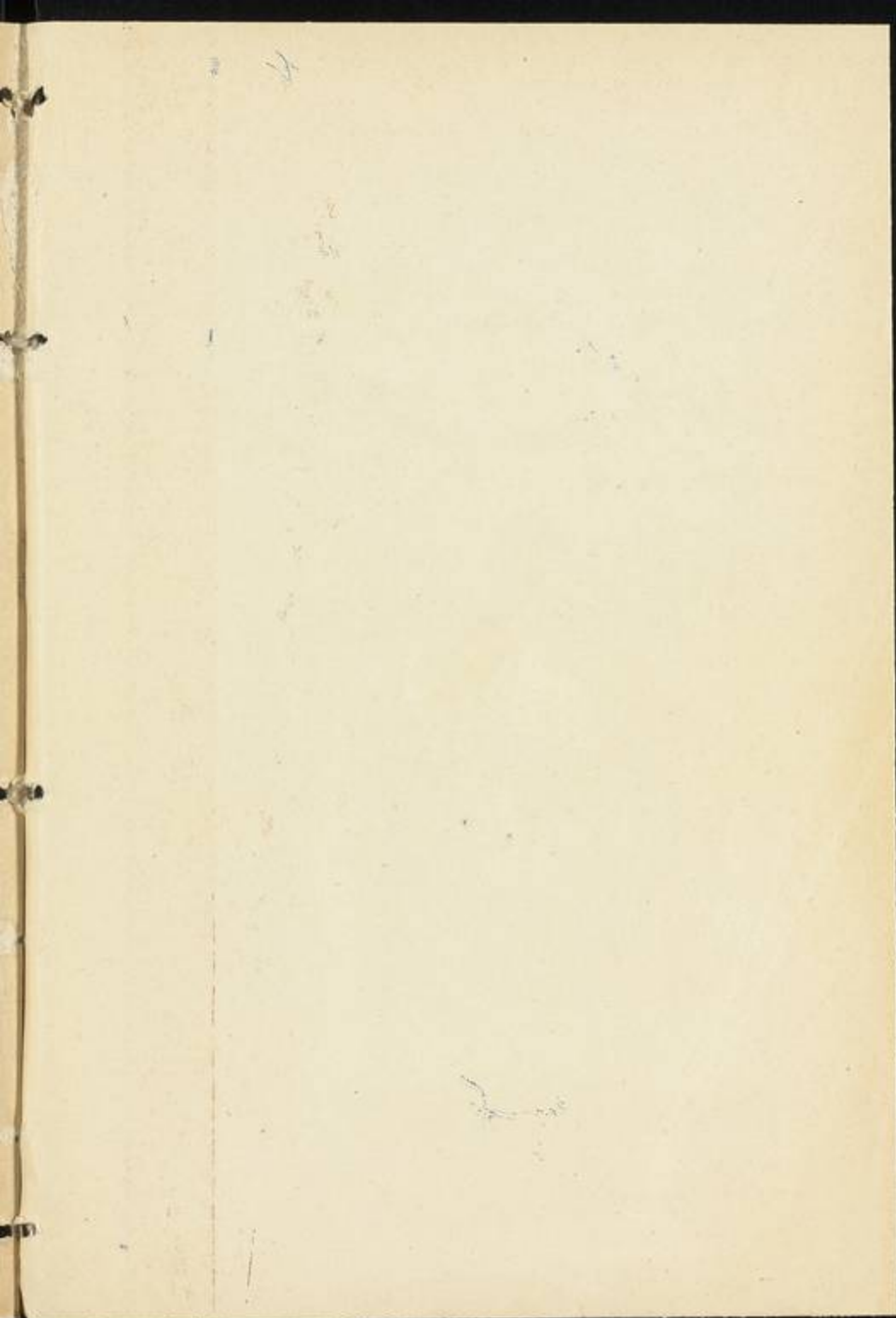
السلامة ١٩٠٤

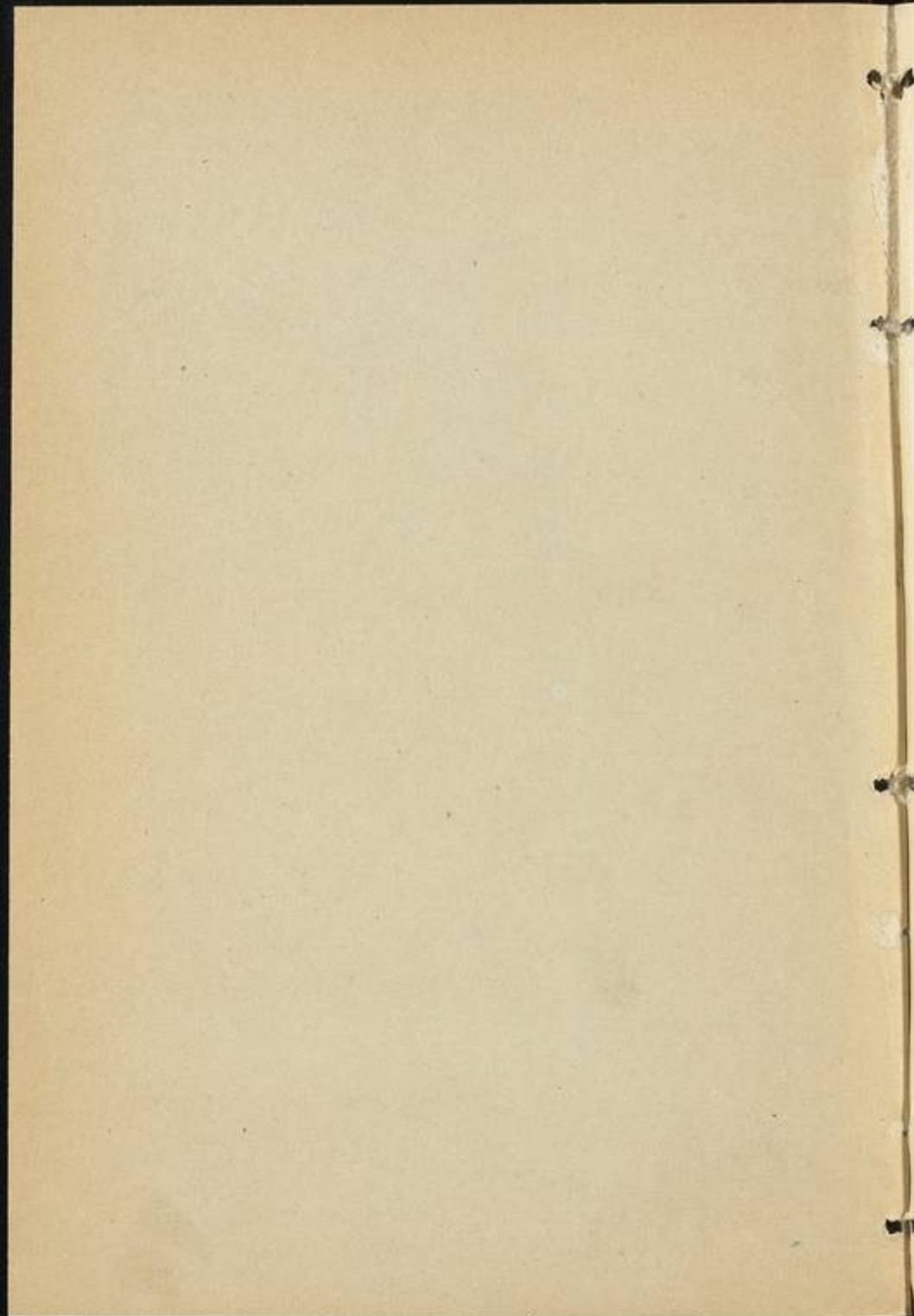
کریم مجسم کریم

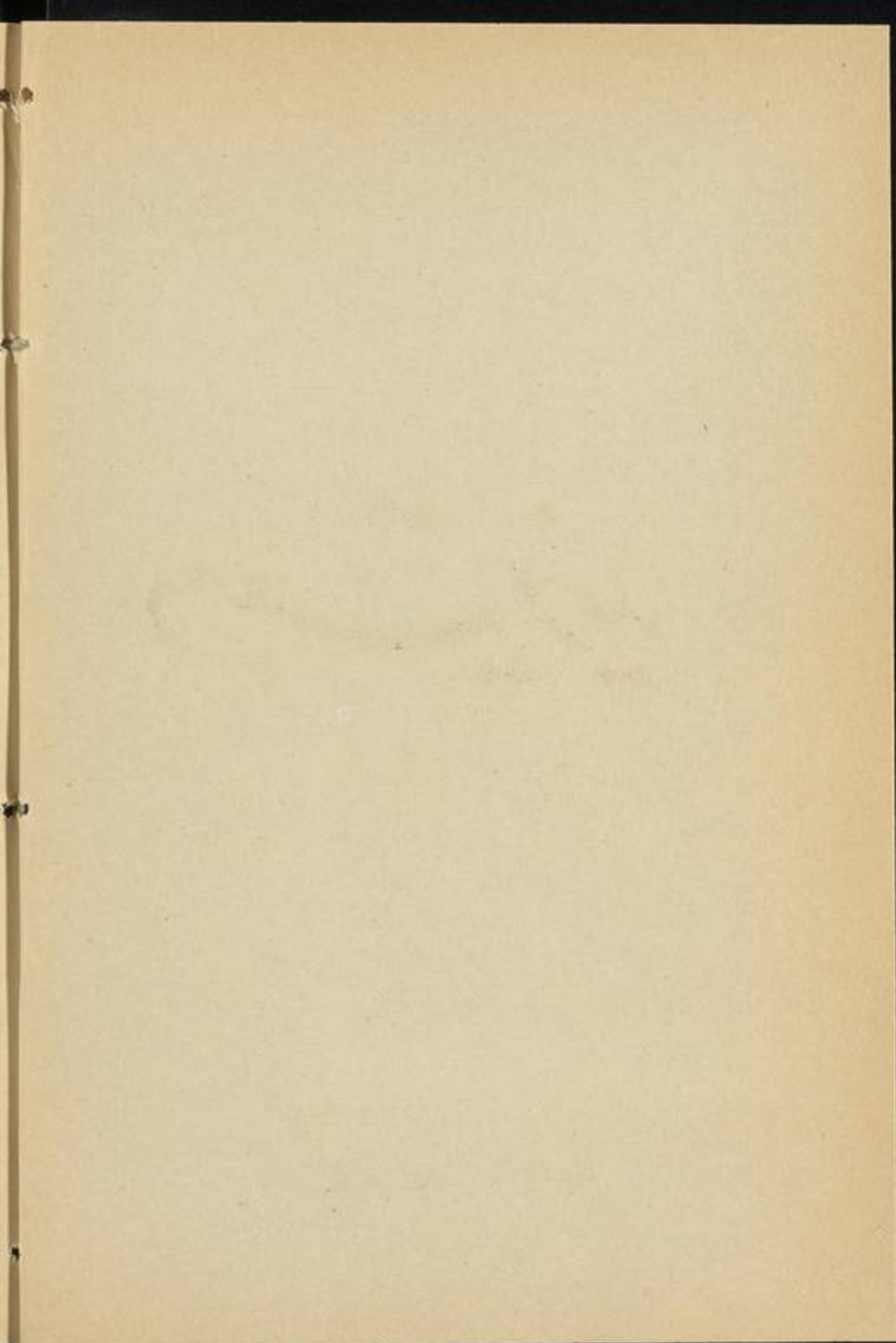
دمعۃ یزید

قصّة و تاریخ

مکتبہ صادر
بیروت







Karam, Karam Mulhim

کرام علیہ السلام

Damiat Yazid

دمعۃ یزید

مکتبہ صنادیر، بیروت



2271
·50827
·328

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



الجزء الاول

نظرة... فريهام!

١

من الضارب كبد الرمال الخانعة الصفر على بعيره الاسمر السبوح، الملتف
بعباءة كلون الرماد والمعتمّ بلقافة سوداء مقتولة كالطوق؟... من هذا المكحل
العينين بالاثمد، المستطيل الوجه على بياض لوّحته الشمس فاكمدّ ، الطير
الشاربين ، السبط العذار ، الخائق النظرات كأن له عند دنياه ثأراً ؟
من الرجل الصوت المنسل في المدن على استخفاء ، والطاوي البيد
على صيحة : « الله اكبر ! ... » ، المقيم في يومه الصلوات الخمس مرتلاً فيها
القرآن وقد استظهره حرفاً حرفاً ؟ ... من المجاهد وقد كشف جبينه عن
مبغى ملحاح يروم قضاءه ودلت همته على رسالة جموح لا ينثني عنها ؟
نحر خمساً وعشرين ليلة في وثبته من مكة ، صامداً الى دمشق ، ولا يزال
هم بنحر سبع ليال بلوغ عاصمة معاوية بن ابي سفيان . وكلما جاوز قدفداً
هوت يمينه عفواً الى مقبض سيفه تجسه كأنه منطلق الى دمشق لسيفه
يضرب به الاعناق

ودمشق خلعت عنها في مؤتمر اذرح خلافة علي بن ابي طالب وتلفتت الى خليفة آخر تقيمه على المسلمين . فما عدت لفتتها معاوية وليها منذ عشرين عاماً وقد خبرت فيه الحنكة والسياس واعترمت ان لا تعدل به سواه من الاقطاب . فهو في معتقدها خير من يسهر على التراث العربي المسبتر التخوم ،
العالي القباب

ورسخت في صعيدها المصطفى قدما . معاوية خليفة الرسول العربي محمد بن عبد الله . ونادت به من أعلى المآذن وتنكرت لابن ابي طالب ابن عم الرسول . فلم يجهل معاوية كيف يخطب ودها ويستميلها اليه . فنثر الذهب وجامل وصانع ، وتناهى في الملينسة حتى لم يكن يفضب للشثيمة تثقب اذنيه ، ولا للاستطالة عليه يجر اذيالها الاعرابي الجانيي اللفظ . فالعلم عند ابن هند دعامة سياسة الناس ، والكرم مفتاح القلوب حتى الغلف الغلاظ وتقتل مقتعد سنام البعير في وثبته الى دمشق هذا الملك الضخم البنيان ، البعيد الاطراف ، القابضة عليه يد معاوية عفواً ، بلا جهد ولا عياء ، وتهد وقال : قاتل الله عمرو بن العاص ، انه للمجرم ، طمعه في دنياه رمى الاسلام بالويل والشقاق !

وعكف على حث مطيته الى مشوى ابن ابي سفيان ، مغتصب الخلافة من علي ، وهو يدمدم : واعجباً منا في يوم صفين كيف قنع بعضنا بالتحكيم ونحن ارباب الحق النطاح ؟... ولكنها مكيدة ابن العاص الماكر ، آه من ابن العاص !

وامتدت يميناه الى حسامه فكاد ينتزع النصلة من العمد على لظى وهياج . ولو اسعفه الظعمون لجز جزمة واحدة الى دمشق ينزل في افيائها ويقف من

معاوية وجهاً لوجه ، فيخذه عن حق ادعاه ويصدف به عن بطل يرتديه .
على انه سيبلغ دمشق . فلا بد ان يدخلها ويمتشق فيها صارمه الصقيل
ولم يكن يجهل مقام معاوية . فليس ابن ابي سفيان نكرة في الناس
وابوه سيد قريش في العهد الجاهلي ومناوىء محمد بن عبد الله في مستهل النبوة .
ما غاب عنه ان معاوية كاتب الرسول ونجيه ، وان الرسول تزوج رملة اخت
معاوية ماهرة لبيت ابي سفيان ورغبة في ضم زعيم قريش اليه . فان يرض
ابو سفيان ترض قريش جمعاء !

وزيد ، يزيد الخير اخو معاوية ، من صفوة قادة المسلمين . فهو اول
من ولي دمشق في عهدها العربي . وعتبة ، شقيق معاوية ، من فحول خطباء
العرب . اذا وقف في الناس للحجاسة دفعهم بيلغ بيانه الى الموت مختارين
باسمين . وان توعدم احسوا الارض تدور بهم وتهوي من تحتهم هلعاً
هذا كله ملء وعي راكب البعير وحافظته . على انه لم يكن يتهبب
خطر معاوية ومعاوية انتزع الحق من صاحبه ، واثارها في المسلمين احناً
وبغضاء . فالاسلام لا يقوم على الفرقة بل على الجماعة . وليست الجماعة ما
اراد معاوية وقد بدد شمل المسلمين بركوبه مقعد الخلافة عنوة . فشطرت القوم
شطرين بل ثلاثة ، رهط معاوية ، فرهط علي ، فالحوارج الحراص على
منطوق الكتاب

وهوت الليالي السبع مضرجات بدمها . وها هي دمشق تطل بجلاوة
كالعروس البكر وقد تفتحت على نضرتين ، نضرة الربيع ونضرة الخلافة . فابى
معاوية ان تنتهي اليه سيادة المسلمين ولا يقدرها قدرها ويرفع من شأنها . فان
ينازعه فيها ابن ابي طالب فقد اقرته عليها الشام ومصر وبعض الحجاز

واعطته حقاً لم يكن له فيها . وهذا الحق لن يكفي به معاوية وهو يريد
كاملاً ، فليس يقنع من قرص الخوى ببعضه والنفس تصبو جميعاً اليه
ومقتعد سنام البعير ، الشاخص من مكة الى دمشق على غليان وحنق ،
ليس بالغريب عن حاضنة بردى . فارتادها في السنة السادسة والثلاثين للهجرة
اثر معركة صفين يرقب فيها ما يكون من امر التحكيم في اذرح . وها انه
بعد طي اربع سنوات يجتاز اليها دروبها وكل جارحة فيه تنتفض كرهاً
ومقتناً باسماء علي ومعاوية وعمرو بن العاص

ولم يكن راضياً عن احد . فالثلاثة يشنهم فؤاده . الثلاثة هدموا في
عرفه شرعة الله . ووقف البعير في كبد دمشق ، على ضفة بردى ، يعب
الماء . فوثب عنه معتليه بعمامته السوداء متمعاً ناظره بياهج قاعدة ابي
عبد الرحمن ومغانها الفخام . ولاح له قصر الخضراء بقبابه المشمخة ،
وفسحته المتأدية في الانبساط ، فراعه الانسجام وفتنه الرواء . ولكن من
شيد القصر ومن يثوي فيه ؟ ... منذ اربع سنوات لم يكن في دمشق لهذا
الصرح اثر ، فكيف قام اليوم بناطح السحاب ؟

ولعب الفضول بالنزير الاسود العمامة . ودنا من صبية يلعبون على
ضفاف النهر ومقود البعير في يده ، وقبضة سيفه لا تهيب شق عباة فتقتحمه
على غير احتشام . قال يخاطب الصبية ببسمة عريضة يروم بها الاستدراج :
من صاحب هذا القصر الضخم يا ابناء اخي ؟

فلم يحفل به الصبية واجابوا دون ان يكثرثوا له وقد شغلهم عنه لعبهم
الجلاد : هذا قصر الخضراء ، بناه خليفة انشام ابو عبد الرحمن معاوية وجعل
فيه سكناه !

فرض التزليل شفتيه على مضمض فاغر حتى كاد يدميها وجمجم بغيظ :
خليفة الشام؟... أسمع يا ابن صخر؟... لكل قطر خليفة ولكل مصر امير
مؤمنين . واذلاه .. واخية الاسلام !

وومضت عيناه يبريق النعمة . وأنقضتا على الصرح شرراً مستفحل
اللهيب . فغمز مقبض سيفه بيده المسك بها مقود بعيره وهدد وقد فارت
فيه احقاده : ابن هند ، لن تنعم طويلاً بمثواك !

ومال الى السخربة المرّة ، الى السخربة العضوض ، فقال وهو لا يبرح
يصب على القصر نظراته المنسلعة منها اللعنة : يريد معاوية اقتفاء خطوات
الاكاسرة والمناذرة في تشييد الصروح . فبنى الحضراء كما بنى كسرى الايوان
وسادة الجاهلية الحورنق والسدير . ولكن الحضراء سينهدم على صاحبه
يا ابن هند . انا ما سلخت ثلاثين ليلة في القفار البيض كي املاً بصري بروائع
دولة تبغي انشاءها ظمماً على دعائم الدين ، بل جئتك كي امحوك من دنياك
وانت عقبة في سبيل الدين . وحق من براني من عدم ، ودفعتني الى هذا
المطمئن كتلة ناطقة حساسة ، ان ارتضي لعيني الغمض الا وقد حزرت
رأسك ، وسفكت دمك ، وضربت بك العبرة لقوم يعتبرون !

وظل يمدق الى القصر وهو يلهث من كيد . فتعجب من رجل يسخر
دينه لديناه عابثاً بالنواهي ، مستحلاً كل حرام . فيحشد في خزائنه اموال
المسلمين ليتلذذ بالافاويق ، ويستعين بالمقام الاول في الدولة ليلهو بالمجد
والفخفة ، فتبطره السيادة ويضل بها عن الصراط القويم

وبكت جزعاً عينا التزليل الاسود العمامة . وصاح من كبد بليت
بالقروح : ابن انت يا محمد عن هؤلاء الانكاس المتاجرين بدين اردته لعبادة

الله وارادوه للمتعة ولشفاء الحزازة؟... انهم لاعداء الله والاسلام مع دعواهم القيام فينا باسم الدين والاسلام. الأبتس دعوى هي البطل والعدوان. وتربة من نشر راية هذا الدين الجديد لنجتث اصولهم اجثثت الفأس للشجرة النخرة الحسيرة الاغصان !

وغلب عليه التكبير ، وما لبث ان غاب في تلاوة آيات ربه : « ان المتافقين في الدرء الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ! »

وقاد بعيره الى ساحة تناخ فيها الابل وقد عقد عليها الصفصاف خيمة ضافية الظل ، منيعة الأطناب . وراعه من دمشق هذا الازدحام الدفاق . فالدروب تغص بالمقبلين من الفجاج كافة الى استظلال كنف ابن هند . فما ذاع عن معاوية من انباء البذل والجود لم يُسمع عن ابن ابي طالب . فكان علي شحيحاً باموال المسلمين ، يأبى على ابنته حتى ان تردان بعقد من اللؤلؤ اودع بيت المال ثم تعيده سليم الحيات ، مأمون الزنة . وينكر على نفسه ان يرتدي الثوب الجديد ضناً بمخزورات الدولة الناشئة . فالزهد في الدنيا والرفق ببيت مال المسلمين من طبعه . على حين كان معاوية ينفق عن سعة ويسخو بلا حساب . فما جاءه مسترفد الا اجزل له العطاء . وما طمع في دنائيره نهم الا ألقه من النصار ما شاء

والناس مع متناهي اعجابهم بصدق علي ورجولته ، ومع مزيد حقدهم على مكر معاوية وسلطته ، كانوا يجردون في بذل ابن هند حافراً يشد بهم اليه .

فالجود كسف الكيد والعدوان وذهب بالمشائين والمعائب

ومعاوية الداهية لا يبجل المكنن الحساس في هذه الخلوقات الدارجة حوله . فكلمهم طالب زاد . ووقع على مجس الضعف في علي فتحامى العثرة

واستظهر عليه بسني العطايا . فرفع الى مراتب المجد كل طموح الى الرتبة
والولاية . وحشا بالذهب ثم كل جشع يفتنه الدينار . فشمّر اليه القوم بمحئون
الركائب والمطايا

وراع النزيل الاسود العمامة هذا الفيض يرتع فيه معاوية فتعاظمت
احقاده . وانه لفيض حتى في اسماء الرجل الهادم الباني . فهو ابن ابي سفيان ،
وابن هند ، وابن صخر ، وابو عبد الرحمن ، وخليفة الشام . وضحك
الصامد من مكة الى دمشق على ضغينة وحفيظة وتمم : ما اكثر اسماءه
واقصر ايامه . انه لعلى خطوة من مضجع التراب !

ووقف عند مسيل ماء يغسل وجهه من غبار الفلوات . واذا نفر من
الجند في قبولة وقد تفيأوا ظل شجرة وثيقة الجذع ، طائرة الاماليد . فحيام
وجثم على مقربة منهم . وكانوا خمسة . ودلت لهجتهم على انهم من اليمنيين .
ودار حديثهم على التلغني بحامد معاوية

وشق على النزيل الاسود العمامة ان يمدح القوم من لا يراه حقيقاً
بالمدح فضت فيه شهوة الاعتراض وقال غير حافل بما يكون لمقاله من سوء
الوقع ومضض الاثر : ولكن صاحبكم خرج على سنن الدين وقد رضي
بقيام خلافتين في الامة الواحدة !

فالتفتوا اليه بعيون جاحظة تعي عليه جراته . فمن دعاه الى ابداء
الرأي بهذه القحة اللاذعة ؟ ... على انهم ساؤوا هديه بريق المقال . فانبرى له
من يجيب : صاحبنا احق بالخلافة من كل من يدعيها . فهو ابن سيد قريش ،
ترد عنه الزعامة لتنتهي اليه . ثم هو لم يخضب يديه بدم الخليفة عثمان بن عفان
كلامام علي . والاسلام يكره ان يرفع لواءه ساعدٌ امتد الى الدم الزكي

الظاهر فاذراه !

فعلت ضحكة النزيل الاسود العمامة متكفة النبرة وقال : هذه الحجة على علي اختلقها ابن هند وارجم بها . وشايعه فيها فريق نوقش الحساب في معركة الجمل . ولو اثبت ابن ابي طالب صاحبكم معاوية في ولاية دمشق لبرىء من دم عثمان ولقي في طريقه الرحابة . غير ان علياً هم بنتيجة معاوية ناعياً على ابي عبد الرحمن ترفه واسرافه وتدييره الامور على هواه . وخوف معاوية من العزل دفعه الى نشر قميص عثمان الملطخ بالدم داعياً الى الانتقام للخليفة الشهيد . ولكن ابن هند كان يستجير بالمسلمين لنفسه ، خشية ان يصرفه علي عن ولاية الشام ، لا لابن عفان القليل . وتربة محمد ، ان معاوية ليقودكم في خدمة مآربه كالسوائم . حرام عليّ الاسلام ان لم تكونوا اغنياء منا كيد !

فماج في نظراتهم الشر وانتفضوا للاهانة وقد رفعوا رؤوسهم لها حانقين . وتلت الستهم عيونهم في اعلان السخط فصاحوا بالدخيل الحديد المقول : اسكت ، لا ام لك !

فمضى في سخريته يقول : أتؤلمكم الحقيقة بهذا القدر فلا تطيق اذانكم وعبها ؟ ... ادركت الآن مبلغ سلطان معاوية وقد اغراكم باضاليه ولست ألوم !

فوثبوا من مطارحهم بعيون آكسة وشفاه مزبدة . ومشوا الى النزيل الاسود العمامة وايدبهم على مقابض سيوفهم تهدد بانتضاء النصال . وصرخوا به باشدق يعربد فيها الفصيح : من الرقع المجازف ؟

فجالت فيهم عيناه وبسمة المناعة تترقق في اساريه . واجاب بهدوء الواثق بنفسه : اخوكم من بني تميم ، يدين مثلكم بالاسلام ويؤمن بمطاوي

الكتاب . والمسلم لا يريق دم اخيه !

— ولكنك تتعصب لابن ابي طالب وتشتتم معاوية . وابن ابي طالب لم يجلب دم من تدعو الى حجب دمه !

— كنت اتعصب لعلي لولا قبوله التحكيم . اما وقد رضي به في حق ليس لابن امرأة ان ينازعه فيه فقد كرهته نفسي وخلعته من عنقي . فهو نفسه ارتاب بنفسه !

فصاحوا متحمسين وقد التفت بعضهم الى بعض : لنضرب عنقه . ان هو الامن الخوارج الكافرين !

وتقلقت اسياهم في اجفانها . وامتشقوها بروقاً ترعد بالهول . فيما نيا التيممي الاسود العمامة عن ثبات جناحه . بل هو وقد تلاً لعينه وميض النصال سلّ بآثره لا تأخذه رعشة . فالوقوف تعوده في نزال القادسية ، وفي معركة الجمل وموقعة صفين . فكلمت الاسنة في باصرتيه وهوت دونه يحطما درعه وفيصله . ولم يشأ أن يغمس حديد سيفه في اجساد تدين بدينه فخطب مهاجيه بروح المسالم وعطف النصح : رويدكم في ابتغاء الموت نكلتكم امهاتكم . والله لو اردتها فيكم ضربات جادة لثرتكم شلواً على شلوا! واهوى كالقضاء الرهيب بنصلته على اقرب جندي اليه فاطار منه سيفه دون ان يسه باذى . فرغب في ان ينزل في قلوبهم الرعب فتبدو لهم مكانته في الصراع وتتهيبه افئدتهم . ولكنهم طمعوا فيه وهم خمسة وهو واحد فرد ، وعلا زئيرهم : لنسفكن دم الفاجر . قتله حلال لنا!

وانقضوا عليه . فاستزاهم وهم يندفعون لمقاتلته وصاح بهم يعاود النصح : الى اين ؟ ... لو كنتم معاوية بن هند لطاب لي الولوغ في دمكم .

أما وائتم ابرياء من اثاره الفتنه في الاسلام فما لي ولكم . احرصوا على
رؤوسكم ان تدرجها بيناي
فما ارتدوا . فتراجع دونهم اشفاقاً وهو يقول : ابتعدوا وصونوا
ارواحكم مني !

فابوا ان يكونوا دونه جرأة واقداماً ولم ينتنوا عنه . فظل يتراجع ،
حتى اذا ما بعد بعضهم عن بعض خطوات رسخت قدمه في الارض وتاهب
للقائمه وحسامه يتوالب في مئاه على ظمأ الى الدم ، ولسانه ينضض بقولته:
تعالوا ايها الحمقى !

وتعمد ان يحطم سيوفهم وسواعدهم دون ان ينزل بهم الموت اذا
امكنته يده . فصرع اول وائب عليه فيما يكيل له الضربة الثانية . وبدا هائلاً
عجيباً في منازلهم . فكأنه الشرارة يحطف سيوفهم من ايديهم خطف
الايماضة ويطنهم طعنات تهوي بهم الى الارض مضرجين بدمائهم لا يطيقون
حراكاً . فما شعروا الا وقد تساقطوا امامه صرعى يتنون انين الالم والقهر .
وبقي خامسهم ، خامسهم الاغزل وقد اطار منه التميمي سيفه في ضربة
الارهاب . ورائت على الوهون الارحد الحشبة وهو يبصر اخوانه عند قدمي
التميمي جثاً ينهر منها الدم ، فارتجفت ركبته لا تسعفانه في الدنو من ذلك
المغامر التجدد . واحس منه التميمي الونية فاشفق عليه وخاطبه بلين الرفيق :
انصرف عن مورد حقتك يا ابن عمي . ما قادتني قدماي الى دمشق كي ازيد
في قتاه المسلمين . فكل ما اندبك له ان تحدث معاوية بما سمعت ورأيت ،
وان تبلغه ان لكل اجل كتاباً ، وان يوم الحين قد حان !

فترجع الجندي الاغزل بين الحيفة والحيرة . ولم يقو على نفص جوده

عنه . وشهد المارة الصراع الدامي فاحتشدوا على صباح وولولة . وخشي
التيميمي اقتضاح امره قبل اداء رسالته فمسح سيفه الراعف دماً بثياب الجند
الهاوين امامه ، واعاد النصلة الى الغمد ، وتوارى كالطيف متغلغلاً في
حدائق دمشق الظليلة ، الحضة ، منسجراً بجدوع الحور الالهيف والصفاف
المهبط

امتلات دمشق بالوافدين اليها حتى كادت تغص . ولكن معاوية مع احتشاد الوفود ببابه ، ومثوها بين يديه تعالنه الطاعة والتأييد ، لم يكن وافر الثقة بالغد . فلا يبرح ابن ابي طالب ينادي بحقه في الخلافة وقد توى في الكوفة يمارس سلطانه اميراً على المؤمنين

وزاد في قلق معاوية ارتيابه حتى باعوانه . فما كان يلقى في اكثرهم صدق المهزة وصفاء الضمير . وليس ابن العاص دون علي ازعاجاً وقد ايد معاوية لا حباً لمعاوية ولكن حقداً على علي . فما كان ليروض به ابن ابي طالب والياً على مصر وقولته لا تثبت على لون ، وجشعه لا يقف عند نهاية . فمن يعتمده يجد من نفسه حافراً الى اتقانه بيقظة الحشيان وحذر الملسوع وهال ابن ابي سفيان ان يفلت منه مقام حبس عليه زاد غده قتلاشى في تفكير بمض طويل واوحد دون الناس بابه .

وضافت عليه في تفكيره الحيلة فوقف الى شرفة ايوانه ينظر الى دمشق بعين غشيتها سحابة من جزع واستند الى الجدار لئلا تدور به الارض . وما برح ينظر الى دمشق بلهفة اليؤوس . اتضم قبضته هذا الملك الرحراح ثم تتفتح على هضية ؟ .. وانمض عينيه لئلا يرى فيزداد هلعاً . وما سلّ الهدب من الهدب الا وصوت حاجبه يتمطى في اذنيه : الضحاك بن قيس بباب امير المؤمنين يستأذن في الدخول !

فتنفس معاوية . فالضحاك بن قيس ذو خطر وقدر . وثق به ابن هند
وقد عجم عوده فاولاه منه الجانب الايمن وباتت الدولة الفتية النابتة على
ضفاف بردى ولا مقول فيها ادنى الى سمع غارسها من مقول الضحاك .

ولماذا لا يكشف معاوية عن غمته على عين الضحاك واذنه وهذه حاله
منه ؟ ... قال بالتماس الطامع في النجدة : ليدخل الضحاك يا سعد !

فانفرج باب الابوان عن قامة مديدة تجلبها مهابة الرجولة وتشف عن ثقة
بالنفس واعتداد حصين . هذا الضحاك بن قيس الفهري القائد الماضي
الشفرة والوالي السديد الرأي . فمشى الى معاوية بوقار الانوف ودالة ذي
الخطوة وسلم بالخلقة قائلاً : السلام على امير المؤمنين !

وكان معاوية قد حبا الى سريره يتربع فيه ، فاجاب بافترار الترحيب :
وعليك السلام يا ضحاك !

رقرأ في عيني الرجل حديثاً ينضح بالارتباك فاجس شراً واردف :
ما وراءك ؟

فتباطأ الضحاك في الجواب كمن يحمل نبأ سائك الكلم . واجال باصرتيه
في لحاظ معاوية واعلن بخصن واحتراز : يريد الخوارج شراً بامير
المؤمنين !

فاتسعت عينا ابن هند ، وتفتحت اذناه حتى بات كله آذاناً . واستوضح
بوجل : ويحك ، الخوارج يا ضحاك ؟ ... ولكن علياً كفاني شرم في
موقعة الرملة في النهروان وقد دق اعناقهم ونثر لحومهم لضواري الوحش
وكواسر الطير !

- في كل واد اثر من ثعلبة يا امير المؤمنين !

فاهتز معاوية على سريره وعنده من أمر الخوارج الناقمين عليه وعلى ابن
ابي طالب كل الخبر وصاح : أتراهم زحفوا الى دمشق يتصدونني فيها ؟
فاجاب الضحاك بن قيس بلبحة بجاء ساورتها الكعدة ، الا انه لم يخرج
بها عن وقاره : هم في دمشق يا امير المؤمنين !

فارتجفت حية معاوية وغار لونه . وتضاءلت قامته حتى احس انه
ملتصق الجبين بالتواب . وقال برعشة تمتورها الغصة : أجادت انت يا ابن
قيس ؟ ... بابي وامي ما نضت مقولك بسوى المزاح ، ولكنه مزاح غليظ !
فتصام الضحاك عن النثلة ومضى في قوله : امير المؤمنين يعرف من حقد
الخوارج عليه ما يدعوه الى التصون عن سعيهم به . فقد شهدت اليوم دمشق ...
وسدد الضحاك الى معاوية باصرتين شادشين . ووقف عن الكلام كأنه
يحاول ان يزيد في ايلام معاوية ويلتقم منه نفسه وقد رماه بالغلاظة . فاعول
القلق الحزاز في كبد ابن ابي سفيان : تكلم ، لك الويل ، ماذا شهدت دمشق
ايها الفهري ؟

شهدت صراعاً دامياً بين خارجي فرد وخمسة من جنود امير المؤمنين .
وكانت الغلبة ...

وسكت وعيناه الشامتتان في عيني ابن هند القلقتين . فصرخ معاوية :
لمن يا ضحاك ؟

— للخارجي يا امير المؤمنين !

— وهل ظفر بجنودي الخمسة ؟

— بالخمسة جميعاً . فنثرهم عند قدميه كما تنطير كئبان الرمل امام

سواني الريح !

فوهت قوى معاوية وارتح عليه من الحبية. وخشي ان يكون الخارجي
انسل الى قصر الحضراء ، ان يكون هنا وراء الباب شاهراً سيفه ، مهدداً
بالانقضاض. خشي ابن ابي سفيان ان يكون تغفل في قميصه الخارجي الناعم
او ثوى في كفه . فنفض عنه عبائه وعيناه شاخصتان الى الباب وقال برهبة:
وهل قبضتم على الائم؟

فكان الجواب كقطعنة الاجهاز: لقد تواري عن كل عين يا امير المؤمنين!
فارتعد معاوية واستطلع غاضباً: واين يزيد بن الحرث العبسي صاحب
شرطي؟... اين رجالي؟... اما هموا يطاردة الجاني؟

— هم لا يزالون يبحثون عنه... ولكن الامل بالاهتداء اليه ضعيف!
وشاءها الضحاك واخزة دامية . فرسقه معاوية بنظرة الممتعض. وقد
طفع فيه الكيل وشوت الحمى جبينه . وتراءى له انه زال عن دنياه فرعد
آمراً قاطعاً: ضحاك ، اريد الساعة رأس الخارجي، الساعة . اقبصوا الارض
واقعدوها للقبض عليه . لست اطيق ان يقيم عدوي في ارضي!

وهاله ان يبلغ به القلق هذا المبلغ امام رجل من رجاله لا يتهب الشهامة
به ، فشدد في تذليل اعصابه لطول اناته لتلا يذهب روعه بسؤدده . وود
الاستجلاء فقال وهو يغالب نفسه على البسمة كأنه غير مكثوث للغاشية:
حدثني بوضوح يا ضحاك ، ماذا كان من الخارجي فينا؟

وخلعت بسمته على الايوان جواً من الطمانينة . ولبس كابن هند في
التصنع والتلون . ففي وجهه اقنعة نلو اقنعة ينتضي منها في اقل من القناع
الشرارة اي قناع شاء . فالغاضب يسمي في رفة عين راضياً . والضاحك يبكي
في ما دون الايماضة . والجازع يظفر في رمية اللحظة الى الجبروت

ومالت بسمة معاوية بالضحاك بن قيس الى الايمان بصدق بأس الخليفة .
فروى حكاية الخارجي المستهين بالجنود الخمسة رواية صحيحة الاداء وابن هند
يسمع ويستفص من مضمض . الا انه كان يفرز في راحتيه اظفاره لثلاثا تقضه
فلتات لسانه . فكل ما كان يقاطع به الضحاك قوله : تباً للجبنا ، أيردهم جميعاً
وهم خمسة وهو فرد ؟ ... يا خزيبتنا عند ابن ابي طالب وعذ الخوارج الانكاس !
على ان الضحاك ما بلغ الى قوله : « ولم يحاول الخارجي النيل من
الجندي الخامس ، بل دعاه الى ابلاغ امير المؤمنين ان الحين قد حان ! ... » ،
ما اشرف على هذه التنبؤ حتى شبق معاوية كأن سيف الخارجي شك في
نحره . فصاح الضحاك مستظيماً : امير المؤمنين !

فنهض معاوية يدفع عنه ذعره ويتجلبب السخط الفوار مهدداً يمينه وقد
نفرت منها الاشاجع ودمدم : أيتوعدني ابن الفاعلة وتككونون في دولتي
جيوشاً بعدد رمال الصحراء وليس بينكم من يرد عني مقدوراً ؟ ... اناها ،
والله . لانقبن الارض عن اللثيم وانقبن فيه عن قلبه . هؤلاء الصعاليك نمنا
عنهم فبطروا . معاوية ليس بالرجل التكلة ولا المنتهك الحرمة ، لا ذيقنهم الموت !
وصفق يديه ينادي حاجبه . فاقبل سعد يقول مجشوع العبد الناصع
الطاعة : مولاي !

— اريد يزيد بن الحرث العبسي صاحب شرطي . اريده الساعة . جثي
به على جناح الطير !

وصال وجال . وبداسيداً ضخماً . فتحير الضحاك من هذا الانقلاب
المفاجيء ، كالا عجوبة ولم يكن بين شهبق الملح واطر الصولة منفذ لرجع
النفاس . وما تمالك الفهري وقد راعه المشهد ان قال في سره : والله لست

ارى من يبزه في المداورة . فالاسلام لا يصلح برجل سواء وهو المركب
من كل طبع ، العالم باسرار كل نفس ، الغاضب في حلم ، الخائف في جرأة .
علي يريدها بضربة السيف وهو يحتمل عليها براوغة الثعلب !

واطل يزيد بن الحرث العبسي يتألق فيه العزم والشباب كالمشعل الهادي .
وجه صبيح ، وقامة تشد صعداً ، وكتفان عريضان تسعان للدنيا ، وسيف
احدب براق الغمد كشفت عنه عباءة حمراء من وبر ، وكوفية بيضاء من
خز زر كستها مصانع دمشق وعصبا عقال عقدت عليه خيوط الفضة ، فبرز
تحتها الجبين يشع كأنه انفس شعر في انفس ديوان

وانحنى يزيد امام معاوية يقول : روجي فدى امير المؤمنين !

فقال معاوية وهو في ازباد : ماذا كان منكم في الخارجي يا يزيد ؟

فالقى يزيد نظرة على الضحاك بن قيس تستقيم : « أنت مطلع على
النبا ؟ ... » ، واجاب معاوية بقوله : نحن في اثره يا امير المؤمنين . ما ابقينا
على وكر في دمشق الا ولبناه للبحث عن الجاني فلم نهد اليه . رجالنا في
الحائل والبساتين وعلى ضفاف بردى يجدون في التنقيب . ومنهم من جاوز
الغوطة ولا نبرح من المجرم على ضلة !

فصاح معاوية بغیظ يتأجج فيتفام : ولكني اريد رأسه ، اريد رأسه
فارفعه في صدر دمشق على سفار الاسنة . ان لم تأتوني به يا يزيد حلت عليكم
تقمتي . رأسه بالث دينار . اذهب واهدم دمشق على من فيها واحمل الي
الكافر اللعين !

فاعاد يزيد المنهاته وتوارى كما اقبل ، قبسة عجلان . وزوده معاوية
نظراً صاعقاً يشتعل فيه الامر والوعيد . فاطال الضحاك النظر الى ابن هند

في نغمته وقال في نفسه متعجباً مدهوشاً : انه ليغلي على زمهريو . وجهه من جمر وقلبه من جليد . لو اقبل الخارجي الساعة يقطعنه بالسيف لعرض عليه صدره قائلاً بانكسار ومذلة : « اضرب يا ابن اخي ولا توجع عمك !... » . وقد يدفعه دهاؤه الى ضم الخارجي الى جوانحه والدم يسيل منها الى تقبيل عارضيه . وربما اضطرب لسانه بقوله : « اتعبت نفسك يا ابن اخي ، رفقاً بنفسك !... » . فما اقدره على امتلاك القلوب والتلاعب بمجاوم الناس !

وسكن فوران معاوية كمرجل اطفئت ناره ويزيد بن الحرث العبسي يبرح الابوان . ونضا خليفة الشام عنه سخظه كما ينضو قميصه الخاق . ودنا من الضحاك بن قيس الفهري قائلاً بنبرة حادة الا انها هادئة تتواثب الى مرمى بعيد . هذه الدولة وقد بنينا اسما في اذرح يا ضحاك يجب ان تقوم قائمتها ويطول فرعها . فمن يأتيني برأس علي ابن ابي طالب ، لا برأس ذلك الخارجي المغمور ، ويكفيني شر المنابذة الضاربة قيودها على ساعدي؟... فما استطع ان احك رأسي بيدي !

فما تمالك الضحاك ان يكشر عن افترار ويقول : وما يكون نصيب قاتل علي منك يا معاوية ؟

فصاح وقد بسمت له الامنية على وتورتها : والله يا ضحاك ، لاشاطرنه وفري واعفون عنه حتى ولو خضب يديه بدهي !

وانقلبت سحنه فباتت على جهارتها اقرب منها الى الدمامة . وكشف منطقه عن احقادها فاذا هي تطغى على دمشق وتضع بفيضا معالم بردى . وخطا الى الضحاك بقول وقد رانت عليه وساوسه وفضحه اضطرابه : ايها الفهري ، لا تحسبن معاوية يجشى الموت . فوالله ما الموت عندي سوى

غفوة حالم . على ان ما اخشاه ان اجاهد لديناي ويسقط في يدي . اطعمت هذه الدولة الناشئة كبدي ووقفت عليها همتي ولا اراني بلغت فيها مرحلة الاستقرار . علي يناهضني من ناحية ، والحوارج من ناحية ، وابن العاص لا تستقيم لي منه فناة . وقد اركن الى علي والحوارج اكثر مني الى ابن العاص . فلما كر كالثعبان ، اين ملمس على رهافة ناب . ألا تذكر يا ضحاك ما كان منه اثر مؤتمر اذرح ؟ ... جفاني واقام مني على قطعة . وكل مناه ان ينصب نفسه خليفة او ان يساوم على الخلافة بما لا يقوى على اشباعه فيه كل ما تملك بين الاسلام من سيادة ونضار . ولولا مناعتي لابتلعني . الا انني نخرت كيدته بما اعدت له من عقاقر يهي دونها مكره الخناس . ومع حكمتي وليني لا اقع كيفها ادرت عيني على سوى الاعداء . ويشق علي ان بطوى اجلي قبل ان اجمع هذا الملك في يدي ، وانشر راية السلام على بقعة من الارض لم يحلم بها اكسرة الفرس ولا قياصرة الرومان !

وامتدت اطماعه الى القسطنطينية قاعدة البيزنطيين والى الهند الفسيحة الممرع . ونضضت في باصرتيه هذه الاطماع البعيدة الغور، العزيزة الادراك، فلمسها الفهري بعينه وبديه ، واختنقت في صدره صيغته : يا للطامح ! ومضى معاوية في القول وهو يعوص على امانية واهدافه الجسام : من الغبن ان تقف بهذا الدين السميع حيث وقف به علي يا ضحاك . فالرسول ، وكان يفضي اليّ بنجواه ، اراده ديناً يعم الدنيا . وليس بيننا من تلين له شباة هذه البغية سراي !

وايقن انه باعد في تبه وندّ عن سماحه ، وانه مع سعة حيلته ووفر دهائه لم يشيد وحده هذه الدولة الطالعة المساولة عنوة من دولة احكم اسأ

واقدم عهداً . فان له في البيان شركاء ، ومن شركائه الضحاك بن قيس
القهري المائل في حضرته ، المرهفة للحديث اذناه . وخشي ابن هند امتعاض
جليسه من دعوى الاثرة فقال وابتسامه المبالاة تشع في ثيابه : وما انا
بالناسي فضلكم جميعاً يا ضحاك ، معشر اعواني وخلافي . فان لكم في تشييد
هذا الملك الفسيح بدأ مبرورة . ولولا صدقكم في تأييدي ونفاحكم عني لتحطم
في النضال سلاحي وهويت دون مرجاي ، على ان سواعدكم دعمت طلتي
فظفرت بخصومي . وامنيتي كل امنيتي ان تظلوا حولي لنضمن لانفسنا الغلبة
وننقذ الاسلام من الشهامة والحذلان !

وانشق باب الايوان وبدا منه سعد حنجب معاوية يقول : الوفود تخرج
بباب امير المؤمنين وتستأذن عليه !

فقال ببشر وترحيب : لتدخل ، لتدخل . لست هنا لسوى النصفة
وارضاء الناس !

ولاطف ودامت . واعطى فاجزل . ونام عن الظالم وكفى المظالموم
شر الهزيمة وقد ازال بانه العوان . فما جاءه طالب حاجة الا قضى له حاجته
وصرفه عنه على مرضاة ومسرة . غير انه وهو يقضي في الناس براجع الحلم
ومخفوض الجناح لم ينس الخارجي المتواعد الضاري . وتلفت لتبدو له هامة
يزيد بن الحرث العبسي ، صاحب شرطته ، بين هذه الهامات المتواثبة في
مجلسه ، فما لاح له يزيد . قال : أيكون الخارجي قطرة ماء جفّت في عين
الشمس ، ام هو نسمة ربيع ضاعت في متناهي الآفاق ؟

وخلا مجلسه من الناس فصاح : اين يزيد ؟

ووقف في حضرته ابن الحرث العبسي يقول : لا يزال مقر الخارجي

خافياً علينا يا امير المؤمنين . واعتقد ان المجرم بروج دمشق . وقد يكون
سلك طريق العراق خوفاً من نقمة الخليفة وبطشه !

— اما تينتم اثراً من آثاره ؟

— ذاب كعجة ملح في نهر . لا اثر ولا خبر !

— أيعتدي علينا ويفرّ منا يا يزيد ؟ ... انها لفضيحة لا احسبك بها
ترضى . شددوا في البحث عنه . لست اطيع عدوي في ثيابي . لا تناموا الليل .
فالليل يقظان !

ولكن الجارحي توارى حتى احمى . وقد تكون لفظته دمشق فصدف
عنها وكل مجهود في تأثره باء بالخزية . وساد الاذهان ان الرجل ضرب ضربته
واكتفى ورحل عن قاعدة ابي عبد الرحمن ، الا ان معاوية ما بروج
يوجس شراً

والشهر شهر رمضان ، ومن عادة خليفة مؤتمر اذرح ان يقيم ابداً في
يومه الصوات الخمس . ويزيده الشهر المبارك انغمساً في التعبد فلا تقوته منه
سجدة . وطوى من رمضان ذاك العام ست عشرة ليلة يرتاد فيها المسجد
مصلياً خاشعاً . ومع انهيار السيل في صباح اليوم السابع عشر ، وحدة
الزمهري ، ابي معاوية الا ان يبكر الى صلاته يقيمها في متنفس الضحى .
فالتف بعباءته الراجعة الوزنة ، الفضفاضة الذيل ، المحبوكة من الوبر والمزركش
ادبها الاسود بخيوط الذهب ، ودعا بعصاه المستديرة القبضة كالصولجان
ومشى الى معبد الله في موكب حافل والمؤذن يعلن بخشوع التقى وهنأة
البسلم : لا إله الا الله !

هذا موكب امير المؤمنين . فوقف من درجوا في تلك البكرة الفارسة

الى المعابر شاخصين الى موكب الخليفة . ومنهم من انضم الى الحفل مشمراً
لمناجاة ربه . وما انتهى الحشد الى باب المسجد حتى كان الموعظ ينادي
باسم معاوية خليفة المسلمين على صيحات : « الله اكبر ! .. » . وارتفعت
الايدي الى فسحة السماء المحجوبة بالغيام الدكن تتضرع وتستزيد . الخلافة
لابن ابي سفيان هامة الامويين

ولكن ما هذه الصيحة الهالعة الممزقة الاسماع كحزة المبعض ، المضطرب
لها الموكب كأنه اصيب في متناهي حسه ؟ ... من الصارخ : « قتلت ،
ادر كوني !... » ، الهاوي بباب المسجد بين دمدمات الصخب وسليل السيوف ؟
وتلا الصرخة الهالعة صرخات مرعوبة : انقذوا امير المؤمنين !
وغلى الموكب كأنه قدر تفور وقد اعتلج في القلوب والاسارير الغضب
والهول . معاوية يهوي مضرجاً بالنجيع . ووثب القوم على رجل شاعر
السيف يصيح باستهانة المجاهد: دعري اسفك دمه وليعش الاسلام عزيز المنعة ،
سليم الوحدة !

فارتفعت الاصوات تضج : اقتلوه ، اقتلوه !

وهمت السيوف المسلولة بان تتخطف رأسه ، غير ان معاوية نفذ عنه
الوهلة واستعاد على عجل رشده . فالطعنة وان تكن صرعه فلم تذهب
بصوابه كله . قال : لا تقتلوا الضارب قبل ان تسلخوا من احشائه سره .
كنت ارقب الكارثة . فاحملوني الى الحضراء وانجدوني بالساعدي طيبي !
والضربة اصابته في ألبته . فالمغامر اهوى من الورا بباتوه وانشى مكرهاً
عن الاجهاز والحشد يسد عليه الطريق الى منشوده . وطار اليه يزيد بن الحرث
العبسي شرارة لاهبة يمسك بخناقه وينتزع منه سيفه . ويهزه بعنف صارخاً

به : من انت ايها الناشر الاثيم ، قتلتك اللعنة ؟

وتولت الحشية قادة معاوية فالتفوا حول الخليفة الصريع وقد هالهم ان تنقضي ايامهم بانقضاء ايامه . ورفع الضحاك بن قيس ، وابو الاعور السامي ، وشرحبيل بن سمط الكندي ، ويسر بن ارطاة بين ايديهم وقلوبهم عليه . فالتفت اليهم الضارب المقطم بازدراء واجاب يزيد بن الحرث العبسي بشدة لا تتناهما رعدة : أتريد ان تعرف من انا يا يزيد ؟ ... انا من يريد للاسلام القوة بينا تريدون له الهوان . انا الذائد عن دينكم وقد كنت من الداعين الى قتل علي ومعاوية وعمر بن العاص ليخلو الجو للالفة والجماعة ويحيا الاسلام عزيزاً أثيراً !

واطلقها ضحكة حاقدة توج بالثقمة . فقال سامعيه ما يتفوه به والحواء في الافصاح : من انت ؟

قال : وما تبغون من اسمي وقد اوضحت لكم امري ؟ ... انا من يروم انقاذكم من رجال الضلال فيكم وانتم تشتهون لانفسكم الذل والفضيحة !
فما غاب عن يزيد بن الحرث العبسي انه حيال الحارثي الطريد مدوخ الحنسة . وتعاطت بصاحب الشرطة احقاده على من عبث به هذا العبث الفاضح ، فصرع في كبد دمشق حفنة من الجند وتوارى عن كل عين لا تطوله اذية ، حتى اذا ما عرضت له السانحة هاجم بباب المسجد الخليفة وقد يكون اودى به . وشاء يزيد ان يسمع من المغامر اسمه الصريح فشدد في الاستبصاح : من انت ؟ ... من انت ؟

قال : أتريدون اسمي ؟ .. انكم لهازلون . وما النفع من اسمي والنجح كل النجاح في عملي ؟ ... انا الحجاج بن عبدالله الصريمي . البرك لقي ، وقيم قبيلتي ،

والخوارج قومي . فهل زادكم اسمي معرفة بأمري ؟

فصاح يزيد : هذا هو العين ، قاتله الله !

وشد وثاقه ودعا من حوله من الشرطة الى سوق المغامر الى السجن قائلاً

لهم : عذبه حتى يستطيب الموت وتشتهي نفسه الخلاص من دنياه !

فاجاب الخارجي بطمانينة وارتياح : بشرني باي قتل معاوية ولتحرقني

في جهنم النار!

وجت دمشق حيال النبا الصارخ كأنها في غشية . فلم يها الجزع على ابي عبد الرحمن واتبعتها من شر المنقلب رهبة محمومة . وتلفت بعضها الى بعض مستطلعة حائرة . فودت ألا تصدق ما يلقى في مسامعها من جر وما ينفث في ضميرها من ويل

ومشت الى قصر الحُضراء والشك في خاطرها والرعب في تنوء عينها . وودت ان يطل عليها ابو عبد الرحمن من شرفات القصر بقامته المهيبه وطلعته القور سالماً معافى . فان ابا عبد الرحمن منها للجبين المشرق والقطب الهادي ، الا ان الفاجعة طغت على التعلّة . فالنبا صادق الوجه واللسان . معاوية مصاب بطعنة يخشى ان تكون مسمومة . فصعدت دمشق صيحات الغلّ المعتلج فيها الحوف الكظيم . وماجت حول قصر الحُضراء . وفي كبدها الملح وفي صدرها الوعيد

وغلى القصر بالوفود تستوضح اثر النازلة . واندفع الامويون كالسهم المرنان الى عميدهم الجريح يتبينون فيه العافية وقد هالم ان تبو عن بائي المجد ومعيد السلطان . واذا الجموع تنشق كأنها هامة فلقها سيف ماضي الشفرة . وانساب في الفجوة ثلاثة من الفرسان ترجلوا امام باب القصر بعزيمة مجدولة كالمقبل لمهمة خطيرة . وومضت في احدهم ، وهو شيخ طاعن في السن ، هيبة العلم . وكلما خطا في المزدحمين تطاولت اليه الاعناق مثلها الى منقذ اروع .

هذا هو الساعدي طيب معاوية ورقية دمشق من الاسقام
والنحت عرى المتألمين على الجريح فيما يمشي اليه الساعدي . وبصر الخليفة ،
التململ على بساط الألم ، بطيبه يحث اليه الهمة فالتمتع في حدقيه الامل .
جاءه من يكفيه مضمض الطعنة الغشوم . وافرجت شفتاه عن أنينه : انه لجرح
نغار ايها الساعدي ، فادفع عني لمبيه !

وحبست الانفاس في الصدور والساعدي يميل على الجرح المواج بالدم
القاني . فسد اليه نظراً ثاقباً يرهفه العلم الرشيد . وما لبث ان رفع عينيه
المثقلتين بالهدية الى الخليفة الطعين قائلاً بثقة جازمة : الضربة مسومة بالامير
المؤمنين . على ان بوسعي انقاذك من كيدها . فلك ان تختار ، اما ان
احمي حديدتك تكوي الجرح وتذهب باثر السم القاتل ، او ان اسقيك شربة
تقطع منك الولد فيما تهب لك الشفاء !

فحاتم الابصار على معاوية ترقب الجواب بفضول ظمان . وما ابطأ
معاوية في الجواب ، فكأنه على أسلة لسانه . قال : اما النار فلا صبر لي عليها
ايها الساعدي ، واما الولد فان لي في يزيد وعبدالله ما تقر به عيني ويشفي نهي !
فاعد الساعدي الشربة وسقاها الخليفة الجريح وهو يقول : انها لساجنة
الاثر ، سريعة الجدوى ، دفع بها الله عنك سوء المغبة !

و كأن عبثاً كابساً هوى عن الظهور والساعدي يعلن مقاله . وجات في
الشفاه البسهات المنطمشة ، وعمت البشرية القصر فثملت بنشوتها الجموع . أما
الساعدي فادرك منتهى مجده واسنى ايامه . فطوق هامته التناء بهالات مكتنزة
الاشعة وقد انحنت امام علمه وتفوقه دولة أيده ريباً . وما عفت عن الشكر
حتى النساء المزدحمات في القصر بانتظار ما يكون من امر الخليفة المخرج

بدمه . فاندفعن الى الساعدي بقسمائهن الواضحة وقدودهن الرفيقة يفضن
بكلمات الاعجاب المصطفاة ، الشجية النغم كرنين الاوتار .

وبين الاسراب المتحلقة على الساعدي وجه نبيل الحسن ، وضاء المنسم ،
تندفق شفثاه بالقول الشبي القطف ، الفاتن النعمة . فحامت عليه الابصار
معجبة . وعرف فيه الحشد ارنب بنت اسحاق احدي بنات اعمام الخليفة الطعين ،
ولؤلؤة دمشق الباهرة الجلوة . درجت الى قصر الحضراء معتصمة برعاية ابيها
وامها . فما ضجت به دمشق عن معاوية استغفرهم ، وهم من اللجة ، الى
الخليفة الغارق في النجيع لاستجلاء النبا الرابع والاطمئنان الى المصير

وتغلغل يزيد بن معاوية في الصفوف يبحث عن منقذ ابيه لبيته شكره .
ويزيد في لألاء الفتوة ، يغرورق في اعطافه الشباب الطري ، الفائز اليقظة .
اسمر ، جعد الشعر ، في قامة ضامرة تشد انطلاقاً . اغار عليه في حدائنه داء
الجدري قطع في وجنتيه عضات محمومة . واتسعت عيناه على استهواء خميل
وقد اشرق سوادهما بوهيج روعة

ولاحت للفن ارنب بنت اسحاق في هيفها الوافي وطلالتها الجموح فبرته
منها البلجة العارضة . وناءت برجله همته حبال ذلك الحسن النضيد فيجد مكانه
لا يجرو على استباحة الحرم الوقور

ويزيد طلب نساء ومفتون صابة . بصرعه الجمال كأنه فيه ضحية . فتناهى
شده . وهو لو طلب الكلام لتتبع في القولة . على ان الساعدي انقذه من
صرعته بان مشى اليه بجلاله ومجده بقول : مرحباً بيزيد !

وتصافعا على غبطة . وسرّ يزيد ان بنجو من موقفه الحائر فقال : جئت
أبحث عنك في هذه الجموع لابلغك ثري اعجابي . فان دفعك المضض عن امير

المؤمنين حسنة ننظمها في عقد فضلك الحالي بكل نسبق طريف !
فراقت الساعدي في ابن معاوية حبكة البيان النضير . واجاب وابتسامته
تتسع على عرض شفتيه ويتغصن بها وجهه : نفسي فدى امير المؤمنين . ما
كنا لولاه لنستظل هذه الدولة المليئة بالعظمة والصولة يا يزيد . فان معاوية
فينا للجبار الحليم والسيد الباقي . فاذا ادينا اليه بعض حقه علينا فلسنا بالمتفضلين !
غير ان يزيد ، وقدمات من فورة الحسن على قبضة ، لم يملك نفسه في
الاصفاء الى الساعدي وهو منصرف الوعي الى اربن بن اسحاق في فيض
سناها . وتلفت اليها مضطرب العين ، تنوق المهجة . فاغضت على استحياء .
وتراجعت وفي خديها حمرة من ارتباك وتبظنت بجهد الحلقة المرصوة . فتبعها
يزيد بعينه مجذوباً اليها بشغف مرتجل حفي . وكاد يصيح بها : « الى اين ؟... » ،
غير انه امسك اجلالاً للحسن المبسوط والروعة ، العابق الطيب . وتوارت اربن
بين الجموع فادر كته الغصة وعلته خيبة رمداء لا تقطاع الرواء الفائق وتمزيق
غشاوة السحر . وود ان يشق الحشد الى اربن يستوضحها ما روّعها منه ،
الا انه اضعها وقد احتجبت عن ناظره بمزدهم الجمهور

وتجلت فيه خيبته الممضة . وشاء الكلام فاعياه النطق . بل هو لم يكن
يدري بما يعلن وقد تاه عن مبعاه . فنسي انه قبل يشكر للساعدي جليل علمه
وجزيل فضله . انقذ معاوية من الموت وكأنه انقذ الاسلام من الهوان وصان
البيت الاموي من الشهانة والذلة

ووقف كل من حول يزيد على قصي ارتبাকে وسر لعثمة . اربن رمته
بمخمر الحسن فيها واسرفت في الاعراض . قيدت وتوارت . فيا لئلاسير
المظلوم الحشاشة !... والساعدي لم تغب عنه المأساة . فعاد ينقذ يزيد من

حيرته وامسك بيده قائلاً ببسمة صفية : لنذهب الى امير المؤمنين يا يزيد !
وابتعدا عن سرب الحور الشوان . فقال يزيد مستمراً : انها لكاعب
مشركة الوسامة ، كافرة العين ايها الساعدي . لست ادري والله ما روّعها
مني على استثناسي برضي بهجتها !

فابتسم طيبب الخليفة وقال : هذه اربنب بنت اسحاق يا يزيد . زهرة
من ياسمين على عود من الند . ما في دمشق ابي ولا اسنى . روّعها منك شبابك
وسلطانك . وان تكن كافرة العين في صرع اخوان الصباية فما العتب عليها
ودولة الحسن تتألق منها في المبسم الينع !

فترنح يزيد بنشوة الجمال المندلح الصولة ، المتفنن في تنميق اوصافه الساعدي
الطيبب . وقال وقد فاضت شفتاه بمخلج حسه : ايها الساعدي ، ليتك تقوى
على شفاء القلوب مثلك على ابراء الاجساد !

واطلقها زفرة كاوية الالهب . فضحك الساعدي القساعدة به السن عن
دعري الحنين وقال يمازح ابن معاوية : اللذة في الالم يا يزيد . فما دامت الحجره
تكومي فانت فتيه هنيء . لا تلتمس الشفاء من الحب وفي الشفاء ضجر فظ ،
وفي السلو فراغ دميم ، بل افتح للشباب دروبه وانعم باهواله . فما فاتك منه
لن يعود . والدواء لا تخش بطئه ، فهو في عنق الزمن العجول !

وغلبت الحكمة الممازحة . فنضا الطيبب الشيخ عن كامن شعوره ونضيج
خبرته . وكانا قد بلغا باب معاوية المضطجع في سريره على بسمة الحلم كأنه لم
يكن منذ هنيهات ضحية مكيدة دبرت في ليل . وازدادت بسمة اتساعاً وقد
رفأ في عينيه الساعدي . قال : مرحباً بالنطاسي المنقذ !

واستاذن عليه زيد ابنه . ولم يكن من عادة يزيد ان يدخل على ابيه بلا

استئذان . فاجاز له المشول في حضرته . وجلس الطيب عن يمين الخليفة الجريح ، واقام يزيد عند قدمي معاوية لا تستجيز شفتاه النطق . فقد شد عليه معاوية ابوه في الوقوف منه موقف الاجلال والحشوع . فهو بين يدي خليفة المسلمين . ولم يكن يرضى منه ابوه ، مع كل حذبه عليه ورفقه به ، الاستخفاف بالمقام العزيز الشوكة . فالخليفة خليفة حتى بين آله وبنيه

وضم المكان الضحاك بن قيس القهري ، ويسر بن ارطاة ، وشرجيل ابن السمط . ثلاثة من قادة معاوية الاعلام الذائدين عن خلافته بصدورهم وصدور رجالهم الضخام العديد . وبجانب الحجر المسجي فيها معاوية على فراش الالم ، وراء ستار من الارجوان ، استقرت ميسون الكلبيّة امرأة معاوية ، ام يزيد ، وبنات معاوية الثلاث ، هند ورملة وحنيفة ، وابنه عبدالله ، يصفون الى منطلق الخليفة ويقفون على اخباره . ومعاوية وقد ايقن بالنجاة من خطر الطعنة الصارعة ، ولاح له الشفاء سريع الطلة ، مال الى رؤية الخارجي الضارب والاصغاء الى باعث نغمته . فمن دفعه الى الفتك بابي عبد الرحمن ؟ ... قال ولم يذهب جرحه بجهارة صوته : ابن يزيد بن الحرث العبيسي ؟ ... علي بالخارجي الكنود !

فجىء به مكبلاً بالقيود ، الا ان تبه لم يبرح فيه على غليان . فهو ينظر نظرة شذراء الى جميع هؤلاء الممتدة اليهم عيناه . فهم اما جهلاء او كفرة . نبذوا الدين الصحيح واقاموا من الشريعة السمحة في ضلالة . وما انحنى وقد مثل امام معاوية ، ولا سلم عليه ، بل وقف منه موقف السيد المغلوب على امره ، الناوي في كرامته مع تحطيم سلاحه . قال صاحب شرطة معاوية ابن الحرث العبيسي وهو يسوق الخارجي امامه : ها هو يا امير المؤمنين ،

جاهل غرّ أقدم على جريمة نكراء . لو صدقت طعنته لهدم دولة !
فتامل الخارجي في وثاقه ورعد : اما جاهل غرّ فلا ، وحقك يا يزيد ،
واما لو صدقت طعنته لهدم دولة فهو قول شديد . الا انها دولة بطل وبهتان .
فالدين الازهر يأبى تعدد الرؤوس في الاسلام . كان النبي فرداً ، وخليفة
الرسول ان هو الا واحد فرد . فاذا قام فينا من يعدو هذه الشرعة فلتتخاطفه
سيوفنا . ومعاوية عداها بطمعه واحتياله ، وعلي فسخ المجال الى الاستباحة
بسلامة طوبته وواهي حذره ، وابن العاص جرّ الى الشقاق بخداعه واثمه .
وعلى كل مسلم مؤمن ان يخلع عنه هؤلاء الثلاثة الانكاد !
فارتفعت اصوات تدمدم : صه ، لا ام لك !

فتفجرت من فم الخارجي ضحكة طغت على كل دمدمة . واوماً الى
قيوده وهو يقول بسخر واستهانة : كنت اريدكم على الغضبة وهذه الاصفاد
لا تشلّ ساعدي . اما والله لئن تركتم كالنجوم في قبة الليل ، كل رأس في
فلاة ، ما كلاً للوحش والطيور !

فصاحوا وقد تقلقت الاسياف في الاغماد : لك الويل !
فأشار معاوية ان كفّوا . وقال يخاطب يزيد بن الحرث العبسي : حلّ
عنه وثاقه وانقذه من اغلاله يا يزيد !

والتفت الى الخارجي يقول : خفف عنك يا اخا العرب . انت هنا في
حضرتنا ، فلا خشية عليك . انفت ما في صدرك فكلنا مسامع . من رمانا
بك فاضمر لنا الهلكة ؟

فأجاب الخارجي بجرأته الجموح : رماك بي الدين يا معاوية ، دين الله
القوم . شئت افساده فاعتزمتنا التنكيل بك . ومن سوء حظ الاسلام ان

تكون نجوت مني . بقاؤك هادم للوحدة ومفكك للعروة . لو انصف القدر
لاصاب سيفي منك مقتلاً وصفا بصرعك الاسلام . لا رحمك الله . ولكن
القدر انتصب لنا عدواً قاهراً يبىد منا الشبل لارواء مطامع ومصانعة
اهواء !

فاستدارت العيون جاحظة تهرق بالنقمة . وانعقدت الحواجب على وعيد
وشر . ورقب الجميع ايماءة من معاوية لتمزيق الوقح . بيد ان معاوية الطويل
الأناة لم يذهب عنه طول أناته . فقال يخاطب الخارجي ، كأنه لم يسمع منه
التهديد ولا الاهانة ، بكلمات عذبة الرنة : أياكون معاوية وحده حافز
شفاق في الاسلام يا ابن اخي ؟

فأعلن الخارجي : بل هم ثلاثة ، لا رفع الله لهم راية ، معاوية وعلي
وابن العاص . وان تكن يدي قصرت عنك فما وهن صاحباي دون علي
وابن العاص رفيقك الى النار !

فاعرض معاوية عن الشبهة كأنه غريب عنها ، وصاح وقد تناسى جرحه
وألمه : وهل اعتزمت قتل علي ؟... بالله ، هلا اطلعتني على جلي المسعى ؟
وكاد يشب الى الخارجي يعانقه ازديلاً الى الالفصاح . وغاب عنه ان
هذا المائل امامه اوشك ان يستصفي منذ قليل دمه . فقال الخارجي وهو لا
يرح بمسكاً على حقه ، مغالياً في عبوسه : ما اعتزمتنا قتل علي الا وقد
قضينا بالبطش بك وبابن العاص ، بالثلاثة معاً وانتم اعداء الله . ووطننا
النفس على سفك دمكم في يوم واحد ، في السابع عشر من هذا الشهر ، شهر
رمضان المبارك . ولا بد ان يكون رفيقك يفوصان الساعة في دمهما . علي
في الكوفة وابن العاص في مصر !

ففتحت الاسماع على مداها لالتقاط اقوال الخارجي . وامسكت
الحنايا على لهاثها لا تكاد تجود بنسمة . فاي سر رهيب عجيب ، مقعد مقيم ،
تعلن شفتنا هذا الرجل الدميم الرابع ؟ ... ان يكن جاداً في قوله فلا
ريب ان الاسلام مقبل على ثورة تحبط بعضه ببعض ، فيبيد لها المشرق ويبيت
منها الرضيع على وعي وشيب

واستيقظ في معاوية طهاحه السليط ونفض عنه اوجاعه وصلبت شكيمته .
فان ما يحدثه به هذا الخارجي للامنية المحتلجة بين اضالعه . لقد نجا من الخطر
واضحى لا يبالي وقعه . فان تزل القدم بعلي وابن العاص ، ولا تنبو عنهما
الفتكة ، فاي فسحة من الدنيا تتسع لاطعاه الجسام ولبعيد مراميه ؟ ...
فالاسلام ملك يمينه ، بل العالم حتى اقصيه اضحى منه في قبضته ، من الهند الى
الامبراطورية الرومانية ، من المحيط الهندي الى بحر الظلمات . فهو هو وارث
الهنود والرومانين ، سيد المشرق والمغرب معاً

وما لاح لمن حوله هولاً بدا له نعمة . وما تجهمت له الاسارير انبسطت
له معارف معاوية وقد اشرفت فيها فحفخة الفتح وبهجة السلطان . فلماذا لا
يرث الاسلام مجد اثينا ورومة ، فتضرب له القباب تحت ظل معاوية في
جنبات الكون اجمع ، ويدوخ كل دولة ، ويذل كل علم ، لينشر لواءه الابيض
المنصور على الارض ، ومن فيها ؟ ... وانتشى معاوية بلذة الرؤيا النابضة في
عينيه ، في عينيه وحده . والتفت الى الخارجي الراسخ في جفوته يقول :
هزرت قنوبنا يا ابن اخي . ان ارواحنا لعل اطراف شفتيك . هات ، هات
كل ما عندك . فانك لتحمل في صدرك دعائم غد استجلي تباشيره . من
انتدبكم للهمة الحظرة ، ومن تولى منكم الحجازعا ؟

فجاش التميمي ببغضائه وتفجر فيه حقدته . قال بإياد نقي الدخلة ،
 حريز اليقين : لم يتدنبا للمهمة يا معاوية سوى غيرتنا على الاسلام . نحن
 الحوارج لانجيد عن منطوق الكتاب . فمن اختارته الامة للخلافة فهو
 الخليفة . والامة اختارت علياً فبجئت تسفه رأيا وتعبث بمشيتها . وعلي
 ساعدك في العبث بالمشية وتسفيه الرأي وقد قبل التحكيم في اذرح . مع
 ان الحكم لله لا لسواه يا معاوية . والله قد اصطفى علياً ، فانكر العائر على
 الله حكمه وسقط في فسخ نضبه له دهاؤك ودهاء ابن العاص ، وافضى به
 الامر الى الحسran وتصديق ركن الاسلام . ولقد عز علينا ان يموت هذا
 الركن وتآمرنا في الكيد لكم جميعاً لينجو دين الله من وصمة مآربكم الدينية .
 ويهد قلبي ان ينبو عنك صارمي فلا اخضب الارض بدمك ، واطعم الحشرات
 لحك وقد رعت طويلاً في حوم المسلمين يا ابن هند !

— وهل مشى صاحبك الى الكوفة ومصر ؟

ولم تبدل طلعة معاوية والمثالب تلطمها دراكاً . فامتد النظر بخليفة
 مؤتمر اذرح الى ما يجاوز الترهات يلو كها غمر انكد . ووثب فوراً الى طلبته .
 هل شخص الحارجيلان الآخران الى الكوفة للقضاء على علي ، والى مصر
 للبطش بابن العاص ؟ ... هذا ما ودّ ابن ابي سيفان ان يقع منه على هدية .
 ولم يكن ليحفل بامر ابن العاص وهو مع شديد دهانه يخشى جانب هذا
 الداهية المماذق . فاذا اريق دمه زالت عقبة كأداء من الطريق وخلا الجو
 للمطامع في متفاهم سورتها . وابن العاص دون علي شأنًا وخطراً ، الا ان
 النجاة منه خطوة موفقة الى الطمانينة الرحراح . قال الحارجي : مشينا معاً
 وكلنا يعاهد على ادراك وطره ، والا فالاسلام في حل منا . سوف تسمع

اخبار صاحبك يا معاوية ، فلا احسبها يملكان حظك المنيع !

— ومن انت يا ابن اخي ؟

— من تميم الضامرة لك الويل . ورفيقي منها . ويا للغضاضة يوم تعلم

قبيلة بني تميم ان قد اخطأتك بيناي !

فابتسم معاوية على غبطة وارفة وقال : ليفرخ روعك يا ابن اخي . قمت

بما عليك ولتميم ان تفاخر بامثالك من ذوي المغامرة الهازنة بالمكاره . ولكن

من انت في بني تميم ، ومن رفيقك ؟

ففاظتته الاسئلة تنقض عليه غير مهادنة وقال بجمجمة محمومة : دع عنك

الاسماء يا ابن هند . حسبك انك نجوت من صمصامي وساعدي !

— واي شر يا ابن اخي في معرفة اسماء الانجاد المغاوير ؟

ولان حتى كادت تجهله نفسه . وشعر التميمي بانه حيال ند يخاطبه هو

منه بمقام العديل والمثيل ، لا تجاه خليفة رهيب الجانب ، شكس البادرة .

وهنت حدة الحارجي وسكن نزقه وقال : ادركت الآن كيف غلبت علياً

وجمعت حولك الاعوان يا ابن هند . والله انك لتجمل عدوك على تأييدك

حتى وهو يتأجج في كرهك . يكرهك وينصرك . يا للداهية الرجيم ! ...

اضرب عنقي . اضرب عنقي . لقد غيرت بدهائك وجه الاسلام واصبحت

اخشى ان ادعوك امير المؤمنين !

وغارت عينا الحارجي في ارض الايوان ، وتقلصت قامته كأنه يندوب

في نفسه . فتذره معاوية برحابة صدره وعريض حلمه . وساد الحشوع المجلس

كأن الالسن سلت والانفاس تقطعت . وبات القوم بين مكبر دهاء معاوية

ومشودوه برواية الحارجي . فاي مأساة فاضحة تمثل في حرز الاسلام ؟

قال معاوية برباطة جأش تثير الدهش حتى في النفوس الصلاب : لا
تزال نجبل ابن اخي وصاحبيه !

فاجاب التميمي وقد تلاشى حتى بات يُجرّ بجيظ العنكبوت : صارحتكم
باسمي ، انا الحجاج بن عبد الله الصرمي ، والبرك لقيي . نذبت نفسي للفتك
بك ، وعاهد رفيقي عمرو بن بكر على البطش ببن العاص ، اما رفيقي
الآخر عبد الرحمن بن ملجم فتولى قتل علي . هل شفيت باعلان اسمائنا بهم ...
وكاد يقول : « هم امير المؤمنين ؟ ... » ، ولكنه امسك ، عجلان ،
فلته لسانه وقال : « هم ابن ابي سفيان ؟ ... » . فقال معاوية : عافاك الله .
سوف ترى منا ما يحملك على حسن الظن بنا . عدّ به الى مقره يا يزيد وبالغ
في اكرامه . لا تكبل منه اليدن ولا تشده بوثاق . كن بامان ايا الخارجي !
والثفت معاوية الى صحبه يقول : اذا عدقت روايته ، ونجونا من علي ،
فهو حر . والا فالموت نصيبه !

فانحلت الاسن المعقودة وجرت الانفاس على طلاقة . فقال الضحالك
ابن قيس الفهري : ان الاسلام اعلى انقلاب سحيق يا امير المؤمنين !
فقال معاوية : وهل تخشى عليه وقد وهبت له نفسي يا ضحالك ؟ ...
هذه الدولة نحن من بناتها وسنباغ في توطيدها . وكيف يتهدم الاسلام وقد
حملنا رايته من الصحارى الغامرة الى المدن العامرة ؟ ... سيصول بنا وتعظم
شوكته وندق اوتاده في متناهي الآفاق . ان دولة نبغي تشيدها لا بد ان
تضم اليها ممالك الروم والهنود كما ضمت مملكة الفرس . صبراً ربنا ترد علينا
جلوة الانبياء ونحن واياكم على اهبة التبسط في الفتوح !
فتنقل بهم من قمة الى قمة كأنهم اردانه ، يشمر ويروخي حين يشاء .

واطربهم ان يقودوا الجيوش الى افتتاح البلدان وان يضارعوا الروم في
شامخ سلطانهم ورفيع مجدهم ، فتدين لهم البحار والامصار ويندل الملوك
والاقبال . ولم تبرح سيوفهم المحضبة بالدم ظمأى الى الدم تشتاق ان تنقع
منه غلتها . وعاودت الضحاك بن قيس الفهري كلمته الراهبة في معاوية :
يا للطّاح !

وواحد فرد في هذا العقد النسيق لم يكن يفكر في معاوية ولا في افتتاح
البلدان . هو يزيد بن معاوية . فقد اقلقت نفسه ارينب بنت اسحاق . . .

على انفاس الفجر الالمى تناءبت دمشق في ضجعتها وتمطت في سريرها
الادكن . فالخريف نزع منها ابرادها الخضراء وكساها بالصفرة . واوجعها
العدوان فاخذت تتعري من حلة لا ترتضيها تالماً من المضيمة العاشية .
وتناثرت دموعها ورقة ورقة تكفن بها نفسها وقد آثرت الفناء على البقاء
مفجوعة بحقها السلب

وهبت نسائم باردة تنعش الملتب الجبين وتتقلص بها بشرة المقيم على
ضمرة . وهذه النسائم لقيت في قصر الخضراء من تدغدغه وقد كشف لها
يزيد بن معاوية عن اساريه . فهو في شرفة حجرته المطلة على بردى الهانى
المسيل وعلى بساتين دمشق الباكية وضاعتها الهاوية وعزها المهبض .

وما رفرفت عينا يزيد على الغائم السمر الناشرة على الافق اذبالها ، ولا
شعرتا بصيف مضى وخريف اطل . فالدنيا لديهما لا تبرح الدنيا . ومن عري
اليوم سوف ينعم غداً بالكساء . وجل ما حفلنا به البحث عن دار من دور
دمشق البليلة، تكاد تغرق في اسراب من اشجار الحور، الوائبة على ضفاف
بردى، المرنح الاعطاف بهيمة لعوب . هناك تقيم ارنب بنت اسحاق شاغلة
الفتى الاموي . فنذراها في قصر ابيه وهو يفكر فيها . ويبحث عنها ولم
يبلغ منها وطراً . فهي اذا رآته يعرض لها تسرعت في الاعراض عنه مثلها في
قصر الخضراء يوم اصيب ابوه بطعنة الخارجي

وهائه نفرتها . فكأنها تخشاه . مع ان الحسان يقبلن اليه خفافاً وهو في ريق العمر وابن خليفة . وكم صدّ عن حسان وغالظ فتيات . فلم يكن مع هيامه بالنساء . يكثر لامرهن . فان لديه منهن بقدر ما شاء ساعة يشاء . وما وقف به المطاف عند فتاة غير اربن . فقد شغلته حتى عن نفسه لبلوغ حنينه اليها . وزاده اعراضها شغفاً بها . وكلما انقضى الزمن تقام في يزيد الهيام وتضمرت الحرقه على مديد لظى وجامع أوار

ورام ان ينسى فما اسعفه قلبه في النسيان . فهو صريع العين الدعجاء والمهدب المستطيل ، الرشيقي الرفة . وحاول ان يكشف اباه سره فخشي ان ينهره ابوه . فقد عانى معاوية من طيش يزيد كل لوعة وخيبة . فالفتى المعشاق كاد يفضح اباه المعتصم بالخلافة على سنن الدين وتعاليم الكتاب . وهدد معاوية وندد ويزيد لا يرعوي . فقد فنته انجره والمرأة ، يرشف من تلك وينهل من هذه حتى يبيت لا يطيق وقد مثل بنشوتين ، نشوة الكأس ونشوة الجمال

وما عفا عن قصر الخضراء ببيحه المذاته . فيفتح ابوابه في الليل للندمان والحلان ويلهو بذوب الدن وبفورة الحسن على رحابة وعريض شهوة . وشعر معاوية بالمعصية فثار ، الا ان الابوة غلبت فيه القسوة فركد يتجاهل الاثم . واذا التماذي يطلق منه الغضبة المكظومة . فدعا اليه يزيد بوءنه وبنهاه عن تدنيس القصر بالفحش . فاطرق يزيد وامتل ، وبات حيال ابيه ذليل العين ، خاشع اللب .

وكانت الانباء قد وردت بظفر ابن ملجم بعلي ، وبضلة عمرو بن بكر عن ابن العاص . شاء الفتك به فاصاب صاحب شرطته خارجة بن ابي حبيب .

ودعا معاوية بن سدد اليه الطعنة وخاطبه بقوله : انت حر لوجه الله يا ابن
اخي . اذهب ولا تحقد على عمك . لقد كان عمك برأ بك !
وخلا الجور للاسرة الاموية . فلم يبق من مزاحم عنيد . وقبضت بين
معاوية على جمع الناصية في الدولة الفتية . فهو الأمر الناهي . وليس الحسن
بن علي بن رهب له جانب وتحشى فيه صولة
وشفي معاوية من جرحه واتسعت فرحته حتى عمت دنياه . ومع رجحان
البشرى ، واخضلال الامنية ، لم يكن يجروء يزيد على التحدث امام ابيه
بما يغلي به دمه من هوى بئيس . فقد ادناه منه معاوية وابعدته . ادناه منه
حتى لم يبق بينها شعرة ، وابعدته عنه كأنها يقمان على قطيعة . فان يزيد
ابنه ، ومجيره في الرأي والتدبير . فما من مشكل الا ويستشير فيه هذا الفتى
الناشئ ، المتقد الذكاء . على ان الخليفة يابى الا ان يتسربل ابدأ بجلال
الخلاقة . ويزيد فرد من افراد الرعية ، فليس له ان يشذ حيال الخليفة عن
الانحناء المفروض على المسلمين

وبدا يزيد في ذلك الصباح الغائم في شرفة قصر الحضراء كاسف الببال ،
مغموز الامل . فمن له ينقذه من جواه ومن حسرته في جواه ؟ ... واقام
في الشرفة على جزع ولهفة . وخطر له ان يبرح دمشق الى اخواله بني كلب
الضارين في تدمير الاطناب . غير انه لم يكن يجد لذة في هجران دمشق
وقلبه فيها . فلن ينصرف عنها الا وقد نال المبعى او عثر في الصبوة
ولم يكن يأمن العثرة . فقد قست عليه اربنب في صدودها . وهي لو
كانت تبادله الميل لوقفت منه موقف المؤنس الرحيب اللفته ، قنشاطره النظر
او بعض النظرة ، وتجايبه حين تراه في سكرة الدهول . ولكن اربنب

كانت تمر به مرورها بالآثر العافي، بل كانت تمر به على خشية وقد جاءها عنه
انه طلب نساء . وباحت لها عيناه بما ينتفض به خاطره فابت ان يلوها
ويفضحها ثم يميل عنها كأنها منه قميص خلق نسلت خيوطه فلن يرتديه
وانكأ على الشرفة وتواعدت زفراته تفصح عن شجوه . ودخل عليه
وصيفه رقيق فهالته منه وقفته الساهية وقسوة عينيه . ورقيق ذو دالة على
سيده يزيد . بعد له مجالس لهوه وشرابه ويدعو اليه الندمان والحلان .
واوجعه منذ حين ان يرى ابن الخليفة في كآبة ونزق لم يتعودها فيه ، فدنا
منه يقول بغيره صادقة اللهفة : سيدي يزيد ، ما للصباح الباكر ينتزعك من
رقدتك وكنت حتى نجوم الشمس أليف السرير ؟

فاخرجه وصيفه عن سهوه ، الا انه زاد في ايلامه . فقد وقفت به لوعته
عن الاستئناس بمن حوله فود ان يجلس عليها نفسه . قال ورنه الحزن تجلبطن
في صوته : دعني يارقيق !

وتجلى في ملامحه مضمض قولته . فهو على حرقة . وتألّم الوصيف لألم سيده
فقال : هذه الحال باتت تقلقني في سيدي وابن سيدي . هل لي ان اعلم ما
يشجي ابن الخليفة والكون كله في خدمته ؟

فكان الجواب : آه !

وتأوه طويلاً يزيد بن معاوية . فقال الوصيف : عجباً ممن يقيم على حسرة
وهو مالك الدنيا !

فلم يطق عند ذلك يزيد وقد وثب سره الى اطراف شفتيه فصاح بحنق :
رقيق ، من تحسبه ذلك الدنيا يعجز عن قلب يستولي عليه . أتعرف القلب ؟ ...
هو دون قبضة اليد حجماً ، هو نفاقة من لحم تشوي بين الضلوع على وحشة .

وهذا الصغير ، الحقيير ، لا يقوى من تنوهمه يبسط ظله على العالم ان يقبض عليه !

فجاوز البيان ادراك رقيق . هل يهذي ابن الخليفة ؟ ... ووقف الرصيف ينتظر ايضاحاً . وفارت في يزيد اشجانه فتوالى فيه هديرها . قال : لم يخطر لي في بال ان هذه البسطة من الارض تضم فتاة تصون نفسها مني يا رقيق . على اني بليت بمالم اكن اتوهم ، بليت بمن يطيب لها في هواي الانكفاء . لا تقاطعني . دعني اتكلم . هنا ، هنا في دمشق ، غانية لا يروقها سيدك يزيد !

فصاح رقيق : ومن هي الكافرة البهلاء ؟

— حذار ان تشتمها . هي اسمى من ان تشتم . قد تكون كافرة ، ولكنها ليست بلهلاء . فانها لتنعم بذكاء وافر ، وبحسن وافر ، وبنسب ذكي . هي درة دمشق ، ودرتها اليتيمة يا رقيق . والله ما نظرت اليها الا وخيل الي اني ارى فيها الدنيا . عينها لهبتا نار يشتهي الاحتراق بها كل متعبد للجمال والصابية . هل رأيت من تبدو له النار ويرتمي فيها ؟ ... هي شعلة مضطربة وليس من يقوى على الامتناع من ان يكون لها حطباً . رقيق ، هل رأيتها ، هل تعرفها ، هل وقع عليها ناظرك وما اكلتك النار ؟ ... نار ولكنها لا تنطفىء . هي تحترق ابدأ وفي كبدي منها ضرر وجراح !

— مولاي !

— احترق وانعذب على رضا يا رقيق ، وما العمل وليس بالمستطاع النسيان ؟ ... عينان تحملانك على الايمان بالسحر وهو لفرط غلوها فيه غير حلال . وقامة ، وخطو ، وجلال . آه من الحسن المتحلجة فيه روعة السماء !

— عرفتها يا مولاي !

— عرفتها ؟ ... اذاً انت تكتوي بنارها ايها الانكد . ومن لا يعرفها
عندما يذكر الحسن والجمال وهي منها في البجوحة ، وهي الناشرة على دمشق
لواء السني والدلال ؟ ... عرفتها ولا عجب . وهل يخفى القمر ، وهل تعمى
عن الشمس عينان ؟

— هي اربنب بنت اسحاق يا ابن معاوية !

— هي هي . يا لها من ساحرة . لقد فنت الدنيا وما فتنها احد . رقيق ،
حزرت . هذه من اذلني هواها وما كنت قبل ان اهواها ابالي الحب
واكثر لوقعه الفتاك . قتلت وابت ان تحي من تلطخت بدمه يداها .
جانبة ، جانية ! ... لها الله في يوم الحساب !

وفار يزيد كأنه السائل الملتهب دبت اليه النار . ونظر اليه رقيق في
متأجج ثورته فراع ان يقيم سيده على غليان يكاد يسلبه النية . قال : هل
خاطب سيدي اباه في امره ؟

فهز يزيد رأسه وقبض يماه بعنف على يسراه كمن ينتقم من نفسه وقد
خاب في مأمله وسدت عليه ابواب الرجاء . وقال وكلماته تحمل فلذات كبده
الحرى : أنسأل ابي في قلبي وابي في شغل عني ؟ ... ما عرفتك غيباً يا رقيق .
معاوية اقام هوة بينه وبين ابنه . فلا اجرو على مخاطبته في اموري ولا
على مكاشفته اسراري !

— ولكنك عنده بمنزلة الخلافة وامارة المؤمنين !

فقهه يزيد فقهه الكفران بما يلقي اليه وقال : إما انك تجهل معاوية او
انك تحاور خداعي يا رقيق . وعهدي بك صادق الرأي والمودة . معاوية

يرى الدنيا في نفسه ، في اطعمه الضخام . فان يقف ابنه في طريق امانيه
قالويل لابنه منه . وهو الآن يهدم وبني . فيحاول ان يشيد دينه لدنياه .
لا ، لست اجرؤ على مخاطبته في شؤوني وانا اخشى منه انياب ناظريه !
- لست على رأيك في ابيك يا ابن معاوية !

فعدت القهقهة الى يزيد مولولة رابعة . قال : أتكون تجهل معاوية
يا رقيق ؟

- اني منه لعلى معرفة متناهية المدى . ونجسم لي فيه العطف عليك اكثر
منه على نفسه . واذا شئت توليت عنك محادثته في شجوك . أتريد ؟
فقلب شفثيه . أيلجأ الى ابيه ويطلب منه ان يعقد له على ارينب ؟...
ألا يسخر أبوه منه وقد فكر في نزوات هواه فيما يشيد أبوه دولة تبرز دولة
القيصرية سادة المشرق والمغرب؟... ولكن قلبه ابي عليه ان يتهبب الموقف .
قال : افعل ، افعل ، افعل يا رقيق !

- أ أقول له يزيد يهيم بارينب بنت اسحاق وقد جاءك خاطباً لها ؟
- قل ما شئت على ان تكفيني اوجاعي !
- وادعوه ليعقد لك عليها ؟
- انت مخير في ما تعلن يا رقيق . اريد ارينب بنت اسحاق بجاني وهذا
حسي !

- اذاً طب قلباً . ظفرت بالطلبة . ارينب لك . لا اريد ان اراك على كعدة !
- وما حيلتك في المصاب بهنائه وصفوه يا رقيق ؟
- انت في الغض من العمر . والحياة على مطلق ملذاتها ملك يدك . فلا
تبع للالم منفذاً الى كبذك يرضها ويسقمها !

فاطرق ملتاعاً . اذوى نضرته حب وويل . قال الوصيف : سادخل
الساعة على امير المؤمنين احمل اليه ابريق القهوة . ومن عاداته ان يمازحني كلما
ملت بين يديه ، وان يستوضحني شؤون الدولة وما يتحدث به عنه الناس .
فكأنني له نجيّ امين . وسأفاجئه بأمرك وانا اعلم ما ينطوي لك عليه من
اخبار . فانت لديه الحبيب الصفي . العالم في كفة ويزيد في كفة . انك لعلي
ضلة وانت تسيء الظن بابيك !

— ولكنه بتجاهلني يا رقيق !

— أبتجاهلك من يدعوك اليه لتشاطره الرأي وتقاسمه التدبير ؟...
جاوزت في التجني كل مدى . اني لاشق منك على امير المؤمنين !
وانصرف عنه الى ابريق القهوة بعده ليدخل به على معاوية . ومعاوية
يستطيب القهوة الصبح تنضح بالمرارة . فحملها اليه رقيق تغلي وتفور .
وانحى بين يديه يقول : السلام على امير المؤمنين !

فابتسم له معاوية وقال ملاطفاً : وعليك سلام الله يا رقيق . ماذا تحمل
اليّ في هذه البكرة ؟... هات . ما ترى القوم يعضون !

فاشرق وجه رقيق ومعاوية ، امير المؤمنين ، يلقيه بهذا البشر الحميل . قال :
دمشق على غبطة وامير المؤمنين يرعاها . وماذا تحشى وقد ابعدت عنها
الفجائع وانقذتها من ابن ابي طالب يقتحمها ويستصفيا ، فينزع منها وضاعتها
ويرميها بالكلوح !

— ولكن الله انقذها منه يا رقيق . علي قاتل اخي حنظلة يوم بدر ،
والمحرض على عثمان بن عفان المظلوم الدم ، وعدو الامويين الالذ . شاء
هدمنا فهدمته القدرة . والله لو ادر كني بناه لابقاني رمة !

وحسا قهوته وابتعد به عن خياله دمشق . فتمثل علياً في معركة صفين وقد
ندبه للبراز فارتاع وأدبر. قال الوصيف: على ان هذه الدولة الطالعة لا تستكمل
عدتها الا وقد امرت فيها المسرات . ولقد زان الله امير المؤمنين بالبنين فما
يمنع ان يبتهج بالخفدة ؟

فضحك معاوية وقال : وهل رأيتني اقف بيزيد وعبدالله عن الزواج ؟
— ولكنك لا تدعوها اليه ؟

— أأدعوها الى ما ليس لها فيه شهوة ؟ ... ان يزيد لعلى ارتواء وقد
بات قصر الخلافة ميدان لهوه . يأثم ولا يحجل مني . انها لاستطالة لو بدرت من
اعز من عندي لهدمت عليه القصر باساقله واعاليه . ولكنه يزيد ، نبضة القلب
ومستقر الحشاشة ، فتحملت بغيه على مضض . وهو لو جاءني في طلبه الزواج
لزفقت اليه اروع فتاة في دنيا المسلمين . الا انه على اكتفاء . فالغواني ملء
راحتيه !

وانتفض معاوية بغصة الالم . ابنه ومعقد امله يفني ايامه في المعصية وليس
يرتد عن حرام . ولم يكن رقيق بالمتواني عن السانحة وقد عرضت له . فانتزها
يقول : أتزف اليه من تشهي نفسه ولا تحجم عن تلبية ؟

فصاح : أعاند ابني في من يهوى يا رقيق ؟ ... ليصارحني باسم من تنغش
في خاطره لاعد له عليها الساعة . على ان يحتم في الاصطفاء . فلا يهوى
عن مكانته وهو ابن سيد وحفيد سادة ملكوا الامر في الجاهلية والاسلام !
— لا احسبه يتسفل في الاختيار يا امير المؤمنين !

وابتسم رقيق . وابتسامته اوضحت لمعاوية ان يزيد ورقيقاً على اتفاق في
استدراجه الى امر مقدور . فهل يقيم يزيد على هوى نضيج ؟ ... قال معاوية

وهو يضي في حسو قهوته ، دون اكرتات ، لثلا يثير الرهبة في نفس رقيق
فيمسك عن الايضاح : وعلى من استقر رأي يزيد ؟

فاعلن الوصيف: على من ترى فيها دمشق نور عينها وموئل سناها ، على
ارينب بنت اسحاق !

فسدد معاوية الى الوصيف عينين اتسعتا على استغمام ملحاح . فقال رقيق:
يزيد هائم بارينب يا امير المؤمنين . والفتاة من قريش ، اصيلة النسب ، كريمة
التجار . فاذا رأى مولاي اب يشفي نفس فتاه منها فقد ضمن ليزيد الغد
الشهي !

فلم يجب ابن ابي سفيان وقد ضنّ ببيانه . على ان رقيقاً ود جلاء اليقين
فقال : ألا تقع ارينب موضع الرضا من امير المؤمنين ؟

— وكيف لا ارضى عنها يا رقيق وهي منا وفينا ؟ ... نسب راسخ
المنبت على حسن وازن البشاشة . انها لتليق بنا ، وستكون لنا . يزيد اجاد
الاختيار . ابلغه اني مؤيد له في مطلبه . ارينب لن يعقد عليها لسواه !

ونفض معاوية يرتدي ثيابه وقد حرص فيها على الاناقة الوارفة . فتعمد
الافتداء بالقياصرة في فخفخة الملك ورواء السلطان . وخرج رقيق على جناحين
الى يزيد المقيم على ذهوله في شرفة حجرته كأنه لا يرجو من ابيه التفاتاً اليه .
فعاد رقيق يهزه صاحماً به : يزيد ، ابشر بطيب سلامة . ابوك سيزف اليك
ارينب . رقيق لا يعلن الوعد الا ويشفعه بالانجاز !

فانتشله من الوهدة واعاد اليه الامل بعد قنوط . قال والبسمة عرفت
طريقها الى بحياه الاصفر كتلك الورقات الكئيبة الهاوية عن اغصانها في بساتين
دهشق : اصحيح يا رقيق ؟

فانتشى الوصيف بفوزه وقال بصوت يمور بالدعوى: وهل سمعت رقيقةً
بحدثك حديث هتان وزور؟

— انك لتعيد الى الانس، بل الروح. فماذا كان من ابي؟

— كان ان اصغى الى روايتي وايدك في ما اصطفت واثني على اربنب

الثناء المعطار!

— هل رضي عني وعنها؟

— عاهدني على ان تكون لك اربنب دون سواك. قال: « ليطب قلباً

يزيد. لبانته سنقضها. اربنب ذات محتد اثير. فلن يذهب زفافها اليه بعريض
جاهه ورفيع مثواه! ». ودفعتي اليك كي ابلغك مسانده اياك في مبتغاك!

— انك لصديق نقي المودة يا رقيق. لن ينام يزيد بن معاوية عن ثوابك

وقد توليت خدمته بهمة نصح!

واشرقت في عينه الدنيا. اربنب له. لن يلقى منها وقد وعده بها ابوه

ذلك الاعراض المقيت. فما اجل العيش وقد اينعت فيه علاوات المنى الصباح!

قضى علي بن ابي طالب بسيف ابن ملجم، غير ان انصار علي وشيعته ابوا ان يقضى علي الهاشميين بالنيهار الدعامة وزيفان القطب . فاحتشدوا في الكوفة ينادون بالحسن بن علي خليفة عليهم . وبايعوه بنخوة الغيور على استبقاء السلطان ، وحماسة المتعصب للحق الاثيل . مات امير فقام امير . وبلغ النبأ معاوية فعرض شفته جزعاً . نجح من ملة ليقع في ملة قد تكون ادهى وأمض ونادى اليه الضحاك بن قيس الفهري بكشف له عن غمته . قال : لا نبوح على اوجاعنا يا ضحاك . ما طربنا حتى اكتبنا . مات علي فصفق الحسن بجناحيه . كفاني القدر شر الاب فمن لي يكفيني شر الابن ؟

وتكلم برزاة السيد ودهاء الحكيم . ونظر اليه الضحاك يستجلي بريق عينيه ليدرك مرماه فاذا عيناه على جمود لا تبوحان بسره . فقال الضحاك :
أروم فيه امرأ ؟

— اروم فيه النجاة منه !

— النجاة منه بمجوه ؟

فابتسم معاوية . فكان الضحاك يقرأ منه في قلبه . قال : حزرت يا ابن قيس . قد يكون الحسن دون ابيه رجولة وخطراً ، الا انه عقبة . والخلافة ان لم تقبض عليها يميني من قرطها حتى خلخالها فلست سيف العرب الضارب في اقبية اعلاج الروم ولا اميراً على المؤمنين !

— أتشفه ببن ملجم آخر؟

فانطبقت اهداب معاوية حتى كادت تتعاقد في زوايا عينيه، فهو يسأل نفسه عما يفضي به الى الضحاك الرهيب النظرة، الاثيم الظن. قال بجذر الشفاف البصيرة: ان يدي لتعف عن الغيلة. فلست ارضى بان اجيء عدوي من ظهره وانا الحريص على المجابهة. اذا اصر الحسن على المعاندة في بيعتي وأبي التسليم باحكام مؤتمر اذرح فان بيني وبينه السيف. الخلافة باتت مبرمة المصير. فليس لاحد ان ينازعني حقي فيها!

فقال الضحاك مجتث فاضح: ولماذا تعف عن الغيلة يا معاوية وكننا نجر ذيلها في معركة صفين ونشر لواءها في اذرح...؟ اما جئنا علياً من ظهره...؟ والابن نقضي عليه كما قضينا على الاب. بالحيلة والغيلة. فالحرب خدعة. اذا مانع الحسن بن علي في البيعة فليكن موقفنا منه موقفنا من ابيه. نقتنصه كيفما طالته سيوفنا، وتنصب له من الفخاخ ما يمسي به على خطر التلاشي لدى كل خطوة!

فضحك معاوية وقد ايقن ان لا سبيل الى التمتع واخفاء البرائن في محادثة الضحاك بن قيس الفهري النبيه، الفطين، وقال: وكيف ترى ان تأخذه يا ضحاك؟

— نهده بالقتال، فاذا كابر مشينا اليه. واذا اتفق لنا ان نفضاه بمن يزججه عنا صدمناه بمن يدق عنقه والسلام!

فاطرق معاوية كأنه يفكر في ما يعلن الضحاك. فهو على اتفاق في المذهب وابن قيس الفهري. ولكنه شديد الحذر في الايضاح. وطال فيه اطراق متحرّز. فقال الضحاك: على ماذا عول امير المؤمنين؟

فاجاب : امهلي يا ابن قيس !

— السرعة خير الاحكام يا معاوية . اذا فسجت في ايامه نسا وصلب
عوده وتعبت في قهره . فبادر الى النزال ، او الى الاعتيال !

قال وهو لا يزال يتردد : دعني افكر في امري !

ونفض بصرف عنه الضحاك ويدعو اليه ابنه يزيد . وكان يلقي اليه بشجوه طمعاً
في رأيه المؤنس الهادي . ودلف يزيد الى ابيه وفي معتقده ان الامر تم ، وان ارينب
اضحت اكلة ميسورة . ووقف بين يدي معاوية وقفه المسود من السيد . فحنا
رأسه وهو يقول بجشوع العبد الطائع : السلام على امير المؤمنين !

وهذا الاسراف في العظمة يعرق فيه معاوية انتهى اليه من الروم سادة
دمشق قبل المسلمين . فالفتنة عادة متأصلة في دورهم وبلاطهم . ومعاوية
شاء الاقتداء بمن سبقوه في البذخ والايهة فاقام لنفسه عرشاً . ووقف ببابه
الحجاب والحدم . وكان موكبه اذا سار في الارض يحفل بالحرس يمشون
امامه ووراءه . وليس لمن يبغي الدخول عليه ان يجلس فوراً اليه . فلا بد
من الاستئذان والانتظار قبل المثول بين يدي الخليفة . ولا بد من الانحناء
في حضرته دليل الخضوع والاجلال . وما شذ عن النهج المرسوم حتى اخوة
الخليفة وبنوه . وتلك الدالة في مجالسة سيد القوم ، خليفة الرسول ، مضى
اورانها . فالروم والفرس رموا العرب بدلائهم وانسلوا . واول من انتقلت
اليه العدوى معاوية بن ابي سفيان

والتفت معاوية الى ابنه يقول : جئت يا يزيد ؟ ... دعوتك كي استشيرك
في امر الحسن بن علي . موقفه يقلقني . بايعه العراق واقامه لي منافساً .
فماذا ترى في الخلاص من الممة الطارئة ؟

فغاب يزيد في الامنية . رقب ان يحدثه ابوه عن اربنب فاذا به يحدثه
عن الحسن بن علي . بيد انه اخفى مضضه وقال : اريد امير المؤمنين سحق
رأس الافعى ؟

— هذا مبغاي يا يزيد . سحق الرأس لا الاكتفاء بقطع الذنب !

— اذأ على امير المؤمنين ان يمشي الى الكوفة !

— ونقصي عنها الحسن ؟

— لا بد من البطش العاجل بابن علي . وليس لامير المؤمنين ان يجشي
الحذلان . فالابن لا يملك منعة الاب . جيشه على اضطراب . ومكاته دون
مكانة ابيه . والكوفة ، موثله ، خذلت علياً ، ومن المحال ان تعتم بمامتها
للابن اكثر منها للاب . فلا بد ان تنفض منه يدها وقد جرته الى المهلكة .
اضررب ولا تبال . انت سيد الموقف وفارس الميدان !

— أيقم يزيد في رأيه على اقتناع ؟

— على اقتناع ورسوخ . فالحسن اشبه بابيه ، في اخبث جند وانكد حال .
ولا يغرك من الكوفة عهدا ، فهو خالب ، ولا وعدها وهي منه في مواربة
الكاذب . فالكوفيون طوال الالسن ، ولكنهم قصار الايدي . يضرمونها
حامية ، ولكن ليشهدوها من بعيد لا ليكتبوا بناها . ميثاقهم مبطن بالقدر .
ويمنهم رثاء ومكر . فليهدف امير المؤمنين نصلته وليسددها اليهم ، فانهم
لصرعا قبل ان يرن في آذانهم سهمه . ما عرفت كالكوفي مهذاراً ، جباناً .
يدعي البطولة ونحوه في مستهل الطريق رجلاه !

— لنضرب اذأ يا بني !

— اضررب والنصر في خدمتك يا امير المؤمنين !

- وما يكون من الحسن ؟

- يكون منه ان يقبل اليك مستجيرواً وقد انتثر من حوله اصحابه .
ولا بأس عليك ان تجيروه . ولكن الى حين !

- أطلقه وقد بات في قبضي ؟

- لن يفلت من هذه القبضة . فهو اسيرها . وانه ليهب لك نفسه في
استسلامه اليك . وعليك ان تبدو حياله في كرم المغيث . فلا تضرب عنقه ،
بل تكرم وجهه وتميل عليه حادباً رفيقاً . وتمضي الايام على امتداح خلقك
السيمح وحلمك الندي . ولكن الحسن لن تطول ايامه وعندني لها سفرة
باترة تذهب به كشرارة في فضاء !

- أتفتك به ؟

- افتك به وانا منه بريء . فلا ألتخ بدمه يدي ، ولا يبصر لي وجهاً .
ولن احرض عليه عدواً وسأجعل عدوه في داره اقرب اليه من اصفى خليل !

- ويحك يا يزيد !... ماذا تقول ؟

- اقول سأقضي عليه بيده !

- وكيف ؟... زدني ايضاحاً . افصح يا مهجة ابيك !

- الافصح في ذمة الغد . كل ما لي ان اقول اضرب ولا تخش . منافسك

دونك . انت الراجح الكفة !

فبلغت الغبطة من معاوية مبلغ الفوس . فنزع منه وقار الخلافة واقبل
على يزيد يضمه الى صدره و يقبله بشره وهو يقول : ذنوبك تلقى مغفرتي
حين اصغي الى رأيك ومشورتك . فانت ذو تدبير سوي . حدثني رفيق عن
هوالك وسأخطب لك ارينب طلبتك ، ولكن بعد الظفر بالحسن بن علي . سأدفع الى

مناواته جيوشي . فالخلافة لنا ، لبني امية سادة قريش وقادة العرب الاقعاح .
وارينب منا . فلن يزحك فيها احد . كن على صفو ودعة !

ونادى حاجبه : ابن قادة جيوشي ؟

فاقبلوا في جلال ونخوة . فوقف فيهم معاوية خطيباً يقول بلهجة ذي
السلطان : دعوتكم لامر من الخطورة على قدر . الحسن بن علي يجاذبني
الخلافة وقد اقرني عليها المسلمون وبذلت لها وسعي ، فشدوا اليه اعنة خيولكم
واتزلوا به عن دعوى الافتراء وصبوة الطامح . اريدكم على كسر شوكة وجره
الينا على استخذاء . لا ترحموا فيه ضعفاً ولا تسايروا صاحب شفاعة . من ناوانا في
حقنا ليس له عندنا ثواب . منذ غد اعدوا العدة وازحفوا بعد اسبوع الى
الكوفة واعتمدوا الله . اني لارقب عودتكم وفي ايمانكم الوية النصر !

فما عارضوا ، بل انحنوا وايديهم تضغط مقابض السيوف على جذل
وارتياح . فقد خافوا ان يعلوهم الصدا بعد طول سكون . ونظر اليهم
معاوية في الخناتهم الحازمة وخطوهم العارم . وشف مجياه عن بسمة تفاخر
الزمن بالقدرة . فالخط خادمه . واستبقى يزيد يبغي ان يستل منه مكنون
سره . قال وعيناه ترتدان الى فتاه : رأيت كيف يدينون لمشيئتي
يا يزيد ؟ ... قلت فأذعنوا . كنت اريدك في طليعتهم تضرب بيدك عدو
البيت الاموي . فعلينا ان نتولى امرنا بانفسنا فنكون ابدأ السادة ، في
الحكم وفي ميدان الكفاح . لقد علونا الناس بحسن تديرونا قبل ان نبزهم
بسيوفنا . ولكن الزمن مديد ، وانت ذو اقدام ورأي . ألا حدثني بما تضر
للحسن وقد خذلناه . فاني اقرأ في عينيك مكيدة لبلاء !

وادناه منه بلاطفه وبلامس خده . فقال يزيد : الامور مرهونة باوقاتها

يا امير المؤمنين !

فقال معاوية مستدرجاً : لا عليك اذا شفيت فضولي النهم . سر ك ببقى
في حرزه . أتخشى عليه من ابيك ؟

فثقلت شفتا يزيد تترددان في الابانة . وخجل الفتى من نفسه كأن ما
سيفضي به ذلة . فاستحى معاوية بضراعة الليف : هلا ارويظ ظمأي يا يزيد ؟
فتصاعدت من فمه الكلمات واجمة مطرقة كأنها تجر ذبل الفضيحة .

قال : اتاني عن امرأة الحسن ، جعدة بذت الاشعث الكندي ، حديث !
فتكشف السر لمعاوية وشعت في ناظره البسة . وطفحت اساريه اعجاباً
بابنه ، بل سره ان يقوى على استغلال هذا الابن لمجده وسؤدده كما استغل
الاسلام ، وزعامة ابيه في قريش ، ورجولة اخيه يزيد بن ابي سفيان اول من
ولي دمشق في فتوح المسلمين . قال والغبطة تنبض في مقاله : ايه يا يزيد ،
وماذا اتاك عن جعدة ؟

— ناشز ، فارك ، ليست تطيق الحسن وهو في محبوبحة الكهولة وعي في نضرة
الفتوة . وقد ذكرت في مسمعا فتولاها حنين : قالت : « يزيد ريحانة
بليلة يلا عطرها الحياشم ! »

ثامتد معاوية الفكر الى آفاق يتناهي بعدها . ونظر الى ابنه نظرة لا
تبرح تور بنزعة الاستغلال وقد عقد على كلمات جعدة في يزيد طرفاً من
مكيدة يقتل جبالها . قال : ان يكن هذا رأيا فيك فماذا تتوي فيها ؟

فدب النشاط الى صدر يزيد وقال بفورة من حماسة : سادعوها الى
القضاء عليه بان تدس له السم !

فتعاطم اعجاب معاوية بابنه . وما تماسك ان يعود الى ضمه وهو يقول :

يزيد ، انت جدير بخلافة المسلمين بعد ابيك يا قرّة عين ابيك . فانك لعلي
اصالة رأي وسداد مسعى . صن نبلك بين اضالعك حتى يأزف الموعد .
سنكون بحاجة اليك اذا ابقت حرابنا على ابن علي . فنفري جعدة بدم
الحسن . وسوف ترديه !

ومع هيام معاوية بالخدعة ، ورغبته في امتلاك المسلمين بالحيلة ، فقد اعترّم
المسير الى الكوفة بخيله ورجله . فلم يكن يرهّب الحسن مثله علياً . فالحسن
غير مجرب في الامور كآبيه . ثم ان هؤلاء اللتفين حوله ينصرونه بمقدار .
فاذا لاح لهم منه انه على كبوة ، بل على وهم من كبوة ، اساحوا عنه
وانكروه

وزحف جند معاوية الى الكوفة بروم نشر اللواء الاموي الابيض على
عرصاتها ومغانها . وطنّ النبا في مسع الحسن ففقد اقيس بن سعد بن عبادة
على اثني عشر الف مقاتل وجبه به الجيش الاموي . ولكن هؤلاء المنطلقين
الى مقاتلة جند معاوية لا يكادون يتناسكون هولاً ورعباً . فهم يسيرون
الى القتال على كره وسهوم . فان من يقاتلون يرفعهم بحوله وطوله وقد
عرفوا كيف اغتصب الخلافة من علي بن ابي طالب ، حتى انهم اتموه باغتيال علي
وقد حرض عليه في زعمهم ابن ملجم . فالثقة بالغلبة افلتت منهم وهم يشدون الرحال
الى المعتوك ، بل قبل ان يشدوا اليه الرحال . وما اصطدموا بجند معاوية
وشاع فيهم ان قيساً قائدهم أصيب ففضى حتى تناثروا على ادبار لا يدرون
كيف يطيرون في فرارهم الزريّ

ونهبوا كل ما طالت ايديهم من ارزاق جيشهم وامواله . وما عفّوا عن الحسن
نفسه وهم اعوانه وانصاره . فوثبوا على سرادقه ينهبونه . فاعترض الحسن

فقطعوه بالحجر في بطنه وجدلوه يتضرج بدمه . فراءت الخزيمة ابن علي
وصاح : ايها الانكاس ، غدركم بي اشد علي من غدركم بابي . لو لم اكن
خفيف الحلم لاقمت منكم على ريبة . ولكني آمنت باخلاصكم وانتم المنافقون
الاثمة . لا بارك الله في اهلي واولادي اذا عدت الى الثقة بامثالكم المهازبل ،
بل اذا ملكني ذرة من الثقة بقوم لا يرسخون في دين ولا يعصمهم يقين !
ودعا بنقر من خلّص اعوانه فرفعوه على جواده وعادوا به الى الكوفة .
وقبضت بين معاوية على ناصية الامر في الدولة الطالعة واورق عود الامويين .
كل شعبة زالت وكل صمب هان . فلم يبق في المضار منافس . ووثب ابو
عبد الرحمن الى الكوفة بطلعته الوقور وسماحه الرخي . واقبلت الوفود
تتحني بين يديه وتسلم عليه بالخلافة . ومشى اليه الحسن بن علي بنفسه يناديه :
يا امير المؤمنين !

ومادت الكوفة وابن علي بن ابي طالب يبايع معاوية . واتقد صدر كل
من تشيع لعلي بالنقمة الحمراء العين ، البارزة المحلب . اينقض ابن الامام بيعة
كتبها له العراق بدمه وانزلها منه في عنقه ؟ ... ومعاوية هذا مبعاه . فقال
على الحسن يعانقه كأنه يلقي يزيد ابنه . وقال من شهد الصفة : غبن مفضوح .
تعبان ينفت السم في نعجة !

واشرق محيا ابن ابي سفيان . فقد شفي من الغصة وعذبت ليلاليه المراض .
فهو السيد ولا شريك في السؤدد . قال مداجياً : نمن فروع دوحه واحده
يا ابن علي . جمعتنا قريش وضممتنا العلياء في حزمة وزادتنا النبوة مودة وقربى .
والله انك لمن نفسي في منزلة يزيد ابني . وما نحن في الاسلام سوى دعائم
نصرته . وهيبات ان ترجح دعامة على دعامة سواء انتهى الي الامر او

ملكته يثا . وهذه الخلفة لك من بعدي . اعاهدك عليها عهد الصادق الحقاظ . فلن اخلعها من جيدي الا لارصع بها نحر ك . فعلام الخوصومة والعداء ؟ وتفنن في المصانعة وهو يملك منها الزمام . وومض دهاؤه فبهر واعى وطاول السحاب . فركن اليه حتى من اقام منه على كره وقلبي . غير انه وهو يعد الحسن بالخلفة نغشت في خاطره مكيدة ابنه يزيد ، فابتسم لها قلبه وافاض بالوعود لا يخشى منها جسامه ولا يقف في اصطناعها عن خطورة .
يزيد سيكفيه مشقة البر بها

وشاء ان يرى جعدة بنت الاشعث الكندي زوجة الحسن . فهي طريته الى ماربته . وهش لها وبش . والقى بين يديها سني التحف . هذه من عترة الكرام الميامين . وتحدث عن يزيد ابنه بفخر واعجاب . فتى ابي رضي ، تتقد بالرجولة جوانحه وبالنوال يده . وانسابت منه الى جعدة نظرة خفية وهو يتحدث عن يزيد . فاذاها تلبع ريقها تشبهاً وتطرق في الارض . فسرته منها هذا الهيام الصامت وايقن ان بوسعه اعتمادها . فقد اقيمت الاحبولة وتدا تشد اليه . يزيد صادق في قوله ان لجعدة اليه حينئذ . فتعاضمت في معاوية تزعة الاستغلال . الاستغلال بلا رحمة ولا وجدان . سيدفع ابنه الى جعدة يستهويها وينفخ في لها الاعراء الاثيم . ولا بأس عليه اذا هدم اسرة ومزق شعبة . فالسيادة لا تستقر في يد من يرعى ذمة ويصغي الى ضمير !

وخطب جعدة بقوله : كم نانس بابنة اخي في ارتيادها مغانينا . نسائي وبناتي يفتحن لها القلوب على غبطة ومسرة . حرام علي الطعام ان لم تكوني في قصر الحضراء في ضيافة اعمامك يا جعدة !

فتلجلجت وقد راعها بيانه . قالت وفي صوتها رعدة : ان بنا الى دمشق

لشوقاً . سنقوم اذا اسعف الزمن بارتباد رحاب امير المؤمنين !
قال : بل ارتباد رحابك ورحاب زوجك الحسن بن علي يا ابنة اخي .
والله لست ارغب في ان امتلك لنفسي شبراً من الارض ولا في ان تقبض
يميني على درهم الا وقد ايقنت ان لي في اهلي وفي المسلمين من يشاطرني اياهما .
فما الدنيا عندي غير وهم غائم وسراب سائم . تعالوا اليّ وخذوا ما في يدي .
فقد كرهت طول التواء في الارض وتعبت بجملتي . وليس احب اليّ من
ان ارى حولي اهلي وعشيرتي !

وتأوه حتى اوشك ان يكفن بحسرتة . ورقّ حتى كاد لا يبين على عظمتة
وجلاله . فتناسى كل ما كان منه في علي والحسن بن علي . هذا ليس معتصب
الحلقة من ابن عم الرسول ومن خفيد الرسول ، ولا رافع لواء الجاهلية
في الاسلام وقد كانت في الجاهلية السيادة في بيته فاستعادها وللإسلام احكام
وسيوف

وأمن بلوغته وزهده في الدنيا الحسن وزوجه . فخذعها ظهوره بجناح
كسبر وأحبّاه على صفاء طوية . وانسلخ منهما وهما يأسفان على انقضاء
فترة التراضي وبث الشجون . وعاد معاوية وهو بباب الحسن يلقي على جمعة
نظرتة الخفية المبطنة بشهوة الاستغلال . وما تمالك ان قال في نفسه : هذه
هي الضالة المنقذة من الشبح الديم . بها ساستل انقاسه . سادعوها الى لفّ
يديها على عنقه حتى لا يبقى فيه خلجة روح !

فاقبل حملاً وانصرف نمرأ . ونم يكن يبالي في سبيل اطماعه العيبث بكل
حلال . فالسير على الاشلاء والرؤوس لاجل امنية يرومها اشبه لديه بالسير
على رياحين . واندفعت اليه دمشق وهو يعود اليها غارقاً في ظفّره تغنيه اجمل

انشودة صاعها ملهم رهيف الحس . فالسيادة معقودة له من طرفها . هذا
خليفة المسلمين !

وخلا فوراً بابنه يزيد . قال : اراها منك على هوى مستفيض . بلغت
ريقها وانا انقدها اسمك . لا عليك اذا هوت بها ريثما اعقد لك على ارينب .
طرء الى الكوفة واحمل اليها شبابك ومال ابيك . اراها في صبوة الى المال
والشباب !

أينأى عن ارينب ؟ ... ان اياه ليورده على ما تمهي به الطاقة . وادرك
معاوية من تردده عله . قال : ارينب لك . فلن يقيل من ينافسك فيها وانا
العهد . اذا كتب للحسن ان يعيش فمن الخال ان تم لنا الهناة ووراه في
العراق مائة الف سيف . قد يجد من يزخرف له الغبن في الميثاق المعقود
فينتقض علينا وتطولنا في قهره الصواب . وربما غلبنا على امرنا . اسرع الى
الكوفة وجاهد في سبيل ابيك . فلن يكون ابن علي خليفة لي وانت اولي
منه بالمقام المنيف . ساعدك على ارينب والخلافة معاً . اين وثبتك الى اقتناص
الغبين ؟

ولم يكن من الطاعة بد . ابوه دعا وعليه ان يجيب . وامتنى جواده
يزحف به الى الكوفة وقد ختم على ارينب فؤاده . انه ليبغي جعدة ولكن
روحه عند قدمي ارينب تسيل . فيا للسياسة ما اظلمها في حكمها السقيم ! ...
سيخضع ويخادع ويستميل اليه قلباً بخالب الوعد ثم يساوه ، فهل كانت
يرضى ان يبلى بمن يمثل حياله هذا الدور الماكر الكذوب ؟

ولكنها مشيئة ابيه الغلابة ، ولكنه الوعد بارينب ، ولكنه بنيان دولة
أيده رجة . وحط رحاله في الكوفة اشعث اغبر ، تشف طلعه عن الجـد

والهمة . فهو عاشق متكلف يتصنع الحب والصبابة . فما حبه سوى خدمة
لمصلحة . ولو استطاع الى اربنب سبيلاً لكان موقفه منها موقفاً الطبع
الصادق والحس الامين ، ولانجبت عن اساريه هذه الغمرة وقد اتعبته فيها
رصانة شديدة الاطباب ، مكرهه الاعنة . فكأنه اقبل لعقد ميثاق بينود
وفصول لا لاطلاق عاطفته على مداها ، نغني تارة ، وتتأوه طوراً ، وتنضح
بما تذخر من شوق ومرح وشجو وانين

ودرت الكوفة ان يزيد فيها فعلاها استفهام واقلقتها ربية . ماذا حمل
ابن معاوية على هبوط قاعدة الهاشميين ؟ ... وعقدت الحلقات تبادل الرأي
وتستوضح الحافز . وهاج في بعض الصدور حنين الى ابن الخليفة الفتي .
وتحدثت نساء الكوفة عن يزيد التبع المعشاق واقاصيه باتت لجة بحالهن
وسداها . وساق المنطويات على فضول ان يبصرن ابن امير المؤمنين ويعرفن
الهائم المتفاني غراماً . وسألن عن مقره ومجال غدوته وروحته . فكن يقفن
الى النوافذ والكوى وثقوب النوافذ والكوى ينظرن منها اليه في اجتيازه
الساحات والازقة . وتناقضت فيه آراؤهن . على ان فتوته شفتت فيه لدى
اشدهن بغضاً له ومقتاً . فهو في عمر الزهر الفواح ، الوضاء الجلوة

واقبل على جعدة بنت الاشعث الكندي من يبلغها ان ليزيد هوى فيها .
فاستعذبت التبا وراقها ان تلقي اليه سمعها مستبشرة مستريضة . ابن امير
المؤمنين يهاها . وتولاها دلّ جموح . فهي مشتهى من قال فيه معاوية انه
فتى رضيّ ابي . ولم تمنع بعد لأي وتسويف في لقاء تجالس فيه يزيد . قالت :
دعاني اليه فلن اخيب له امنية . واي عار على امرأة خليفة في لقاء ابن خليفة
ولن تأثم وتهوي الى معصية ؟

وبدا امامها يزيد على شوق لهيف . قال : صدق من حدثنا عنك يا جعدة ،
فانك لفي قسامه وارفة تفضح سنا الصبح الابليج . باقوته متأججة اللاء .
فما اشهى وما اغلى !

ويزيد شاعر الطبع والقطرة . تنقاد اليه المعاني على رضا ومسألة . فلا
يكدر في استلالها . وخضب الحجل وجنتي جعدة . قالت وهي في اطراقة المرتبك في
ما أثقل به من اعباء الاطراء والمديح : يا بني انت وامي ، لقد بدا لك مني
ما لا اراني في بعضه . ولست ادري أتزح ام تستهين ؟

فقال منكرأ عليها ارتياها باعجابها بوسامتها : والله لست بالمخاتل ولا
المازل . جاءني عنك انك في عنقوان الروعة فراقتي ان اقع على الحسن
في متناهي امده . واذا ما يختلج في عيني يكسف ما نبر في اخني . دمية لعوب
وغادة طروب . ان الحسن بن علي لفي متعة من ديناه تعصمه في دينه . ليت
لي بعض هذه النعمة اتقي بها جفاف حظي المنكود ؟

فصاحت متعجبة : أتتعى نفسك يا ابن معاوية والخلافة في عنق ابيك ،
والسيادة في الاسلام معقود لكم لواؤها ، والعالم من اقصاد الى اقصاد يؤدي
اليكم جزية الطاعة ؟ ... ربي ، هذا كفر وجشع . رفقاً اللهم بعبادك
الطامعين !

فانطلقت منه ضحكة كثيرة وقال بصوت حزين : ما سرعك في الارتباب
بما يطرق اذنك يا جعدة . والله لست اراني ولا اداجي . في نفسي من السأم
والملل ما لو وقع على جبل الانيار . فلست من دنياي على غبطة ، وانا فيها
غريب كأني في عزلة . أتصبرين بذلك الحشد بباب ابي ، وبذلك النعمة الفارق
فيها معاوية ؟ ... مينا ، اني من كل ما حولي لفي صحراء جديب . بحثت

فلم أجد ، وامعنت في الطواف فما كنت لاهتدي !

فراعبا منه هذا التبرم بالحياة . فتى في مستهل الشباب يزهد في دنياه .
ومن هو ؟ ... ابن معاوية بن ابي سفيان سيد البدر والحضر ، القابضة يميناه
على دولة طأطأ لها الجبابرة هاماتهم صاغرين . فتى يحسده على نعمته من باتت
النعمة فلادة في جيده . وعادت جعدة الى ارتباكها وقد رانت عليها حيرة
كالبسة . بماذا تسمع ؟ ... يزيد يشكو زمنه وليس في المسلمين من يلهو كيزيد
وهو يقضي ايامه في الصيد والقنص ، ويحسو الحجرة ، ويشره الى الحسان .
إذا ابن السعادة ؟ ... هذه الضالة من يدر كها ويرتع في ظلها الانيس ؟

والتفتت جعدة الى نفسها . ولاح لها بما هي فيه انها تتعادل ويزيد في
جفوة الزمن . فهي مثله لا تقيم من يومها على رضا . وفيها تعجب من يزيد
كيف ينعي نفسه ساورها نعي نفسها . كانت الخلافة في دارها فأتت عنها .
ولمع السؤدد في عين زوجها الحسن بن علي فما لبث ان خبا منه النور . ومشى
الناس في طاعة هذا الزوج فاذا بهم يميلون عنه وينساكرونه . وهي ، هي ،
غير راضية عن كهولة الحسن وقد قعدت به الهمة وفارقه الشباب . واستيقظت
فيها انوثتها الخصاب فوجت . ليست من دهرها على نصفه . وارتفعت عينها
الى يزيد تتأملانه فاذا به على نضرة . شباب ذو مضاء وعين حادة النظر ،
سريعة اللفتة . ألا يكون اهتدى اليها وهو يتحدثها عن كتابته ووحشته ؟ ...
قال يزيد : أتولمين وانا احسد الحسن فيك ؟ ... والله لو كنت موقفاً ان
لي منك نصيباً لوقفت عليك شبابي ومقامي ولعدلت بك الدنيا والآخرة !
فهزها ودفعها الى القول بحجة : أتكفريا ابن معاوية ؟

— لا والله ، ما انا بالكفور ، الا اني ادركت بك وطري . وبلغت

مرجاي . ولكن . . . ولكن لا امل لي بك يا جعدة !
ورقب ما تعلن . فلم تتحرك لها شفة . قال . أستطيع ان اعقد عليك
المنى ؟ . . . الشباب عندي ، والمال عندي ، والجاه عندي . فما نبا عن الحسن
موفور في يزيد . ما قولك اذا ناديت بالعصيان وبالهجيران ؟
فلم تعترض ولم تؤيد بل اقامت في موقف غلب عليه التفكير . قال يزيد
وقد وضع له من صحتها انها راضية عما تسمع : أيقوى الحسن على نضحك بحفقات
الذهب ؟ . . . لا والله ، فهو قاصر عن العطية . واذا استطاع فلن يفعل . اما انا ،
وقد نزلت من نفسي منزلة الاكابر ، فحلل لك مالي وحالي . فماذا تقولين ؟
فقصت بريقها . قال وقد امتدت يده الى جيبه وخرجت بصرة وارمة :
اليك بهذا المال . فهو دون قدرك . على انك اذا اجبتني الى رغبتني فيك
نلت مني اضعافه . فما يزيد بالجعد اليد كما تعلمين !
ونفض اليها ايلقي بين يديها صرة المال . فتمتت شفتها : لا ، لا يا يزيد !
قال : هذا بعض ما ستالين من يزيد . واليك بهذه الدمالج . فهي دون
معصك اشراقاً . فكل ما سوف يهدي اليك يزيد لا ينكافأ ومكانتك السامقة !
وانتزع من عبه لفة تنطوي على دمالج من الذهب تولى بنفسه تزيين
معصبي جعدة بها . فاشتعلت خجلاً كما طفحت نفسها مسرة . وشعرت بيده
تلامس يدها فالتببت جوى ووجدت والقت على يزيد نظرة تسيل حباً . قال :
بيت مال الخلافة باجمعه لك ، وفوق بيت المال ابن الخليفة يزيد !
فارتعشت هياماً . لقد ملك قلبها باريجيته وكياسته وشبابه . قال وهو
ماض الى هدفه : عليك الآن بالخللاص من الحسن ، بل اريد زوالاً لا يشعر
به احد ان لي في سلخك من زوجك يداً !

فارتجف قلبها وهو يتحدثها عن هذا الزوال وانقلبت ملاحها . عهد ابيه
مليء بالاغتيال الخفي . فكلم من نعم عليه معاوية وما استطاع فيه كفاحاً
سقاء السم . أيجاول يزيد ان يحثها على قتل زوجها الحسن بسم معاوية؟ ...
قالت بارتياح : ننجو منه؟ ... وكيف؟

-- باختطاف انفاسه !

فاعولت : لا !

وكادت ترميه بالمال والدمالج . فابتسم وقال : أنتحشين؟ ... ولكنك لا
تدريين اي علاج يُجاول فيه . سندس له السم فيموت دون ان يشعر الناس
بانه ضحية !

فعادت الى اعوالها بنبرة امضى : لا ، لا !

فقال يزيد بلهجة الأمر المطاع : لا تعاندي . يزيد يرجع على الحسن في
سلطانه ونضرته . واريدك ان تعلمي ان قصر الحضراء بانتظارك ، وان لك
من خزانة ابي مائة الف درهم !

فملكها الاضطراب ولم تقو على جواب . هزها يزيد حتى باتت في
بحران ارتج به عليها . فهي جائمة في مقعدها لا تطيق كلاماً ولا حراكاً .
ولم تكن تطيعها عيناها في لفنة الى يزيد . فهي في ذهول وغفلة وقد غاصت
في عرقها البارد كأنها تغتسل في حوض . فقال ابن معاوية : على م عولت؟
وعلى ماذا عولت وهي حين ترى يزيد تكره الحسن ، وعندما تلوح لها
الجريمة تكره يزيد؟ ... قال : ألا تكفيك مائة الف درهم تنالينها من هذه
اليد؟ ... هذا طمع فاضح يا ابنة عمي . لا تنسي ان يزيد مضمون لك .
فو في قبضتك قبل تلك البدر المتبادية الى مشواك !

فتمتت : ولكنني لن اقتل الحسن !

فصاح : اقتليه ودمه في عنقي . انت في عنفوان الفتوة وهو على عتبة
الخمسين . وقد يكون اجتازها . وما النفع من ابن خمسين يا جعدة ؟ ...
قولي ، بربك ، ألا تبعينه بي ؟ ... لن تكوني مغبوة الصفقة في يزيد !
وابتسم . والموقف يدعو الى البسة . فهو في تمثيل دور ذي خطر
ووزن اضحى به لا يقوى على الرجعة . فعليه ان يستميل جعدة بكل ما
تطول يده ويتسع له بيانه ، والا اخفق على ناحيتين وكتب له الفضيحة في
المسلمين . فتجفوه جعدة ويعيش الحسن ، وقد تضيع سره فتززع منه ومن
ايه ثقة بني قومه . فلن يجدا من يؤمن بها في وعد ولا يسايرهما في عهد.
ورقب يزيد ان تنفوه ابنة الاشعث الكندي بما ينضو عن خاطرها وتتجلي به
شبهتها . وتكلمت بصوت يتعثر بالهمس كأن به تنقطع انفاسها : واذا دروا
بي فما يكون ؟

فراقه استيضاها . ان فيه مسكة من رضا . قال بارتياح : ومن يدري
بك ؟ ... انت في منعة من الظنة . يجوز الارتياح بكل من تجمعهم الكوفة
وسمعتك في معقل حريز . لا تبالي ولا تخشي . غدك يدعوك الى نعمة ميلاء
الكوفة . قصر الحضراء بجلاله ينتظر اشراقك فيه . فاي دكة هنا ، في
الكوفة ، تغلفين بها ؟

فزادها خطأ في زيعانها . الشباب والمال والمجد في خدمتها . فما عليها
لو حاولت . فقد تفلح وتنجو من محبس نغيب فيه وكيفما تقلبت فلا تقع
على سوى قضبان من حديد . قالت : أينقذني ابوك من الهلكة اذا شعر
الحسن بمكيديتي ؟

فايقن انها بانت له . قال : أتكونين من نخوة معاوية على ربية ؟ ... انت
تسدين سهماً فأحرأ الى كبد عدوه ، فهل ظهر ممن يتبوأ في دمشق سدة الخلافة
انه يتعامى عن النصير ؟ ... لتغرق يملك في الدم ومعاوية كفيل بان يحلوها
لك على بياض وطهر . ليس في من تعرفين كماوية حرصاً على الاعوان
الامناء الصادقين !

فجمدت عليه باصرتها كأنها لا تبرح على شك في ما يعالنها . قالت
وهي تستريده توكيداً : مائة الف درهم ؟ .. وانت ؟ .. ورعاية ابيك ؟
— وقصر الخضراء ، والخلافة ، واموال المسلمين !

واغرقتها في النعمة حتى اعماها . قالت وقد اطرقت على غبطة تموج بها
نفسها : غلبتني على امري يا يزيد . لاحول ولا قوة الا بالله !
قال : هل رضيت وعاهدت على العمل بما تدعو اليه ههنا تنا ؟

فجمجت وهي تبسم : رضيت !
فقال مجاهداً في اقناعها بشغفه بها : فدتك نفسي ، شفتي نهمة يزيد .
بوسعي الان ان ارقد خالي البال . فقد اقلقتني زمناً يا جعدة !

وزاد في محادثتها عن هواه وقال : بقي ان ندلل العقبة ليجمع ربك
الشتيتين . فالكوفة ليست مقر من ترع في هذا البهاء الثوي !
قالت : سأعجل في الضربة . كن قرير العين !

فقال بابتسامة تغلي بالني السمان : يا لساعة تستظلين فيها كنف يزيد ،
وتجمعك به على خلوة متعة حلال . فلم اجد اطيب من الحب بعد شقاء
ووعورة . فالنفس لا ترضى بالموفور النوال !

وزخرف ونمق . هذا ابن ابيه . وتوارى وهو على بسطة من الاعجاب بموهبته في

الاعراء . لقد وفق حيث لم يكن يرجو فلاحاً . فالحسن بن علي اضحى في
ذمة الله . وابتسم يزيد . فاحس بانفاس اربنب بنت اسحاق تهيم في سمعه
وتجبهه الدف . وانطلق في ازقة الكوفة على نشوة سمحة . ابوه سيجينه
بن اختمرت بها مهجته ونضج فؤاده . فكان يخاطب جعدة وهو يتمثل اربنب .
ابنة الاشعث الكندي ليست مبتغاه ، ولكنها طريقه الى ابنة اسحاق . فهي
المعبر الى خالته ومننته

واعترم براح الكوفة . لتنظم جعدة مكيدتها وهو عنها بعيد الدار .
فالبقاء في قاعدة الهاشميين يقضح زوجة الحسن في خدعتها . ولقيا على خلوة
وافضى اليها بما ينتوي . لتضرب ضربتها وهو لها ، وقصر الخضراء مفتوح
الباب للترحيب بها . فما ان يغمض الحسن عينيه ويثوي في رمسه حتى يطل
يزيد بجأه وشبابه فيطوي على جيدها ساعديه

وكانت مواعيد وعود . ودس ابن معاوية في يد جعدة السم وانصرف
عن الكوفة وقد ذاع في الناس ان اباه يعدّه لولاية الرافيدين . فلم يلتق في
قادته من يثق به كأبنه ، ذوب كبده . وما اطلع على جلوسه الى جعدة
غير امرأة من الامويين معقود عايبها لسيد من اقطاب الكوفة . فكانت
همزة الوصل بين يزيد وجعدة . مهدت الطريق وذالت العقبة . وجعل حتى الحدم
انفسهم ما ينسج في خفية ويحاك في ليل . فتراءى لهم في جعدة امرأة من
نساء الكوفة في زيارة الاموية نسبية يزيد

والاموية نفسها لم تكن تحضر مجالس يزيد وجعدة . فيها ابدأ على خلوة .
وجل ما رسب في معتقدها ان ابن معاوية هو زوج الحسن بن علي ويروم
اطلاعها على مكنون حسه . وساعدت يزيد على اقتناع زوج الحسن بايثار

ابن معاوية على ابن علي . ولم تكن جعدة بحاجة الى من يحدثها عن الشباب
والكهولة وهي منها على خبره وعبرة ، وهي تستشق في يزيد الفتوة قبل ان
تراه ، وتشعر بصبوة اليه في طائر صيته ، ومستباح هواه
وانكفاً يزيد الى دمشق على بشر وغضارة يرقب من معاوية ان يبر بالوعد.
حقق له مشتاه في جعدة فليحقق له مشتاه في اربنب . صفقة بصفقة وليس
معاوية بالمغبون

وخليفة دمشق اقام بانتظار يزيد . وايقن اليقين كله ان الفتى سيعود من
الرحلة على رجحان في النجاح . فلن تلمّ به الحبية . وماذا يقعد به عن الفوز
بأمرأة وعنده المقام والشباب والمال . وهي جل ما تنهد اليه انثى
وكان لقاء الشوق لقاء يزيد ومعاوية . شوق الابن الى الابن وشوق
الفضول القلق الى النبا الجلي الصفحة . ماذا ؟ . . . واتقد الاستفهام في الاعين الاربع
وقد عكسته عليها الحنايا . ماذا كان من معاوية في اربنب . وماذا كان من يزيد
في جعدة ؟

ووقف كل من صاحبه يرقب منه الافصاح . وتكلم يزيد فقال بغبطة
وارفة : اني انعاه اليك . قليلاً وبلغظ رثية . فقد جكت له كفاً يدرج
فيه على سكينه . وجعدة على قدر المهمة . فعاهدتني على الخلاص منه !
فخفق فؤاد معاوية خفقة المسرة التياهة . ادرك مبتغاه . وشاقه ان
يزداد بياناً واحساساً بالنبا المترنحة به اعطافه ، قال : وفي مقابل ماذا اوثقتها
بالعهد الميمون البنود ؟

— في مقابل مائة الف درهم من اموال المسلمين !
وابتسم يزيد ابتسامه انطبعت اختها على شفتي معاوية . فالرجلان على

وحدة في الغريزة والميل . ولكن بسيف غير سيفها ، وباموال موفوفة على المؤمنين . قال معاوية وقد سره هذا الدهاء في ابنه ومناطق مرجاته : ثم في مقابل ماذا يا يزيد ؟

وعلت ضحككهما . هذا مجال الخداع . وانبطت الضحكتان على خبث مديد . فقال الابن : في مقابل ما يضمن فوز امير المؤمنين !
- في مقابل شبابك ؟ ... انها لمقاه زوج الحسن . لن تطول منك قلامة . أعقد لك علي خائنة ؟ ... ولكنك قد تشابه عندها ابن علي . وابوك ضنين بك . فليس يرضى بان يطرحك بين يدي من تبعك كالسلعة . عدا ان ارينب بالانتظار !

والى هذه المحجة بطمع في الوصول يزيد . واشرق وجهه وابوه يتلفظ باسم الفتاة العيداء . ونضر شبابه وترجع عوده ، ووثب قلبه الى شفتيه فقال : وماذا كان من ابي في فتاه ؟

فاجاب معاوية : يجري الامر كما يشتهي يزيد . ارينب في قبضتنا . ما ان تفتك جعدة بالحسن بن علي حتى تحنفل دمشق بزفاف ابنة اسحاق اليك . خذها من ابيك . فان راحتك منها لعلى جمام . أنبغي امراً في هذه الدولة ونعود منه على خزية ؟ ... ثق بحكمة معاوية وطول باعه في تدبير الامور يا هجة قلب ابيك !

ولم يكن يبالي الجمع بين يزيد وارينب مثله النجاسة من شبح الحسن البغيض . فهو يتطير فرقاً من كل خصم مزاحم ، وخصوصاً ان يكن هذا الخصم من آل البيت . فالحسن بن علي يقلقه في تحدره من ابنة الرسول . فاطمة امه ، ومحمد بن عبدالله جده ، وعلي ابوه . وهذا النسب الراسخ في

الكرم والنبيل يكتب الغلبة للرائع في بهرته ، الخضب بطيبه . ومعاوية
وقد ذاق ابوه مرارة الهزيمة في مجاهدة آل البيت يمضه ان يلقي الهزيمة وآل
البيت في الذروة الشاققة من المجد وبعد الصوت . فما اكتفى بارتب بيابعه
الحسن ، بل شدد في ان يتقي الخطر المهدد فينتزع حياة الحسن من جذعها
ولا يبقى من ينذر بالداهية ويثير الملح

وجعدة وحدها تكتب له الفوز . فينظفء الحسن كشمعة كسفتها نسمة
رعناء دون ان يقف على سر انطفائه احد . وجعدة آلة لا تتحرك ان لم يكن
يزيد زيتها ووقودها . ولقد ظهرت دمشق باغراء يزيد لا يبريق اموال
معاوية . فالمال كان مهجازاً لا حافزاً ، فالحافز هيام جعدة بمكانة ابن الخليفة في
شبابه وقدره

وبلغ معاوية وطره . وليس يحفل بعد ادراكه المبلغى ببذل الهمة في
زفاف اربناب الى يزيد . فان يزيد يلهو . وارينب لن تطير . فهي في متناول
قبضة الخليفة . ليس لمعاوية الا ان يشير كي تبيت الفتاة في عصمة يزيد . بل
هو شاء ان يسكت عن طلبة ابنه ريثا تدس جعدة للحسن السم النقيع .
والا ان هي اقامت من الحدة على وضع فسدت الحيلة ، وكتبت الحياة
للحسن بن علي ، وانتقلت ائيه بعد معاوية خلافة المسلمين . فيضيع على الامويين
كل مجهود في زعامة الدولة الناشئة ، الحضة . وليس معاوية بالراغب في هذا
المصير الكئيب

وانتظر . ودعا يزيد الى التريث وكتبان السر . قال : اربناب منك
قلادة في النحر . فلا تلتق . ساجرّها اليك بكاعة ، بنظرة . فلن تقلت منك .
الا ان الحكمة تفرض علينا امتلاك العاطفة وكظم الشعور . فلنكن حكما .

اذا نجي الى جعدة انك بما ذق في هواها اعرضت عنك وابتقت على الحسن
 انتقاماً منا . وبقاء الحسن حياً يذهب بسلطاننا ويمرّمك الخلافة من بعدي .
 فالخذر ثم الخذر يا يزيد . ارينب ليست نوراً يلعب ثم يخبئ ، ولا غمامة تتبدد وتذوب !
 ودعا ابنه الى الصبر نزولاً على دين المصانعة والمداجاة . فالحسن غير
 طويل العمر . وصبر يزيد على سورة هواه وغليان قلبه . فالحنكة في سياسة
 الناس تقضي بادراع الجلد المنسج . واحرجه الحب الا انه ما انتقض على وصية
 ابيه مع كل ما عانى من ألم وما ساوره من قلق تهي بهما سعة الحلم . فهو
 عرضة ابدأ لهياج الخاطر وارتباك الضمير . يثور فيه حسه المكثود ويضيق
 به قصر الحضراء . على فسحته ، بل تضيق به دولة ابيه على متناهي بسطتها .
 ويكره دمشق وينفر منها مع قربه ممن تبرع في سويدائه ، ولكن اي قرب قصي
 هو هذا الاحتجاب الدميم؟ ... لئنه كان بعداً سحيقاً اذاً للطف نأيه امتناعه .
 اما ان يكون يزيد على خطوة ممن يهوى ولا سبيل له اليها فذلك هو المقعد المقيم
 وطار به هواه البرم بدنياه الى تدمر يرتقي في حضن اخواله . فما طاب له
 فيها المقام . وعدل عنها الى حمص يتيه في سهولها في اصطباد الطباء . فما خفف
 القنص من حنق اعصابه . فوثب الى دير موران في الغوطة ينغمس في الحمر
 وفي النساء . فما نجما من طيف ارينب وقد ساد نهيبته ولبه . وتلظى فيه اكمداده
 فبدت له الجهمة حتى في اصوات المغنين المتصاعدة حوله كالتساويح ، وفي
 وجوه الحسان على روائها ووسامتها . ودرى رفاقه وصحبه انه في غمة ساهمة .
 وزادتهم حرقة زفراته يقيناً بانه ملسوع . فا ستوضحوه فرفقت في شفّيته
 بسمه باكية وصاح بالمغنين والكأس تشع في يده : الا اطربوا ، اطربوا ،
 ما عاش فيها الا الحلي !

وانحدرت في جوفه كؤوس على كؤوس وتفاقم فيه عبوسه . واهاب
بالمطربين الى اناشيد الهوى الجامح اليؤوس فاكثروا حتى كادت القلوب
تغلف بالسواد لفرط لهفتها . وما غاب عن احد ان يزيد عاشق غير هنيء .
ولكن من هوى يزيد فامتنع عليه ورماه بالكربة ؟ ... ان النساء ليوردن
زرافات على ابن معاوية ملتزمات منه نظرة ، فمن استعصت منهن عليه ؟
وسئل يزيد فما اجاب . ونام السمار في سكرتهم وبقي ابن امير المؤمنين على
بقظة وسهاد لا يأذن هواه في غمضة . ووقف على احدى الشرفات يناجي البدر المفتوح
الاجفان والنجوم الساهرة ويستجلي انجاسها في ارقها : هل انت عاشقة مثلي ؟
وطال مقامه في العوطة . فهي احب اليه من دمشق الطافحة بطيب
ارنيب وخيالها . واعتكف على لهوه كي ينسى فلم يكن ينسى . وساءل
نفسه مراراً : متى تفتك جعدة بالحسن فادفع عني هذا العناء المجتاح ؟
وصبر مكرهاً . فليس من الصبر بد . ودلف الى دمشق يتقلى بنارها
ويتجسس اخبار الكوفة . ماذا وقع فيها من جليل ؟ ... وتواردت عليه
الحواطر الدهم تبرد في متناهي الالم ومستعصي القلق . قد تكون جعدة عدلت عن
التضحية بالحسن لاجله ، وقد تكون اقتضحت في سعيها فدرى بها ابن علي
واقصص منها اقتصاصاً زاجراً اوضحت به عبرة
وخالجه العود الى الكوفة يستبحث ويستقصي . فقد سدت عليه في
هواه الابواب . واذا انبأ الكوفة تحمل الحبر المرصود . قضى الحسن
ابن علي مسموماً فماج الاسلام ومادت دولته . ابن بنت الرسول يلقي حفته .
ورسغ في الاذهان ان معاوية قاتله فتعالت الاصوات تلعن ابن هند في خداعه
وخنله . واستدارت الكوفة حول مشوى ابن علي فسمعته يقول وهو يجود

بالحشاشة : والله ما عرفت جرعة من السم رضيتني واسقمتني كهذه الجرعة
مع كل جهد بذله اعدائي في تسميمي . فقد لفظت بها كبدي حتى لاح لي
منها اني اقلبها بعود في يميني !

وغفر . فما اثم احدآ وقد حال نبله التليد دون انتقامه من ضعاف اغرام به
التواء في الطبع ونذالة في الفطرة . وتلقى قصر الحضراء في دمشق نبأ الفاجعة
بالتكبير . هذه بشرى ملاء الصدور ابتهاجاً وتوطد الامل الرجراج . فالحصم
العنيد ذوى واضحى معاوية سيد المسلمين الاوحد . وقايل يزيد طرباً ودخل على ابيه
بلا استئذان يقول وكل ما فيه استبشار وچدل : ادام الله بقاء امير المؤمنين .
طالت دوخته وذهبت جذوعها في الارض عمقاً وامتداداً . وصانتها القدرة من كل
ريح عاتية تعصف بها وتغمر ساقها . ولم يبق عرضة لمهب الزمهر يرسو فتاك
يزيد . فاستر عريه لينعم بالدفء قلبه . ان هو الا صيغتك من قبل ومن بعد !
فضحك معاوية على مسرة متروعة وقال : ما نسيتك يا يزيد . اربنب على
أهبة . غداً سأخاطب لك فيها ابها وتنام هانى . الضير !

ولكن اربنب ليست في دمشق . فقد برحتها الى العراق يصحبها ابوها .
وما حملها على الرحلة ؟ ... واستوضح معاوية فسقط اليه ما ملأه كربة
وهماً . اربنب زفت الى ابن عم لها هو عبدالله بن سلام . وناح قصر الحضراء
بعد البسمة . وتأنجت في يزيد غضبة الاخفاق فانزوى في حجرته نائماً على
ايه . امله ابوه لارواء مطامعه واضاع عليه بهجة زمنه وسلوى شبابه .
ومعاوية خجل من ابنه وقد فجع به هواه ، فبات لا يدري كيف يعيد اليه
اشراقه وطربه وهو يرى فيه وسادة الامل ، ودعامة الغد . فاذا اكتاب
يزيد فقد اكتابت الدنيا وانتجت الافلاك !

جمعة في الكوفة دامعة العين . تبكي الحسن المسجى لعامها وترثيه .
 فهو في مقولها بسمة الجنة ، الا انه في حناياها عقبة زالت من الطريق
 وفيها الدمعة ترتعش في عينها كان خاطرها يحوم على يزيد . هي باكية
 مستبشرة . قضى الحسن ليفسح لها في نعيم خميل . ستقيم في قصر الحضراء ،
 على طلاقة وغضارة ، حولها يزيد وابو يزيد . والمسامون طوع عيبتها ، يؤدون
 لها الطاعة وينحنون في خدمتها . والمال ملء جيوبها . فانها منه لعلى تلال
 عارمة . والدر والياقوت في عصابتها وقلادتها ومعصمها واناملها ومهوى ساقها .
 والقوة عنوان لها . نجت من مهبط العصاة وتسمنت ذروة الرفاهة الوسى .
 واي فضاة من دعة تمسك بها في عقلة الحسن ؟ ... فانها في داره لعلى نواح
 وانين . تشهى . وليست تبلغ شهوة ولا علالة من رجاء
 ودفت الحسن غير آسفة على نواه . خاطت له اكفانه . وادرجته
 فيها وطوته في الرسم لا تكبرث نبل ائيل ، ولا لرفعة منتمى . فالنقرة
 من الحياة الجافية مالت بها الى ابتغاء العيش الرغيد
 ووقبت ان ترد عليها من دمشق رسائل التودد والزلفى . انها لحقيقة
 بالشكر والثناء وقد ازاحت العقبة . بيد ان دمشق ووجت . واطرقت حبال
 جمعة ، فما ذكرتها حتى بمساءة تدل على ان هذه المجاهدة المطواع خطرت في
 بال . وقلقت جمعة . وساورتها الظنون . هل ضحك منها معاوية ويزيد ؟

وارفدت الى دمشق صديقتها الاموية تدق باب معاوية وتستوضح السلوة . ماذا جرى ؟ ... ومعاوية رحب بالاموية ، ابنة عمه ، على مدة ذراعيه : مرحباً بالاخلاص المصفي والوفاء الروي !

وجامل ولاطف . قالت : جئت احدث امير المؤمنين ، دام بقاؤه سنداً للدين والدنيا ، عن امرأة كان لها منه وعد وزين !
فتجاهل معاوية وقال : واية امرأة تعنين يا ابنة عمي ؟ ... والله لم ينضح مقولي بوعدت فيه عن الانجاز !

وابتسم ابتسامة حلوة ، من تلك الابتسامات الطافحة بالاغراء ، القاطعة على الراغبين في نثف السم مجال الايلام والنهش . قالت الاموية : هل نسي امير المؤمنين جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي ؟
- جعدة زوج الحسن ؟ ... أتلومني وقد سهأ عني ان اعزها بابن فاطمة ؟ ... والله انها على جمام من الحق في لومي . لست ادري كيف ندت عني ...

فتجرات على مقاطعته بقوها : لست تبغي التعزية يا امير المؤمنين ! وهو موثق كل اليقين انها لا تطمع في التعزية بل في ما هو ارجح قدراً . فانها لفي حنين الى قصر الحضراء تنصدره على فخامة عريضة ، والى يزيد ترتع في قلبه وفي حبه . الا انه ود ان يقيم بما يعلم على جهل اغلف . قال : وما تبغي اذاً ؟

- تبغي انجاز وعد يزيد !

- وعد يزيد يا ابنة عمي ، وما هو ؟ ... لست منه على معرفة . اي وعد عالنها يزيد ؟

- لم توضح جليته . فكل ما ادلت به انت هناك وعداً تصر فيه على
الانجاز !

- وهل خاطبت في الامر يزيد؟ ... احسبه كأبيه ، لا يقف عن ابرام
ما عاهد عليه !

قالت : جئت اليك كي تدعوه الى الوفاء . جعدة لم تطلب مني تذكير
يزيد بما وعد ، بل دفعتني اليك لتذكير يزيد !

فنفض يديه مما يقع في اذنه وقال : انك لتحدثيني بالالغاز يا ابنة عمي .
ابن انا بما في صدر ابني ؟ ... على اني سأدعو يزيد لمساقطته الكلام على
مسمعك . فقد يكون افضى بما غاب عن ابيه !

ونادى حاجبه يحثه على دعوة يزيد . قال : ليسرع . ان بي اليه حاجة
ملحة . فلا تخطئه . جئني به حيث يكون !

وحدث الاموية عن موقف الكوفة بعد مقتل الحسن . قالت : الناس
مفطورون على النسيان يا امير المؤمنين . والدنيا لمن اشرق نجمه لا لمن خبا
نوره . ابقاك الله في عز مصون !

فسره ما يسمع منها واستزادها يقول : وهل خرس الناقون ؟
- خرسوا يا امير المؤمنين . وما يسعهم ان يفعلوا وقد انهار العلم وانطوى
اللواء ؟ ... ثم هم ذوو السنة نضاضة اكثر منهم ذوي سيوف قاطعة .
وهل يرجى من خذلوا علياً ان ينصروا ابن علي ؟

فقال مازحاً : انت تتكلمين كاموية يا ابنة عمي ، واريدك ان تخاطبيني
كأنك كوفية خالصة النسب !

فقالت بحماسة تنفي بها عنها المبالاة : لا والله يا امير المؤمنين ، ما عرضت لي

المصانعة في بال . القوم هدأت فيهم سورة الكيد . فكل ما يبغون ان
يعيشوا آمنين !

واستاذن يزيد . وانحنى في حضرة ابيه يحيى بنخشوع المطيع . فقال معاوية
وهو يشير الى الاموية الجالسة في اسفل السدة المتربع فيها كأرباب العروش
المزهوين : أتعرف هذه الطلعة الميمونة يا يزيد ؟

فالتفت يزيد . وما لاحت له المرأة حتى هفا اليها يقول : وكيف لا
اعرفها يا امير المؤمنين وهي منا وذات يد علينا ، كانت لي في الكوفة
خير عون ونصير !

وتجهم وهو يذكر الكوفة . فان في الكوفة جعدة . وجعدة حالت
دون ظفره بارينب . فبرح دمشق الى زوج الحسن يغيرها بان علي ، مزاحم
ابيه على الخلافة . وفيما ينصب الاحبولة اقلنت منه ارينب . ووقف وقد اوشك
ان يدنو من الاموية ومرآها كان حافزاً موجعاً لتذكيره بخيبته العضوض .
فقال معاوية : ابنة عمنا مقبلة من الكوفة لمحدثي في وعد صارحنا به جعدة
ولم ننجزه ، فاي وعد هو ؟ ... ما سمعتك تحدثني عن وعد ابرمت
يا يزيد !

وانكر ما سمعه اياه يزيد اثر عودته من الكوفة . وما تجراً يزيد على
سوى تأييد ابيه في انكاره مع كل حنقه على ابيه . قال : سها عني ابلاغ امير
المؤمنين ان لجعدة من بيت مال المسلمين مائة الف درهم ، نفحتها منها بخمسة
وعشرين الفاً ووعدتها بان اوافيها بما بقي فور بلوغي دمشق ، ولست ادري
ما عاقني عن الوفاء !

فقال معاوية على نسبته الاموية يقول بجبث تقمص البراءة : لم يكن

لجدة ان تكلفك هذه المشقة يا ابنة عمي ، فما دام يزيد وعدها بالمال ، واقام
بما وعد على نسيان ، فلم يكن لها الا ان تكتب اليه في ما قعد عنه . اخطأت
في ايفادك الي المال تبغيه ، واصابت وقد أنسنا بك بعد طول قطيعة .
فمرحّباً بالشمل يجبو الى التثام وينتظم له عقد كميل !

قالت : ما جئت دمشق وحدي يا امير المؤمنين . فان زوجي لرفيقي
اليها وله فيها شؤون . وابصرتني جعدة في القافلة فدلقت الي تبغي ان اخذتك
عنها واحداث يزيد !

فصاح بعقب المشوق : زوجك في دمشق ولا يقبل الينا ؟ ... انها لاساءة
لا مغفرة فيها . فاين هو لا يطل على الحضراء فنعوضه من بعض ما له عند
يزيد من فضل ؟

فقال يزيد : كنت ألقى فيه خير رفيق واكرم خدين . ما نذبت له لامر
الا لقيته فيه على كفاية . وما حدثه في سري الا كان ذلك الحفيظ الكتوم .
وان يده لتسيل ندى ، ووجهه يفيض بشراً ، فاين هو لا يبدو في رحبة
امير المؤمنين ؟

قالت : من ينزل دمشق ولا يتبرك فيها براحة ابي عبد الرحمن فقد
غابت عنه دمشق ، الا اني انسلت الى الحضراء دون ان يشعر بي احد
حرصاً على سر جعدة وقد ألت علي في ان اتحرز في البوح بما تروم استنجاهه .
فالعذر ناطق جبير !

فقال معاوية باسماً : انك لتزيديني اقتناعاً بدكاء الامويين يا ابنة عمي .
والله ما عرفت في سوانا هذا الدهاء البنيع !
وصفق بيديه . فاقبل حاجبه . قال : الي بأمين بيت المال يا سعد . ان

بنا اليه شوقاً !

وما هي الاثوان حتى كان امين بيت المال يقف كالوتد المضروب في الارض في حضرة الخليفة . فقال معاوية : احمل اليّ على عجل خمسة وسبعين الف درهم !

فدار امين بيت المال على نفسه كاللوب وتوارى بوثة وعاد بوثة يحمل المال بين يديه ويلقيه امام معاوية ويعود ادراجه . فقال الخليفة الاموي : لسنا نهم حقاً يا ابنة عمي . هذا المال سينتهي الى جعدة في اقرب ما يسعف فيه الزمن . سيحمله اليها رسول امين !

وجعدة خشيت ان تحدث الاموية بما وعداها به يزيد وقد هالتها الفضيحة الجائحة . فأكتفت بان تشير الى وعد مبهم غير جلي الحروف . وهو وعد ليس يجبهه يزيد . على ان جعدة شددت على الاموية في ان تخاطب به معاوية كي يعلم الخليفة ان جعدة اودت بزوجها الحسن بن علي خدمة لمعاوية نفسه . فانقذته من الخصم العنيد وذلك امامه الخائل المستحکم . ولا بد ان يذكر لها معاوية هذا الصنيع ، فلا يحول دون زفافها الى يزيد ان يكن من مانع

فاصل

وجهت ان وعد يزيد خادع . فقد لما بها ابن معاوية . قادها الى مأربه وسلاها حتى فيما يجلبها براوية شغفه بها . فأمنت وما درت انها ضحية . وانتهى اليها المال فارتحف قلبها . اين يزيد ؟ ... واستوضحت الرسول فلم يكن اعلانه ايضاحاً شافياً . وتبينت لها جوانب من الخدعة ، الا ان الرجاء ما برح سادلاً ستره . وحشت الخطو الى دمشق . ولكن ما تقول فيها الكوفة وهي تراها في وثوبها الى قاعدة معاوية ؟ ... ألا تصدق فيها التهمة الطائرة وقد شاع عنها

لها دست بيدها السم لابن الامام المظلوم ؟

وشاءت الوقوف عن الرحلة . ما عليها اذا صبرت ريثما يجف تراب
الحسن ؟ ... ولكنها لم تقو على الصبر والقلق ينفخ فيها ، والخوف من
الحبيرة انبت لها جناحين تطير بها الى قصر الحضراء . وشقت الغلوات الى
دمشق وهي في دوار من حمى . فلم تكن تبصر ما حولها ومن حولها وقد
شخصت عينها الى مشوى الامويين . وكادت لا تذوق طعاماً قانعة من القوت
بما يسعها في النهوض على رجلها . وكلما طوت ليلة سألت السائق والحادي
كم من الفراسخ والاميال تبعتها عن دمشق ، وفي اي يوم تبلغ قاعدة الخلافة ،
وفي اي ساعة من الساعات تصل ، أفي الليل أم في النهار ؟

ويؤلمها من القافلة ان تستريح ، ومن الليل ان يرخي سدوله . ولم يكن
الغمض يطرق اهدابها الاماماً . وتنكرت فما افضت باسمها . فهي احدى
نساء الكوفة المنطلقات الى اهلها في مدينة الامويين المالك فيها معاوية على
تبه وعز

وها هي حاضنة ردى تلوح للعين مآذن تناطح الجو ، وقباباً مستديرة
كصلعة الفلك . واتسعت بسطة البساتين تنهاى على اخضرار ونضارة .
شاب الزمان وما وخطها مشيب . فهي ابنة كل عصر ووليدة كل جيل
وانساب القافلة في الرياض الغناء والماء امامها ووراءها وعن جانبيها .
وخرير النهر يعلو في الوادي كالاغنية البجاء ، واشجار الحور تتشامخ على
غرور وخفة . ضعيف حسب القوة في ارتفاع القامة وتناسى وهن ساقيه .
ورطبت نداوة الحمايل جبين جعدة ، فاحست الارملة المعشاق باتعاش قواها
ويبقظة ذهنها وان تكن لا تبوح على رجرجة . اضحت على خطوات من

هدفها ، فماذا سوف يكون من يزيد فيها ؟ ... أيدنها منه وبتزوجها ام يخلف
الوعد ويلطمها بالرناء ؟

ورجعت فيها الخشية على الظمأنينة . يزيد لا يثبت على حال وهو الهائم
بالجمال يتبعه حيث يلوح . ربما سلاها بعد عودته من الكوفة وقد خطرت امامه
من تفوقها حسناً . غير انها لن تقف موقف الاستخذاء . ستكلم عالية
الصوت ، صارخة النبرة . يزيد دعاها الى قتل الحسن في مقابل وعد اغراها
به وهي تطمع في الانجاز . قتلت زوجها في سبيل زوج آخر وانه ليمضها
ان تبيت في حرمان . فتفقد ما تملك ولا تطول ما تعلق به النفس

وذكرت دهاء معاوية فاشتد بها الخوف . ربما ذهبت ضحية الخداع .
وتقاذفتها الامنية والحبية فما درت ابن تستقر . وعادت تندى بعرقها ويستعر
صدرها وجبينها . فتناست انها في خمائل ورياض ، وساءلت نفسها كيف
تخاطب معاوية ويزيد ، باي كلام تشدد في الوفاء ولا دليل لديها على الوعد ؟ ...
انها من هذا الدليل للمساء الراحتين

وندمت على براحها الكوفة . فما يدفعا الى دمشق وليست تشهر سلاحاً
تقاتل به لاحقاق حقها ؟ ... هل تطيعها شفتاها في الاعلان انها قتلت الحسن
لتظفر بيزيد ؟ ... ان القوم ليضحكون منها وهي تدبغ هذا البيان الفاضح ،
وربما اودى بها جماعة علي بن ابي طالب وقد سبجت ابن فاطمة ، بنت الرسول ،
على نعش غير حافلة بقدره وخطره . فقوّضت امنية جسيمة ، هدمت شيعة
تجاهد في سبيل غد ازهر ، لتندوق لعنة من هوى زعيم ... وهيهات !

وادركت انها اقبلت في حاجة تمور بالاخفاق . فالفوز شبه محال والحبية
راجحة الكفة . على انها وقد اقدمت ابنت ان تراجع . فلم يبق بينها وبين

قصر الخضراء ما يزيد على بضع دقائق من المسير . وها هو القصر على مرمى
من عينها يصفق بجناحيه كالديك العارم في مبسم الضحى . وارتجف قلبها
والقصر يختلج في اغوار حدقتها . انه لصرح انيق يتأوج فيه الزخرف كأنه
قوس قزح . وما غاب عنها انه مقر معاوية وقد ساد عاصمة الامويين بشموخ
ابراجة وزاهي ألوانه كأنه معاوية نفسه في المسلمين

ولم يضحك قلبها وهي تدنو من الخضراء . فالاضطراب يجري في عروقها
كما تجري روافد بردى في شرايين دمشق . وألقت القافلة عصاها . فقد بلغت
مرحلتها الاخيرة . هذا قلب الشام النابض وصدر الاسلام الطري العهد .
ووثبت جعدة عن سنام الناقة وانساب الى الخضراء على استخفاء . لن
تبيح لعين تعرفها ان تراها . ودرج حولها سكان دمشق في ذهاب واياب
فلم يلتفتها احد . فهي شاخصة الى الخضراء في طلب يزيد بن معاوية . ان لها
عليه ديناً وهذا موعد التقاضي !

ولكن أتدري اي طريق تشق الى القصر الغضير الطلعة ؟ ... لم يجنلها
حدسها في كون هذا البنيان النخم ، الضخم ، المعقود اللواء على عاصمة بني
أمية ، هو مثوى الخليفة . الا انها ودت ان تعلم كيف تنطلق بها قدماها
الى المعنى المنيف . هي في دمشق غريبة ، عائرة القدم ، لا تهدي وحدها الى
الصعيد القويم ، فعليها ان تستوضح وتستجلي . ووقفت بجانب غلام يبيع
الفاكهة على طبق من النحاس تسأله كيف الوصول الى مقر الخليفة .
ونفحته بدرهم كاديب لها به كل ما يحمل من خوخ ومشمش . قالت : هذا
لك ، لا اريد عنه بدلاً ، على ان تسير بي الى قصر معاوية !
فارشدها اليه وهو يقبل الارض بين يديها . هذا السخاء منها دعاه الى

الاعتقاد انها من اسرة امير المؤمنين ، وانها مقبلة من الحجاز او العراق . بل ان مظهرها الانيق ودلالها في خطوها او همها انها تتصل بامير المؤمنين بعرق راسخ مكين . قال وقد بلغ بها محبتها : هنا يقيم خليفة المسلمين ايتها الحالة !
واشار الى باب القصر . فاذا جعدة حبال صرح شامخ ، مترامي الظل ، تشرق عليه الشمس وينعكس عليه وجهها ، فتزداد به دمشق وضاء . هذه دار جمعت بين اعمدة الروم وقناطر العرب . فالمدخل فيها عالي القبة يطاول السحاب ، عريض الفسحة كأنه يتسع لجيش . وعن جانبيه انتصب اسدان من الرخام فتحا اشداقهما كأنهما في زئير . وسال الماء في ثلاثة احواض من المرمر . وتألقت الفسيفساء بدقائقها في الجدران فبات الناظر اليها مثله امام طنافس مزر كشة زاخرة بالنقش النفيس . وتعددت الابواب والاروقة . فكل باب يمتد منه رواق الى فناء تنصدره بركة يتكشف وسطها عن رمح من البلور . فالماء يفور فيها ويتصاعد كزفرات العشاق المكتوية قلوبهم بالحرق ، فلا يجف لها معين ولا يخمد فوران

وجملت جعدة اي باب تلج . واذا حارس يشهر السيف ويتنهرها بقوله :
ماذا ترومين ؟

فتعلمت في الجواب كأن في لسانها سلالا . قال الحارس بجفوة : عودي ادراجك ما دمت لا تبغين حاجة !
ودنا منها وفي نيته ان يطردها . وخشيت ان يؤذيها فحلت عقدة نطقها وتدفقت بالقول : انا من انساب الخليفة ، جئت امير المؤمنين من الكوفة في امر خطير ، فإين من يستأذن لي عليه ؟
فما اكثر لانتسابها الى امير المؤمنين . هذه حجة كل من يبدو بيباب

معاوية . كلهم يزعم انه يرتبط بالحليفة بصلة القربى . قال : امير المؤمنين
يقيم صلاة العصر ، فتعالي اليه غداً . انه الآن لفي شغل عن الجميع !
فلم تصرف بل ظلت مكانها تقول بشدة : يجب ان اراه . من الضرورة
القصوى ان اراه . فاني احمل اليه النبا العظيم !

وخيل الى الحارس انها قادمة في مهمة لا تحتمل الارجاء ، فنادى رفيقاً له
قائلاً : ابلغ حاجب امير المؤمنين ان بالباب امرأة تلج في المتول في حضرة
الحليفة ، ففي مقولها ما ينتفض بالخطورة !

فتوارى رفيق الحارس ثم عاد وشفتاه تسألان : ومن المرأة ؟

فعرز عليها الافضاء باسمها . وتضايقت من هذا النظام المخرج بباب ابن هند .
لقد اخذ معاوية عن الروم الحسن والقيح . نقل عنهم فحففتهم واحتجابهم
عن الرعية . فهو يسوس بني قومه من اعماق الدهاليز . ولم يكن عن الايضاح
غنية والاظلت جعدة بالباب ليس من يحفل بها ، بل لقيت الطرد والحارس لن
بأذن لها في البقاء . وتمتت وهي تحس بضيق في حناياها ، وتقطع في
انفاسها : ابلغ امير المؤمنين ان جعدة تلمس منه ان يفسح لها اليه !

جعدة ! ... ما هذا الاقتضاب الجعد الايضاح ؟ ... فكأنها تنطق بالدر
فتأبى فيه سماحاً ، كأنها من النباهة وبعد الصوت ما يكفي به التلميح . نفحة
من الطيب تدل على الطيب . على ان هذه الشهرة الذائعة وقعت كالايجابية
على الحارس ورفيقه الساخرين بحمق الاغلف البصيرة . فقال رفيق الحارس
بتهمك المستبين : جعدة ؟ ... واية جعدة يا ابنة عمي ؟ ... هل غار فيك اللقب ؟
فتبرمت بتهاديه في الجرأة عليها وصاحت بجدة جلجلت فيها نغمتها : اراك
على فضول وقلة حياء ايها الغرّ الغمر . اذهب وابلع سيدك ما سمعت !

فارتاع الحارس ورفيقه وتولاهما الكسوف . هذه الناطقة بالنبرة الجازمة ،
الغضبية ، ليست ممن يجوز فيهم الهزء . لا ريب انها من بنات اعمام الخليفة ،
وانكفا الرسول الى سعد ، حاجب امير المؤمنين ، يقول والغصة تهشم بيانه :
صارحتني بانها جعدة ولم ترد . هذا كل ما عندها في اعلان نفسها . ولقد نهرتني
وانا استزيتها افصاحاً !

فجمدت اسارير الحاجب على ذهول وقال وهو لا يكاد يؤمن بما ينقل
اليه الجندي من كلم : عالنتك بانها جعدة ؟
- نعم يا سعد ، ولم ترد !

على ان الجندي ادرك من انقلاب ملامح سعد ، ومن رعدته ، ان
النكرة معرفة تعني عن الايضاح . فالاسم بعيد المدلول ، مستطيل الرنة . وخاف
على نفسه وعلى رفيقه وقد طاب لها السخر المرء . ربما كانت جعدة هذه بمقام
الخليفة واسمها هال حاجب امير المؤمنين ، فكيف به اذا رآها ؟

وجنح الجندي الى الفرار . لعب بدمه . فخشى ان تشكوه جعدة الى
الخليفة . ولن يرحمه معاوية في استرضائها وهي في هذه المكانة . قال سعد :
ايح لها الدخول ريثما اطلع على امرها امير المؤمنين !

وامير المؤمنين لم يكن يقيم صلاة العصر كما زعم الحارس . فهو الى
مائدته يلتهم المأكل اللذ ويستمرىء الافاويه . فان معاوية لبطين اכול .
شره الى الطعام ومتأفف من كل شره . فليس يرضى عن ضيف ينافسه في
المضغ والازدراد . كل ما حوت المائدة من طيبات فهو له . وكان يؤثر
الجلوس الى المائدة وحيداً لينعم بالاكلات الشبهة بلا مزاحم . ومن العجيب
ان يكره هذا السخي اليد ، المجاوز بجوده تخوم الجود ، اكيله المقتدي به

في النهمة والاعتكاف على الطيبات

وما انسل الى اذنيه ان جعدة بالباب تبغي المثل امامه حتى جمدت
اللقمة في يده ، ووقفت طواحنه عن اللوك ، ومبلعه عن الالتهام . والتفت
الى حاجبه والارتباك في نظراته ، والحوف في ملامحه ، واستوضح : جعدة
زوج الحسن بن علي ؟

— هي بعينها يا امير المؤمنين !

فاندثرت فيه شهوة الاكل ، ونهض عن المائدة عجلان وقد سقطت
اللقمة من اصابعه . ومسح عذة الاصابع بمنشفة بجانبه ومسد لحيته وسأريه
ومشى الى ابوانه وهو يقول : لتقبل الشقية ، فما جاء بها الينا تهتم فينسا
طلالة الانس ؟

وفكر في ما يخاطبها به . سيكون منها لينا قاسياً . انه لواقف على
سر مجيئها . فما اكتفت بالمال تتقاضاه وفي نفسها ينهر حب يزيد . وابتسم
معاوية ابتسامة الهزء . هل آمنت جعدة بانها ستزف الى يزيد ؟ ... انها لتجمل
الاحاييل مع اجادتها دس السم . غابنة ومغبونة . وتفاني معاوية ترحيباً بها
وهي تقف في حضرته بعينين منسدتين وخطوة مضطربة . ودنا منها يقول
والبشر ينطق في هيكله المنتفخ : ابنة اخي هنا ؟ ... عندنا ؟ ... ألا مرحباً بالحسن
اليتيم ! ... رافة بقلوب الدمشقيين يا جعدة . اني لخشى عليهم فورة السحر
المندلعة منك !

واستطاع ان يضحك وان يخفي مضمه . فأدار لسانه على هواه دون ان
يتعثرو . وحجب نفسه بقناع المواربة والتضليل لانه نبرة متكلفة . فرحب
بجعدة كأنه يرقب طلعتها بشوق . عاشق ولهان حظي في مستحكم الجفوة

بالحيب النفور . واطمأنت جمدة وهو يبدو لها في هذا المظهر الطليق وليس فيه ما يدل على اعراض وخشونة . قالت والبسمة تتهادى في سيمائها: رغبتني في التبرك براحة امير المؤمنين دفعتمني اليه . فما انا الا نبتة تستظل جوده وتحناج الى غيته . عطشتُ فهفوت الى المورد النمبر انقع منه غلتي!

فتعاطمت بها حفاوته: انت منا في سواد العين يا جمدة . ما نفذ الى رضانا امرؤ بلغ منزلتك فينا . وهل ننسى يدك البيضاء علينا ؟ ... ضربت ضربة حقت منا على سعتها . وانا لنقر لك بالفضل ولسنا بمن يتجاهلون حسن الصنيع ؟ فشاقتها هذه الزخرقة في ابداء عرفان الجميل . معاوية ليس بالناسي . قالت وقد فسح لها في عرض ظلامتها : اني لشاكرة لامير المؤمنين عطفه على امرأة مكسورة الجناح مثلي . فلم اكن بائسة من حذبه عليّ وليس من عون لي سواء ارتجى منه العوث والرحمة . انتم موئل نعمتي وركن غدي!

قال : وبوسعك ان تعتمدي علينا . فان معاوية لذكور !

ورقت منه ان يحدثها عن يزيد ، فابن يزيد ؟ ... ودت ان تراه في قصر الحضراء ، ان يلوح لها خياله فتتعمق بنظرة منه . قالت : ضجبت في سبيلكم باغلى واعز ما عندي . فجردت نفسي من عاصمي ، من ابن بنت النبي ، في مقابل وعد لا ابرح اتعلل بانجازه !

واعربت عن مرماها . فاستفهم معاوية مدهوشاً : وهل نمنا عن الانجاز يا ابنة اخي ؟ ... يزيد نقدك خمسة وعشرين الف درهم وانا طيرت اليك خمسة وسبعين الفاً ، فهل قصرنا عنك ؟

فاجابت بنضاضة من حياء : ولكن المال ليس جميع المنشود يا معاوية ! فليج في تجاهله : وما هو المنشود يا ابنة اخي ؟ هل من حاجة لك تقضيها ؟

فعارت في هذا السكوت عن الوعد بيزيد . قالت : حاجتي لا تزال
توقب ان يوجد عليها امير المؤمنين براجح حلمه . فما نلت منها الا شطراً .
وما كنت ادري ان معاوية يهب جزءاً ويمسك عن جزء . فاني لاعرفه يسخو
بالعطية على فيض واطلاق !

فتظاهر بانه يتعجب مما يسمع من تبكيت . ابن وهى في العطاء ؟ ...
قال : وهل استزدناك لتستزبدنا يا جعدة ؟ ... وعدناك بمائة الف فنقدناك
مائة الف . لست ارى اننا وقفنا عما عاهدنا عليه !

فصعقها . اما اطلعه يزيد على العهد بنصوحه وبنوده ؟ ... اذن خدعها
يزيد . وسددت الى معاوية نظراً حاولت به ان تمزق العشاوة عن عينيه وتشب
الى اعماق قلبه تنضو عنها الغطاء . شامت ان تدرك الحقيقة سافرة ، عريانة ،
لا يلفها جلباب . ولكن معاوية بدا كالصخرة الصماء ، كالليل الاسفع . فما
من نجمة تبض في حدقتيه برعشة من نور . وحنقت جعدة على نفسها وعلى زمنها .
اقدمت على امر جليل شيدت به بنيان دولة ونسفت دولة فكانت المكافأة نفاقة
من ريش . مع انها عللت النفس بالرومي السني . أتكون ضحية مكيدة دبرها
يزيد وابو يزيد ؟ ... ان من يدفعها الى طبخ السم للحسن بن علي ، زوجها ،
ويقنعها بانها الراجحة في اعتمادها الجريمة الفاضحة ، لا يتورع عن الكيد لها
والقضاء عليها . قالت وهي ترتجف : اين يزيد يا معاوية ؟

— وما حاجتك بيزيد وانت في حضرة ابيه يا جعدة ؟

— حاجتي به انه قطع لي عهداً ، ومن حقي ان اطالبه بالوفاء !

— سأدعوه اليك . يزيد لا يججم عن تحقيق عهد ابرم . ولكن حدثيني

عن هذا العهد يا ابنة اخي ، فهل يضيورك ان اكون لك عوناً على يزيد ؟

فلم تكن تدري ما تقول . انها لتخشى دهاء معاوية فوق ما تحشى خيانة يزيد . فالصل انجب الثعبان . قالت وقد اعترمت الافضاء بكل ما تجيش به اضالعها : يزيد حملني على استئصال الحسن بن علي زوجي ففعلت . ووعدي في مقابل هذا الصنيع مائة الف درهم وبالاقتران بي . وقبضت بي على المال ، اما يزيد فلا يبرح دون متناولي !

فتراجع معاوية كالمسوع . فكان في منطلق جعدة حمة عقرب . قال وقد تتعق وازيد : يزيد وعدك بالزواج يا ابنة اخي ؟ ... انه لعبي . على ابي لا اصدق انه امضى هذا العهد . أفلا يحشى الشقي على نفسه منك ؟ فلم تفهم . قالت وهي تترجح في حيرتها ولا تجد سنداً تنكس عليه في نصرتها : وما يخيفه مني يا امير المؤمنين ؟

فاجاب معاوية بصلف ، بشهامة : من لا تعف عن الحسن بن علي ابن بنت الرسول لا تمسك على يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . جازفت لاجلك بمال المسلمين يا جعدة ، فاستبقي لي يزيد وهو بهجة ايامي ! فكانه دمغها . فبحثت عن مقعد تستند اليه لئلا تسقط في الارض . معاوية دفعها الى الجريمة واقام يعيرها اقدامها على ارتكابها الجريمة . اغراها بالحسن وما هو يندبها وقد انقذته منه ؟ ... أتجري في طاعته فيحترقها وقد خدمت مأربه وحققت مشتهاه ؟

لا ، ليست تملك القوة على درء هذا الكيد . فهي دون المكر الطاعني عليها . وخابت في الاهتداء الى متكأ تصون به نفسها من السقوط فمالت على الجدار يرد عنها الكبوة . الا ان عزيمتها خانتها قبل ادراكه فتدحرجت في عرض الايوان ومعاوية ينظر اليها مثله الى ورقة رمت بها عن غضنها نسمة يريح

فلقتها الارض. انه ليزدري هؤلاء المرتزة مع بحته عنهم وسخائه عليهم . فهم
لقضاء الحاجة ، حتى اذا ما نال بهم الطلبة اذار لهم ظهره وهم لمن يؤدي البدل
الاغلى . وما جعدة الا من هذا العجين . غدرت بالحسن لهوى ائيم ولن تبخل
بيزيد على هوى ائيم تضطرم به جوارحها . قاتلة الحسن بن علي لا تحتمن دم يزيد
ابن معاوية . ونادى الخليفة الاموي حاجبه قائلاً : اليّ بنفر من الخدم يا سعد!
فامتثل الحاجب في خلعبة جفن . قال معاوية يومي . الي جعدة المغمى عليها:
احملوها الي جناح النساء ولتنعم فيه بوافي العناية !

واغبط باطلاع جعدة على نيتة . لا امل لها باين الخليفة . فما تقاضت من
مال يعادل بدل الجريمة . واستفاقت جعدة في دار النساء فاخفت وجهها
بيديها وقد ابصرت نفسها في حلقة من الاناث شاخصات اليها . ابن هي ؟ ...
وفطنت فوراً الي حالتها وادركت انها في قصر معاوية ، وانها اصيبت في
ايوان الخليفة بالانغماء ، فعملها رجاله الي نساءه ليتوفرن على درء التنازلة .
واستبشرت النساء خيراً وهن يبصرنها تنفض عنها العشياب وتغم وعيها .
وهنأنها بالنجاة من الصدمة . على انها لم تجب وقد ذكرت كلمات معاوية .
قذف بها ابن ابي سفيان وابنه يزيد نصلة جائحة في كبد الحسن بن علي زوجها
فمات الحسن ولقيت الهزيمة . مع انها قتلته لتظفر بحياة رعدة وعيش بسيم .
كذبت الرؤيا . فالحبية اودت بروعة الحلم

ونهدت على عجل كالأعصار المفاجيء . فصاحت بها النساء : الي ابن ،
الي ابن ؟ ... صبراً ريثما تسعفك العزيمة في الوثبة !

ولكنها لم تسع . هي تطمع في الفرار ، في النجاة من القصر المطبق
جوه عليها وقد اوشكت ان تحتنق فيه . وجنحت الي الخلاص من بيثة تمور

بالمكر وتتناهى في المراوغة . وتاهت في باحات القصر على غير هدى .
ستعود الى الكوفة دون ان تبصر يزيد . فالذئب لا يلد غير ذئب يضاهيه .
بيد ان املها بيزيد لم ينقطع . فما يمنع ان تراه وتحاول تذكيه ؟ ... ربما صيغ
الابن من معدن يختلف عن معدن الاب . ولكن أتلقاه في القصر ؟ ... لا ،
هذا قصر يزخر بالمداهنة والحُبث ، فلن تحدث فيه يزيد . وابن تحادته ؟ ...
لا تدري . وانسلت من باب القصر وهي تتنفس طويلاً على ما بها من موجدة
وخذلان . وانطلقت الى حيث يتقاذفها القدر غير حافلة بالماهوي . فليدفعها
حظها الى المهلكة وهي راضية بالمكتوب عليها . واحترقت ندماً على قتل الحسن
ابن علي . بماذا اساء اليها ابن بنت الرسول ، ريحانة الجنة ؟ ... فيا لفضيحتها
غداً ، يوم تمثل امام ربها ليحاسبها عما انعمت فيه من موبات !

هذه الكأس المسرفة في الطفاح والنضوب في دير موران ، في الغوطة ، كانت تهمس بسر شاربها وهي تندى بزفراته وترتوي من شفتيه . ترتوي وترتوي ، فيا للأخذة المعطاء !

وشاربها يزيد بن معاوية . فما ان يذبحها فتيت هزيلة ، عجرا ، تشكو الظأ ، حتى يجيبها فتوهج كالدينار وتغري كالدينار . قبيحة في عريها ، مليحة في تبرجها . على ان يزيد لم يكن يلتفت الى الحسن والقيح فيها ، فلم يجرعها الا ليني ، ليدفع بها عنه شبح تلك المستقرة في العراق ويجانب من تقيم في العراق ؟ ... يجانب عبدالله بن سلام ، احد عمال الدولة الاموية في ولاية الرافدين . ظفر بها من هو دون يزيد في الحسب والسلطان . فكيف نام معاوية عن رجاوة ابنه ، فاباح ارنب لعامل من عماله وحجبها عن يزيد ، يزيد وهج البغية ووثبة الطماح ؟

وعادل يزيد بينه وبين عبدالله وابتسم ابتسامة اصطكت لها اسنانه مرارة ومضاً . هو ابن الخليفة ، وسوف يكون خليفة ، وذاك من رجال المناصب في الدولة ، من هؤلاء الساجدين في اليوم الف سجدة امام حاكمه . غير ان هذا المنحني في كل آن بين يدي ابن ابي سفيان ، الممثل لسيد كالعبد الرق ، بلغ من بهجة زمنه ما لم يبلغ ابن سيده . هما من نبعة واحدة ، من قریش ، اجل ، على ان هذه النبعة الواحدة لا تقيم المساواة بين جميع ما يتدقق منها وثمة ما

ينتهي الى ساق زهرة وما يغور في الرمل بلا جداء
والتهب يزيد . وتمايل رأسه في قنوط . وامسك بيمين الاخطل الجالس
بجانبه الى الخوان واطلق الكلام مهشماً ، فائراً : ألا حدثني يا شاعر الدنيا
عن غرائب الدرر . عرفتك تنزل المعاني وتنظمها اسماطاً من مرجات ،
فهل بلغت من القدرة ما تتوفر به على حل الالغاز والانسلال الى بواطن
الزمن الحقود ؟

وصاح في لهجة يائسة وقد ماع في جلسته : والله ما ادري كيف حيك
هذا الكون . فما من كأس صافية الا وفي قرارها نقتة من حثالة . وما من
سماء نقية الا وفي مدرج نيراتها كدرة . ألا حدثني عن سر هذا التشابك ايها
الاخطل ، لا وردة بلا شوك ، لا فرحة بلا كدرة ، لا راحة حتى في برج
من العاج !

على ان الاخطل رحمه الله . فالخمره ذهبت برشده ولم يسكن يميل عنها .
فهو لها لا ليزيد واشجان يزيد . وارتخت اساريره في ابتسامه بلهاء . وارتجفت
يده وهو يحمل الكأس الى مرشقيه ليعيدها الى الخوان وقد استصفاها .
وبعدت به السن عن يزيد وان جمع بينها خوان واحد . فهو يجبو الى الشبخوخة
وابن معاوية في صباحة الاقمار . ان كأساً لتتعتعه ويزيد لا تلويه خابية طفحى .
صلابة الالواح وهت في الاخطل ولا تبرح على مناعة في يزيد . قال شاعر
بني امية وابتسامته تتسع في بلاهتها مع اجتهاده في ان يفيض بالحكمة والمجال
للافاضة بها فسيح : الاستخفاف بالزمن خير دواء في قهر الزمن يا يزيد . بل
أتدري ما حملني على ادمان الخمره ؟... والله ما عشقتها عن هيام بطعمها ، بل
شغفاً باثرها الجميل . فهي تقصيك عن بؤرة الموم . فلا تمس وانث تشربها

بانك تشقى وتتعذب ، ولا بان دهرك وترك حقلك ، فانك فيها لفي نجوة
من الكربة وفي عز مستطيل . تحسب نفسك معاوية في عرشه وانت على
خشبة مخزرة . ألا فاستعن بها على الكيد للدهر الظلوم . انت في لألاء المجد
وتنق ، فكيف بمن هم دونك ؟ ... ما عرفت الزمن يصفو مخلوق يا ابن امي !
ورفع كأسه يقرع بها كأس يزيد . وكان الليل المتلفع بعباءته السوداء
يشير اردانه على اهبة الرحيل . فالقوطة نامت بعصافيرها وغياضها حتى
ويجداولها . فما ظل على اتباهة فيها سوى فوح العبير . ولكن الباب يطرق
في دير موران . فمن المقبل في الظلمة كالعس ؟ ... واصفى يزيد بن معاوية .
فمن عادة ابيه ان يقيم عليه العيون ويتجسس اخباره ، فهل بلغ به الاحراج
مبلغ التضييق على ابنه حتى في دير موران ؟

وغضب يزيد . ونهض الى الباب يفتحه بنفسه وفي عينه وعيد . سيستم
رجال ابيه ويبيدهم الى دمشق نادمين . ولكن من يبصر بالباب ؟ ... هذه
امرأة لا عس . ومن هي ؟ ... أتكون بمن تعودن ارتياد دير موران
لاشباع شهوة ابن معاوية ؟ ... متعددات عن المتقلبات في هذا المكان على
فحش واثم ، أتكرن احداهن هذه الطائفة على جناح العتمة ؟ ... وعرض
يزيد يحياها على ضوء الصباح . وعرفها من ذل في وقفها وعتب في عينها .
هي احدى المطالبات بقلبه . سحقا لهذا القلب كم من غانية تطالب به وهو
العاجز عن نيل مشتاه !

وعسى يزيد وقد عرف الزائرة . وكاد يلويها عنه ويغلق دونها الباب .
فهي ليست امنية . بيد انه استعدى عليها الصبر ولم يكن يملك منه غير قشور
رفاق . قال ورائحة الحجر تندلع منه طاغية شروداً : أنت يا جمعة ؟ ... من

ارشدك الينا في هذا المكان ، بل من قادمك الينا في مثل هذه الساعة، أما كان
بوسعك الانتظار حتى الصباح ؟

وكانت جعدة نفسها ، ارملة الحسن بن علي . قالت وهي تسأوه : باي
انت وامي ، اني ابحت منذ ثلاث عنك ولا اهتدي اليك . وحدثني احداهن
انك في خلوتك في دير موران فشقت اليك الليل متوكئة على دليلين . ما
جئت لازعاجك ، بل لتذكيرك باي لا ازال على العهد ، فهل لك ان ترحم
قلباً يصبو اليك ؟

فزفر . انها لمفاجأة تلهب الجراح . وسدد الى جعدة ناظرين اعتلج فيها
الكره والارتباك . وهز برأسه وقال بصوت يهدر فيه الغضب فتمسكه بقمية
من طول أناة : مرحباً بك يا جعدة . لسنا نقلوك . على اني وددت ان اراك
في دمشق ، فما كنت على اضطرار الى ركوب هذه المشقة . هل ظفرت بروية
معاوية بن ابي سفيان ؟

ولم يشأ ان يبيح لها الدخول . هي في الباب وستظل في الباب لا تتجاوزه
الى صدر المكان . وسألها هل شاهدت معاوية كي يصرها فوراً اليه ان
تكن لم تبصره . فليس كمعاوية في الارضاء . فانه ليملك سر معرفة الناس
ومدى طموحهم كأنه يزنهم بالميزان . ولما اجابت انها كانت في حضرة ابيه
ادرك يزيد ان سهم معاوية طاش عنها فقال : وماذا اسمعك معاوية ؟

فها لها منه هذا التدقيق . أيجتاج المحب الى استطلاع وقد بوغت بمراى
الحبيب ؟ ... غير انها صبرت على استقصائه واجابت بمداورة تبغي بها درء
الحية : معاوية صارحني بانك لا تحبهم عن انجاز ما ابرمت . اما وعدتني بان
تزوجني فور موت الحسن ؟ ... عليك بتحقيق الوعد !

فاصطكت اسنانه بعضها ببعض حتى كادت تطعن . واطبق فمه دون
الشيبة . ليست هذه من يريد . مجنونة به وما يحقق فيه اليها حين . قال وهو
لا يدري كيف ادرع الصبر الجميل : هذا ليس اوان الزيارة يا جعدة ،
هبطت علينا في ليل مقيت . ان ما بنا ليشغلنا عنك . سنسير اليك يوم يصفو
لنا الزمن . فما انا بالكائه ولا انت بالضاعة المقييل !

فارتعشت فيها الوهلة . حديث هذا حديث ذاك . صد وجفاء . الا ان
هذا اعذب منطقاً . قالت وفي حدقتها غصات دموع : أتسير اليّ يوم يصفو
لك الزمن ؟ ... وفي اي صفاء تطمع بعد هذا العز الروي ؟ ... السيادة باتت
باجمعها لكم تتجاذبون وحدكم اطرافها بلا شريك . لقد مات من كان
ينافسكم فيها وانا القاضية عليه باغراء منك . أتكون خدعتني وانت تحثني
على الفتك به لتخلو لكم الساحة ؟ ... اغرقتني يومذاك في فيض من السناء ،
فهل لوحت لي بالسراب تغرورق فيه عيني حتى اذا ما جئت اتقاضك الدين
انكرتني ؟

فقال وقد احس بجفاف نضاضة الصبر فيه : اخذت بمقدار ما اعطيت
يا جعدة ، فلم يبق للمطالبة بالدين متسع . أما نعمت بالبدل العريض ؟ ...
لست اراك على قسمة ضئلي في ما طالت يمينك عن قطرات قلائل من
السم . انصرفي . سأدعوك الي يوم يلج بي الهوى . فانا الساعة منه خلي !
فصاحت : شكلك امك . أتطردي كالسائل الحزيان . وكنت ترمني على
قدمي كي انيك المبعي ؟ ... أتتسى كيف تهادبت امامي كالحفساء تسترحمني
في الرفق بقلبك وبغدك ؟ ... والله لو لم اكن ساقطة بنت لاقطة لتحاميت
الوقوع في شركك . على اني حسالة الناس استنمت الي اكذب الناس فلقيت

من غدرة ما يجب في فاحشة مثلي . انا قتلت بيدي حفيد الرسول ،
يا كافر ، كي اهد لك السبيل الى سيادة المسلمين ، أفتكافئي باللطمة ترض
بها امسي وحاضري وغدي وتنسام رخي الضمير كأنك لا ارقت دماً ولا
ادميت كبداً؟ ... لا والله ، هذا كيد لن تخرج منه على رفاء . اني لاحرقن
قلبك واشوهن غدك كما احرقت قلبي وشوهت غدي . ولكن من
انت؟ ... ابن معاوية . فالقدر من معدنه . معاوية ما كان في المسلمين غير
سافل خسيس !

وايقنت ان الاب والابن متواطئان عليها . في كبش المحرقة . نحرا
بها الحسن بن علي ثم نحراها وهما يضحكان . فلم تكن لديها غير وقود لاشعال
النار ثم حفنة من رماد تبددها الريح . فاكتفى يزيد بان يعلق دونها الباب
ويعود ادراجه الى الحوان لا يجب . فزاد في حشرجة املها المقهور وهو
يدير لها ظهره ويكنسها بصفحة الباب كأنها الحشارة ، كأنها لقيطة موبوءة .
وما تماكنت حيال المهانة الناخعة ان صاحت وفي قلبها جمر وفي مدمعها
شرر يسيل حقدآ وغيطآ : لينتقم الله لي منك كما انتقم للحسن مني . قتلته
وهو في نضاعة الوليد ، ما جنى ولا تجنى ، كي اعقد لك راية السوداء ،
فتمسي في الاسلام القلب الحفاق ، فاذا بك تقابل صنيعي بطعنة في صدري .
لا ، لا وفقك الله في عمرك ولا ابتسم لك زمنا . لتغرق في غمرة النعس ،
فما تتجو في اسعد دقائقك من مفض الكبوة . سلكت بي طريق الضلالة
فلا عرفت الهدى . ليتهرك ربي كما قهرتني ولتكن ايامك سلسلة من لوعات
وويلات !

وعادت تعثر بالليل الى دمشق وهي تشرق بدمعها . حطم يزيد جناحها

واطمعها الحرفة مكرهاً اياها على احتمال الالم دون ان يوسع لها في شكوى. لمن تتظلم وبم تتظلم؟... رماها ابن معاوية في الاحبولة واجاد حبك وثاقها . فهي مقيدة ابد الدهر بالكتان وبالصبر على الضيم . فاذا افاضت باشجانها فانها لتتهم نفسها . قتلت الحسن بن علي زوجها لاشباع سفاسف لذائذها

ونفرت من دمشق . لن تقيم في عاصمة ابن ابي سفيان وقد عانت فيها روغان الثعلب وفكة الذئب . فان بها منها ما حرما الغفوة . وعادت الى الكوفة تدفن فيها خزيتها . اذا اباحت لها الليالي الانتقام فلن تحجم عن صولة . وعضت جرحها وهي تتحرق مستنزلة على يزيد وابي يزيد ودولة الامويين اللعنة . غير ان يزيد لم يكن اسعد حظاً منها . فالعاشية العابثة بلها تنكأ جراحه . على انها مختلفان في المتجه . فان يزيد ليتشبه ارينب وبلتاع حسرة عليها

ابن خليفة تسجد بين يديه ألوف الالوف ويعجز عن امنية ، عن امرأة . واي قدر لامرأة في هذا المضطرب المتفسخ بالخلوقات ، في هذا الجيش الرواح من المعقرين جباههم في غبار نعلي معاوية؟... على ان تلك الضعيفة المقتدرة ، تلك الهباءة المائلة الدنيا ، اذلت ابن الخليفة ونهشت كبده ، فاضى منها في ثورة الخنوق الشهوة ، الذبيح التعله . اضحى كالظامي . حيال المورد العذب ، يحاول الابتواد برسيل الماء ولا تسعفه قواه في نجمة

وطفر الى دمشق ، الى معاوية . انه ليحترق في حبه العاقر . ودخل بلا استئذان . ليقل معاوية ما يشاء . ليطرده ، ليقتله . فلماذا اطلقه الى النور وقد ادركه في النور الظلام؟... وانحنى وسلم . ولكنها الخناء موتور وسلام مفؤود .

وانفضت في معاوية هامة ، واستدارت عيناه على حنق ، الا انه كظم غيظه . فاستثم في يزيد الغليان . واشرقت فيه البسة كالايماضة . فالموقف يحتم المماكرة . وسبق يزيد في الكلام فقال وهو يميل الى هدم النزق الفائر في ابنه : مرحباً بقرّة العين . اطلت الغيبة فاحشت يا يزيد . ابن هذا التنائي عن ابيك المشتاق ؟

فما خفف اللقاء الحفيّ من لهيب الحرقه . قال يزيد بجشونة في اللسان وببحة في الصوت تشفان عن متفامّ الضغن : دهمني جعدة تستنجزني وعدي لها فالقمتها السبة . فانها لعل عليّ بالدعوات ، فهلا كفيتني شرها وابعدتني عن حديد مقولها ؟

فما معاوية في ابتسامه رخية وقال : انها لتستमित فيك حباً ، فاتلها الله . لو لم اكن اخشى عليك منها لرفقتها اليك . ولكني اخاف ان تمثل فيك دورها في الحسن بن علي . ولقد جاءني تنصف بعد قبض المال . واستشفعتني لديك فقلت لها : « أما يزيد فاستبقه لنا ، اني اضن به على السم تطبخينه له !... » . فسقطت في الارض مغشياً عليها . فلم تكن ترقب هذه الصدمة . على انها لم تقطع منك الامل فهفت اليك تسألك فيها ، فكانت اشبه بمن ينطح صخرة ، فاستفاضت في الدعوات الداعرة ، لتحرقها النار !

واذا الباسم يشتعل سخطاً ، واذا السحنة الهادئة ، الرضية ، تعتكرك كبحيرة اقلقت سكونها الزوبعة . وزجر معاوية كالرعد في عنيف ارتجاله : اُدعوا عليك الفاجرة فنتشهى كسوف بهجة زمني وانتثار درة نعمتي ؟ ... والله لا اغيظن بشرها واصوحن عودها . لحناء ، لكعة ، لا يستام اليها في ذمة ولا يؤمن جانبها في حفاظ . لو سمعتها تطلق فيك المقال الوجيع

لاستأصلت لسانها من مبلعها ولفقات عينها . فمن يتجرأ على ربحانة عمري
فقد تجرأ علي . من يطعن علي ابن معاوية فقد طعن علي معاوية . ان يزيد
لنصرة ايامي ومكان الروح مني . تعال الي يا مرجاة ابيك !

وفتح له صدره وطوقه بذراعيه . ومبغاه ان يتقي في هذا الابن فورته
الجموح . فداوره ليخفت فيه غضبه ويسلم من تنديده به . حقق يزيد مطمع
معاوية ومعاوية لم يتوفر على ارضاء يزيد . وهذا التعود عن الاجابة اخجل
معاوية واذله حيال ابنه فبات لا يدري كيف يستعته ويخطب وده . فالحاجة
الى هذا الابن ماسة وهو صاحب رأي وفطنة ، ثم هو وارث المجد فلن يقبئه
ابوه على غضاخة . قال بعانقه : وقعت على تدبير يعيد اليك اربنب . فطب
قلباً واسكن الى ابيك . عبدالله بن سلام لن يتمتع بها طويلاً !

وسبقه الى الضالة . ولقد ادرك معاوية بدھانه ما يهيب بيزيد الى هذه القصة
الجائحة . حبه لاربنب طغى عليه فساقه الى ابيه ناقماً يتهمل ، وقد يكون
دفعه غاضباً يتوعد . فتلاعب به معاوية وكبح فيه الجماح . فرفعه وحطه ،
وتنقل به من اليمين الى اليسار ، ومن اليسار الى اليمين ، حتى وضعه في
نقرته واخذ غليانه . فهو الآث بين يديه عصفور في قفص يرجو العوث
والعون . وود يزيد معرفة هذا التدبير المهتدي اليه ابوه في استعادة اربنب .
فما هو ؟ ... ان معاوية لحصب الحيلة ، فماذا اعد للفضل بين عبدالله بن سلام
واربنب بنت اسحاق ؟ ... قال يزيد : ابي يعلم ان ليس لي عن ابنة اسحاق
مصطبر . فهي تأكل من قلبي ومن هناة ايامي . وامير المؤمنين ، ايده الله ،
وعدني بان ينصفني منها فاسترسلت اليه وكان ان فاتتنا النهزة . لهونا بمجدة
ريثاً تطوي الحسن فاذا بابن سلام ينتزع اللقمة من الفم . وهذه الحنية زادني

في اربنب هوى وجوى . ولا احسب امير المؤمنين يرضى لابنه بالارق
والغمة . فان بي من الترحمة ما يسقم الجبار !
فزّم معاوية بن ابي سفيان عينيه كأنه يهم بالدمع . ابنه يشكو اليه
تبريح الوجد . ان يزيد ليشقى شقاء الدهماء ، فما انقذه جاه ابيه من النكد .
وما تماسك معاوية ان عاد الى ضم هذا الابن وهو يقول برعشة من ألم : رفقاً
بأبيك . لا تتبسط في عرض ظلامتك ، فانك لتسحق بها كبدي . ما حسبت انا
سنهون في قلوبنا وقد بلغنا من الرفعة منتهاها . اربنب لك . ساخادع فيها
عبدالله بن سلام حتى يبنذها وتستولي منها على يبيع الحسن . من كابد وفاكده ،
وخالب وخاتل ، ليم له الامر في المسلمين ، لن يعصيه عبدالله بن سلام الصافي
الدخلة ، النقي السريرة . ان هو الالعة في فمي ، فصبراً . تقصيري في امرك
ساعوضك منه الظفر بالارب ، فاکتم سرک بوسيع حلمك واستعن بالله على
غلبة هواك !

وما تمهل . فكتب على الفور الى عبدالله بن سلام يدعوه اليه من العراق :
« اقبل حين تنظر في كتابي هذا لامر حظك فيه كامل . لا تتأخر . اعترمت
ان ارفع من قدرك وان اجعل لك نصيباً وارفاً من افياء المسلمين . السرعة
خير مطية . فلا تم عن الزمن المؤاتي والسعد لا يبسم مرتين ! »

نام الحبيبان على شغف وفرحة جاهلين ما يحاك لهما من مكيدة. فهما في العراق مخجوران بما يتأرجح فيهما من مخالصة ومودة . فقد رنحت اعطافهما نشوة الحب المتفتحة عن كؤوس ابرار يتساقبانها بغبطة وشوق . اربنب سكرى وعبدالله وهمان مقيم . يشم العطر الفواح ويستزيده فوحاً . نهم لا يشبع ، وظامى . لا يرتوي . وكيف الارثواء ، وارنب سلافة طافحة باللذة ، امتزج فيها رائع الحسن بفاتن البيان ينبوع سحر تلهم الهوى وتقتعد النبهة؟ هي وعبدالله في الذروة من الفتوة . وعبدالله ثري المال وارنب على يسر فجما الدنيا من اطرافها اللدان . ولم يكن عبدالله فاسد النية ولا لئيم الفطرة . ففي حوانيه تعبد للخالق ، وطأطأة لولي الامر ، وولاء للخدين . ولقد اكتفى من دنياه بالطيبين ، بالمنصب تعلو به منزلته ، وبارنب تثلج صدره . ولما ورد عليه كتاب امير المؤمنين ، معاوية بن ابي سفيان ، ووقف على منظوقه تولته البهجة . ولكن الغموض المغلف به الكتاب اثار فضوله . فاي نعمة يجسبها عليه الخليفة ؟

وتلا الكتاب على اربنب فما بدا منها انها طائفة المسرة . قال عبدالله :

وما يلوح لك فيه يا اربنب ؟

فاجابت وفي عينها سهوم : انا اخشى كيد معاوية يا عبدالله . قد يكون يبطن لك المهلكة فيما يسخو عليك بالعطية . فما هذه الدعوة اليه على اجنحة

ولسنا ندرى الحافز اليها؟... ان في الكتاب للغزاً اعيدك منه ، باي انت وامي !

وظهر منها انها تحاول ايضاً وتتردد كأن الكلام لا يطيعها . فقال عبدالله ضاحكاً : واين المهلكة يا اربنب ؟... ليس بيني وبين معاوية حفيظة . انا وانت من ابناء اعمامه ، من قريش ، اتحسينه بغدر ابناء اعمامه ؟... ستعدثيني عن موقفه من علي بن ابي طالب وهو بمكاننا منه ، ولكن علياً نازعه في سيادة المسلمين ، وانا في اي سيادة انازعه وحسي منه هذا المنصب . لا ، لست بمن يجوبون عن معاوية امنية ، ولا بمن يثروم عليه مطمع . وجل ما يشف عنه كتابه الي ان يعدثني لاحدى الولايات في الدولة ، فيزيد في رفعتي وانعم واياك بغد سمين !

فاكتفت بان تطيل اليه النظر دون ان تفيض بمقال . فازعجه موقفها القلق ، الحشيان ، وصاح بها : ولكن افصحني . اكشفي عن جينك وصارحيني بما تتخوفين منه . ماذا ينص من كتاب ابن ابي سفيان ؟

فاعلنت باكداد في الصوت : ادعوك الى الحذر من ابن ابي سفيان . انت حياله طفل 'يجر' بجيظ . فلست منه في بعيد حيلته ولا في رهيب مكره . قد يزين لك السعادة في الاكواء بالنار . فيدفعك الى الموت بطلاقة من يربدك على الحياة . ابن ابي سفيان يا عبدالله يطعنك في صدرك فيما يقبلك في جينك . يسحقك بنعليه فيما يسمعك المنطق الواعد . انه ليحلك منه محل ابنه يزيد في بارع ختله وخداعه ، فتغفو على ريش النعام وتستفيق على دبابيس . ثم اني رأيت ...

فرمت في قلبه الرعب وقال متشامماً ، متهيّباً : وماذا رأيت ؟

فتأوهت كأن ما تراهي لها يدمي حشاشتها. وودت كتمان الرؤيا وليس
في ما طاف بها من اخيلة ما يمك على الطمانينة . ولكن عيني عبدالله ألتنا
في الاستطلاع وما عودتها ارنيب اصطباراً . فقالت بعد لأي : رأيت هوة
تفصل بيني وبينك . فصحت مستجدة بك فاذا شيخ كربه يرفل في الارجوان
والبرفير كملوك البيزنطيين يشب اليّ من احشاء الهوة ويطوقني بساعديه
فيستطير لي فرقاً . وتعاظم استعائتي بك فتتوارى عني كأنك نسيتني واستأثر
بك سواي . ويجري في الشبح الى الهوة وانا على صباح واستجارة . واستفتت
من نومي وبني من الوهم ان رأسي تحطم على نواتيء الصخور !

فضحك عبد الله بن سلام ضحكة المستهين بالرؤى وقال بمازحاً : ربما
وقعت من نفس معاوية موقعاً حسناً يا ارنيب، فاهابت به صوته الى
اكراهي على طلاقك مني !

ومتأدى في ضحكة المستأنس بالمداعبة ، فحردت ارنيب وقالت : وهل
يرضيك ان يفصل بيننا معاوية ؟

فآلمته غضبتها وضمها اليه وهو يقول : لا والله يا ابنة عمي ، اني لاكفر
بدولة معاوية على بكرة ابيها لاجل بسمة تضيء في شفئك . انت ثم
المنصب . فان يخطر لمعاوية ان يباعد بيننا تحليت له عن الولاية ونعمت في
قربك بالعيش الحضل دون جاه السلطان . فما المعالي عندي على سمو رفعتها
بما يعادل ساعة تغشانا على جنوة . مباركة لمعاوية الرتب وحسي الفوز
بمرضاتك . دنيا الحب اشهى من وسعة المجد على متأدي رحبتها !

فرشحت عينها بدمعة سبعة . فصاح عبد الله وقد انحنى عليها بهلع :
أتبكين ؟ ... ما بال عينك تسوخو بالالم ؟

قالت في لوعة وطفاء : لا تذهب الى معاوية . إبقى هنا . ابن ابني
سفيان يريد بنا شراً . ان في عطائه لمنة ، وفي عطفه لاذى . اخلع عنك
منصباً اولاك اياه ولنعد الى مكة نقيم فيها على سكينه . ففي ايدينا من المال
ما لا تقنيه السنون !

فقاله ما تدعوه اليه من تضحية . أخلع عنه المنصب وفي المنصب عز
مستظيل وشموخ مديد ؟ ... انها لتكلفه ما تروح به الطاقة . وما يخفيها من
معاوية ؟ ... معاوية ليس تبع نساء ، ولا حفيلاً بشؤون النساء . هذه ترهات قد
ينصرف اليها يزيد . اما ابوه ، ابن هند ، فانه لساعٍ لنصرة دولة شيد اسها . والدولة
لا تقوم على وسامة كاعب غيداء . قال عبد الله بكياصة البصير الرفيق :
ولماذا نجبه معاوية بالنفرة ونحن على جبل بما يريد منا ؟ ... علينا ان نسمع مقاله
وان نكيل له بكيه . فهل جاءك عن معاوية انه فصل بين زوجين ليستأثر
بالمرأة وينبذ البعل ؟ ... معاوية ابعده مرمى من الوقوف عند حسناء !

فذكرت يزيد . وكادت تفشو ما كان من ابن معاوية فيها . حاول
استدراجها فتوارت عنه . بيد انها نكصت عن الافصاح . اجل ، معاوية
ليس يزيد . وقد يكون يزيد تناسي . فما تعود ان يصفو لامرأة وان يطيل
الشفغ بها . فهي لديه اشبه بالكأس ، ما ان يرتوي منها حتى ينساها . فاذا
عزت عليه مال عنها الى سواها . فلن يقضي ايامه في البحث عن خمرة اشتاق
مذاقها وضاق عليه مجالها . فهو لساعته لا لغده . ومعاوية في شغل عن حب يزيد
وكلفه . اما اقصاه عن الحضراء وقد اباح القصر للهوه ومجونه ؟

وشامت ارينب ان تطمئن مع اضطراب السكون فيها . قالت وهي
تجاهد في ابداء الارتياح : اذهب وانكل على ربك واعتمد في ارينب الوفاء .

ارينب تصون عهدك فلا تخفر ذمتها !

والقت رأسها الى صدره . هذه الدعوة الى قصر الخضراء ليست بما يستعذب خاطرها . فهي منها على رمض . اما وعبدالله لا يرى من ندحة عن اجابة امير المؤمنين فلا عليها اذا صبرت على الشدة . ومال عبدالله فيها على الملبس الريان في ضيق مدى يحمده فيه الآتة . فزغها قبلة تنتفض بلاعج الهوى المحموراخرم وتم عاتباً: ألمثلي يقال لا تخفر الذمة يا ارينب ؟... والله ما انا منك غير هذب في جفن ، اذا شئت استبقته والا تزعته منك نزع الشوكة الواخزة . فلا يتحرك ولا يجيأ بسوى مشيتك . وانت مني نضاضة الروح ، اذا اعتراك في جبي جفاف فقد ذبلت روحي . أتريدني على الامانة وانا مرآتها الصافية ومثالها الاوفى؟... كوني حسنة الظن بآبن عمك وهو الواهب لك غضارة اللبالي والواقف عليك محتلج الانفاس !

وركب فرسه الى معاوية يزّم الفدافد وفي نفسه فضول وطماح . ان هذه الدعوة الى الخضراء ليمونة المطلع ، مشرقة الديباجة . معاوية يريد على سرعة حثيثة لينفجه بالحظ الاسنى . فاي سلطة سيجود بها عليه هذا الشحيح بالسلطان؟... وسبح به جواده في الفلوات الفساح . ولم تشغله الصحراء في منبسط رمالها ولا في يتيم نخيلها عما يتلظى به ذهنه من حدس وظن . أيكون والياً على الحجاز ام يعهد اليه معاوية في منصب في الخضراء ، كأن يلقي بين يديه زمام بيت المال او قيادة من قيادات المسلمين ؟

وطال تفكيره دون ان ينفذ الى صميم اللغز . فما برح فيه على حومان . ولم يكن السهم المرنان اشد منه انطلاقاً في خاوي المقاوز الرحاب . امير المؤمنين يبعثه . واتسعت اساريره ببشاشة مندلعة البسمة . هو من دنياه

في روض اريض . وانتعش وقد اطل على بردى يستقي منه ويستقي جواده .
بات في حاضرة ابن ابي سفيان . وعلت به هامته وقد اشرف على دمشق .
لا ريب ان معاوية يجزه لمقام نضير . واذا كوكبة من الفرسان تشق اليه
الادغال والهضاب . هؤلاء رجال معاوية يقبلون الى لقاء ابن سلام . انها
لنعمة وارفة الظل ، غضة الجلباب . قال كبير القوم : او فدنا اليك معاوية
امير المؤمنين للترحيب بقدومك . فانت بيننا على سعة ميلاء !

فاجاب والبشر يفعمه فيكاد يفحمه : روعي فداء امير المؤمنين . سخا
علينا من لآلاء هذه الدولة بما رفع قدرنا واثلج صدرنا . زاد الله في بهجة ايامه
واخضلال راياته . لا تصلح الاحكام لسوى السيد ابن السادة في الجاهلية
والاسلام !

ومشى في موكب حفيّ وهو يقول : ومتى يأذن لي امير المؤمنين في
المثول بين يديه ؟

فاعلن مخاطبه : مكانك فور بلوغك دمشق دار فضمة على خطوة من قصر
الحضراء . ستنزل فيها محفوفاً برعاية معاوية ريثما يدعوك الخليفة الى القصر !
فتفانمت فيه المسرة . معاوية اعدّ له داراً بجانب قصره يقيم فيها عزيزاً
مكرماً . انه لعطف لا يتقلب في نعيمه غير الامراء والملوك . فاي مهمة استدعا
انها معاوية ؟ ... فهو يجعل منه نديداً يكاد يساويه في العظمة والجلال .
ورحب به اصفياء الدولة وهو يبلغ الدار الموقوفة عليه في عاصمة معاوية .
هذا الكبار يعز فيه النظير . اذن سيقيم ابن ابي سفيان اميراً على شطر من
هذه الدولة المترامية الاطراف . فبسمت له الآمال في الشام اكثر منها في
العراق . فالجهد في حاضرة معاوية بلقاه على فيضان . ووقد ليلته تتجاذبه

المنى الجسام . ما اهنأ وسادة العزة وارفع عماد السؤدد . ف شعر ابن سلام بانه
يجر ذيل الحيلاء والتهيه . فهو يملك اعنة الدولة بعد معاوية . لا سيد يطساوله
ولا جبار يصاوله . فالدولة هو وابن ابي سفيان

واصيب بغشيان الرفعة . واهتز طرباً في مجبوحة الفخار . وتراءت له
الدولة الاموية تنحني خشوعاً في حضرته فوثبت به نفسه الى ولاية العهد .
فما ينبو به عن بلوغ المرتبة الجاثم فيها معاوية والامر في الاسلام شورى ،
يبلغه الضعيف الجاه كما يبلغه الداھية الهام ؟ ... انه لمن قريش ، واضالعه
تلتف على ادب ودين ، فاذا ما مشت اليه الخلافة تبغيه فليس في حيوها
عجب عجاب

وفيما يتقلب على الاماني النضرات حفل قصر الخضراء بمشاهد بطر فيها
الدهاء فاستفحل كأنه في وثبة النمر الشرس وجشع الذئب الجوعان . ففرك
معاوية يديه في سكرة الحبور ودعا اليه شيخين من الصعابة ، ممن آكلوا
رسول الله وجالسوه ، وحادثوه واصغوا اليه في سديد آرائه ، وشاطروه
النعى والبؤسى . فدلغا الى ابن هند وقد احتضنت كلاً منهما عباءة من الوير ،
واستظلت كل هامة بعمامة منتفخة كأنها الدنيا . فنهض اليهما معاوية مسلماً
ومرحباً . هذان من اتباع الرسول . وقادهما برفق الى قربه حتى لم يبق
بينه وبينهما مجال لاصبع . ومسال على كل منهما يقول : السلام على نبي الله
وعليكما ايها الصفيان !

ولم يكن من هذه المقدمة بد لتهميد السبيل الى الارب . وانحنى معاوية
مرتين تقديراً واجلالاً . فهو بين اكرم الصحب واصدق الخلان . واوهم
جليسه انها من تلك الصفوة المعدودة من الاحباء ، من النخبة في ذوي

المشورة والرأي الحافل بهم الاسلام . ورائت على الشيخين المعتمدين البيهجة .
فانهما لفي كنف من يقدر قدرهما ويرفعهما الى الجلالة الخليفة بها . وانبسطا في
قعودهما . فيها اشبه معاوية في الشأن والمقام . قال ابن ابي سفيان وقد دعا
لها بالطيبات ليقينه ان بها اليها حين المستهام : لست املك من بليغ البيان
ما يسعني في الاحتفاء بمن وقعت في مسامعها آيات النبي صلى الله عليه وسلم .
فان نزولكما داري لمن رضا الرحمن عني . واني لفي جندل واستبشار .
ولولا يقيني انكما من زهرة الاوفياء واصحاب التدبير الحكيم ملت الى سواكما
استشيره في امري . على ان ثقني وقعت موقعها والحمد لله . فاذا افضيت
اليكما بسري فاني افضي به الى الخليم الفهم ، واللبيب الصدوق !

فاتسعت فيها الفرحة وباتا على وشك افتداء امير المؤمنين بالروح اذا
التمس الفداء . قال ابو الدرداء : كل ما نملك من مال وروح في يد امير
المؤمنين . نحن نرى فيه خليفة الرسول الامين . وليس له الا ان يبدي لتتوفر
على الطاعة !

فقال معاوية وقد ادرك انه نفذ منها الى اللب ، وانهما باتا له اطوع من
خاتم الخلافة في نصره : ما انا الا منكما ، وما الدولة الا نبتة تسقيانها
بيانع رأبكما . معاوية يجري في نهج ترسمان خطوطه وتحكمان معه . الله .
ساعالنكما بقضية من الخطورة على جمام . فهل تعاهداني فيها على نصحي
والاخذ بيدي ؟

فقال ابو هريرة وحيته البيضاء تجلج صدره ، وراحته تغوص في الافاويق
الى المعصم وقد استطاب توابل معاوية ومواخه : باي انت وامي يا ابن ابي
سفيان ، تكون خليفة الله فينا ولا نصوصك لك ابلغ حكمة في انضع

مشورة؟ ... هات . كان نبي الله يستفتينا فنصارحه بما نعلم . وانت كاتب النبي فلست تجهل مقامنا من مستنزل الآيات !

فابتسم معاوية ابتسامة التأيد . انه ليدري من امرهما فوق ما يدريان . قال وهو ينظر بجنون فياض الى هذين الشيخين الغارقين في الاكالات المرية، المبتلة شواربها وحيثاها بالمرق الراشحة به اصابعهما الضخمة العقد، المزمومة البشرية : دعوت اليّ عبد الله بن سلام من العراق لاعجابي بنضيد خلقه ونظيم دينه . فهو بمن اتوا ملكة الايمان وموهبة الحفاظ . وان سمو فرعه ليحشني على ترويجه صفة انتي . فاذا باعها فقد جمع بين سماحة المنتمى وذروة المجد . على اني اخشى اذا اوضحت له بنفسي ما يمور به صديري ان يستخف بطلبتي . على حين اذا خاطبتاه في المبعى دوني فانكما لتحفظان مكاتي ويجد في ما تعرضان عليه شهوة يصبو الى ادراكها والاستواء فيها على متعة . هو ينزل في دار بجانب داري ، فهل يبدو لكما ان تسيرا اليه وتخرقنا له هذه الامنية الجموح فيشتاق بلوغها ؟

فقال ابو الدرداء وقد اعجب بوداعة معاوية وخفض جناسه : امير المؤمنين من هذه الامة زديّ اللب، حلیم الصدر . فلا يقيم عليها نفسه سيداً بل يدرج اليها اخاً رفيقاً . وفي ما يعرض على ابن سلام صفقة يعاني فيها امير المؤمنين القبن . ولكن رجاحة الخلق وكرم الطبع بابيان عليه الا ان يسلك في المستظنين لواءه مسلك العطف والحدب . ان ابن سلام لمن ارباب الحظوظ . فقد سمت له النعمة وحالفه السعد . هذه الهبة بعض الجنة يا امير المؤمنين ! وقال ابو هريرة : هذا من صلت لهم امهاتهم في لبالي القدر يا معاوية . ما رأيت ابن انثى يدرك المجد والرغد وهو عنها في غفلة !

فاستوضح معاوية : أيبدو لكما في احسنت؟ ... ألا اكون هويت
عن ذروة اتسهما في عقد هذه الصلة؟

فترددا في الجواب . ماذا يقولان؟ ... كل ما يجيدان ان يوافقا على
رغبة السيد المطلق . اما وقد لاح منه انه يريد الوقوف على رأيهما اللباب
فليس يدريان بما يعلنان . ان التلذذ بالطيبات خير من هذا الاحراج . والتفت
بعضها الى بعض كأن هذا يستعين بذلك للنجاة من مأزق ضيق طرحها فيه
امير المؤمنين . ولو كانا ملين بنيات معاوية لا يداها غفواً ، لا ينكسان .
وشعر معاوية بحيرتها فضحك وقال : لا عليكما . اعترمت ان ازف ابنتي
صفية الي عبدالله وهو من بني اعمامها . فلا تجهدا خاطر في ابداء رأي قد
يرشح باللومة . جل ما عليكما ان تنصرفا الي عبدالله وتدليا اليه برغبتي . صفية
له اذا شاء . ويجب ان يشاء . والا عاتبكما عتاباً قاسياً . ما تعود معاوية
الترجيب بالصدمة والاختفاق !

فصاح ابو الدرداء وقد تنفس طويلاً لمنجاته من غصة الاستفتاء الخائفة :
أيتم لابن سلام ان يباعل ابنة معاوية بن ابي سفيان ويتدلل؟ ... انه والله
ليقتعد عين الشمس على رخي بال وهين مسمى . لا نكبر انه رجل دين
وادب ومروءة ، ولكن حظه كسف فضائله . فلو لم يكن حبيباً الى قلب
امير المؤمنين لزلت به قدمه دون المطلب الوعر . ليشمخ عبد الله بانفه ، فقد
بسم له الزمن بسمة التصافي والامان !

فقال معاوية : ألا اسرعا اليه وابلغاه مشيتي . اني اراه لابنتي صفية
كفواً كفيماً ، وارجو ألا تخرج صفية من رأيي وقد جعلت لها من نفسها
شورى . فمن احبت اختارت على ان يكون من القدر والمنزلة على رجحان!

فملا على الافاويه ميلة الوداع بغرفان منها بما ملا الشديقن وانتثر على
الصدرين والعباءتين . ومسح كلاهما شقته بسبابته ، ونهضا بنشاكل همة ،
وبطء خطو ، يرددان الآيات ومعاوية ينظر اليها باسماً والمكر يفيض من
نظراته فيخضب وجهه . انه ليدفعها الى الحتل والمراوغة مكبلين بسلطانه
ومهابته وهما يجهلان ما يريد وما ينوي . واني لها النفاذ الى ما يغلي به صدره
من كيد وكل ما يحسنان التحدث عن الرسول والتغني بآيات الكتاب ؟
وما ان تواريا حتى صفق معاوية بيده مرنع الاعطاف ، جذلاً . فاطل
من وراء الستار ولداه يزيد وصفة . فمال بيزيد على قلبه وهو يقول : دعني
اشم فيك رائحة جدك وعمك وولي عهدي . انت ريحانة نفسي وعنوان غدي .
فما تعب ابوك باطلاً في تشييد هذه الدولة الشاسعة الآماد . لقد وطدت ركنها
وبذلت في سبيل نهضتها وسوقها اصدق مجهود وامضى عزيمة . ولست اريد
ان يطل بعدي من نازعك فيها اللواء ويسلبك الصولجان . هذه دولة بني
امية اصحاب السيادة في الجاهلية وفي الاسلام . ينتقل فيها الامر من سيد
اموي الى سيد اموي . فمن الجد ، الى الاب ، الى الابن ، الى الحفيد .
وقد عالنتك ان من جباك روعة السؤدد يا يزيد يضمن لك بهجة القلب .
ارينب باتت منذ الساعة في عصمتك ومتناول يديك . فما دهمنا فيه الزمن
سنبلفه بالحيلة وانف الزمن راغم . فكن على ثقة وازنة بابيك الحابس جني
دهره عليك !

وعانقه بصفاء وغيره . لن يشقى ابنه لاجل امرأة وسيجود في مرضاته
بكل ما تنتفض به نفسه من دهاء . فما بذل من جهد في اقتناص الخلافة
من علي سيسخو بمثله في انتزاع ارينب من عبدالله . واستحل لبلوغ الارب

كل حرام شأنه في جميع مناحيه الصعاب . فلا خرج عليه في تسخير الضمير
لادراك الامنية . فالخيلة والخدمة انجح سلاح في الظفر بالمراد . قال يزيد
وقد شاقه من ابيه هذا الخدب الصادق عليه : وماذا اعدّ ابي لفصل اربنب
عن عبدالله ابن سلام ؟

فضحك معاوية المعجب بالاحبولة المنصوبة وقال : هل رأيت لايبك
نديداً في تدبير المكيدة والاستئثار بالامر حتى لينصبر ذو الحلقى حقه
يا يزيد ؟... ألا كن قويم الرأي في ايبك . لا كرهن عبدالله على استئصال
اربنب من وكره استئصاله الشوكة الفارزة في خصره . سينبذها فتغتمها وتدفا
بنارها ، فانك لتبدو لي ترعش كالمقروور !

فشده يزيد . أيقوى ابوه على هذه الاعجوبة ؟... فمن اي معدن هو
إذا ابوه وقد طاول الحواري ؟... قال يزيد بلجلجة : أيلقها عبدالله ؟
— سيطلقها . بشراك . وسنزف اليه صفة اختك . فلا بأس علينا اذا
عوضناه من الزمردة ياقوته . أترانا خاسرين في الصفقة ؟

ونظر اليه ليرى ما يكون منه . أترضيه المساومة ؟... فاطرق يزيد .
انه ليكلف اباه ما يجاوز الطاقة . ولكنه الهوى الخائق الانفاس . فقال
معاوية وقد لمس في ابنه الحيرة : لا ترهب . اربنب حلال لك . ولا تقلق
على صفة . عندي لها رقى وتعاويند . فلست بمن يطرحها لقمة سائغة
للمزدردين . اني اضن بها على اشداق الافاعي . ابوك لا يجازف بخطوة .
حسبك ان تظفر بطهاحك وعلى معاوية رتق الفتوق !

وتناهى في ضحكته . انه لطروب . وما استطاع يزيد استيضاحاً .
فكل ما يشتهي ان يحس بانفاس اربنب تغشى وجهه وتهيم في مسمعه وتختلط

بانفاسه . له قرص الحلوى وعلى ابيه التدبير . وقف على هذا الاب المجهود
الشاق فلن يضير هذا الاب اب يبادل التفاني . تضحية بتضحية . وامسك
معاوية بيد رفيقة بكتف ابنته صفية وقال : ان ما ندعوك اليه لعل مشقة
يا صفية ، ولكنه هنا يزيد . فانت لا ترضين عن تعس اخيك . يزيد يهيم
بارينب بنت اسحاق ، زوج عبدالله بن سلام ، وعليك انالته المبتغى !
فاجابت صفية بنبرة مسممة ، دسمة : انا على ما تطيب به نفس الي ويصفو
له زمن يزيد !

ولاح فيها الذكاء والاقدام والصباحة . فهي على هيف ووثبة قوام .
ينطق فيها الجمال الانوف المتلألئ . فيه نبل السلطان . فكأنها زفت الى
الاقمطة ابنة خليفة ، فالوقار نجيتها منذ اطلقت صرختها البكر . وهي في
اساربرها اقرب الى يزيد منها الى معاوية ، على ان وجهه ارتع في نصوص الندى .
قال ابوها : شخص ابو الدرداء . وابو هريرة الساعة الى عبدالله بن سلام
يخاطبانه فيك . ومن الراهن عندي انه سيجيب النداء . على اني مبلغه اني
اطلقت في امرك يدك . فانت تكتنين بنفسك مصيرك . واذا ما استظلمك
عبدالله رأيك فيه عالنيه بانك لا تبتئين له على جفوة . فانك لراضية بان
يباعلك على ان يطلق اربنب بنت اسحاق !

فابتسمت صفية . انه لشرك سوف تتحطم فيه اضالع عبدالله . قالت :
سأردد على مسمعه ما شاء ابي !

قال : يكفي ان يعلم الآن انك لا تمانعين به زوجاً ، وان فرض المبالغة
هجران اربنب . ولك ان تصوعي الطلب في اعذب بيان واصدق اداء !
فاتسعت ابتسامتها اعجاباً بدهاء ابها . فانه ليقبس ويفصل على هواه .

هذه العبارة لهاتين الكتفين ، وهذا الفرس لذلك الفارس . قالت صفية :
سأخاطبه بما تطمئن اليه نفسه ويوقن به ان الخلافة تجرر اليه اذيالها !
وضحك الثلاثة معاً . وضم معاوية اليه يزيد وصفية وهو في بهجة السعيد
وقال : الشكر لمن جمع فوعى . ما اشتبهت من زمي الا ان يزني بالمعرفة
في سياسة الناس ، وبالسؤدد الجليل المدى ، وبالبنين الاذكاء . ولقد وهب
لي ما جنحت بي اليه الصباية ، فالحمد لله ثم الحمد لله !
وشاقه هذا المثلث المستوي الزوايا . دهاء ، على دهاء ، على دهاء !

ابو هريرة و ابو الدرداء يتهاديان على شيخوختها الرضية الى مقر عبد الله ابن سلام . وما برح عبدالله يسائل نفسه عن هذه الحفاوة البالغة به . فقد اغرقه معاوية في فيض من الاكرام المترامي الخطوة . وهو ازدلاف لا يعتمد ابن ابي سفيان في سوى من يرتجي منهم الغوث والنصرة ، فقيم يتفق لعبد الله ان يغيب به امير المؤمنين ؟

وبنى ابن سلام التخمين على التخمين وهدم تخميناً على تخمين . لقد حير معاوية واثار فيه الفضول اللبيك . على م يريد في هذه الدعوة المظلمة العين؟... وتنفس وقد قيل له ان الشيخين ببابه . قال : ليدخل صاحب الرسول ! لا ريب انهما يحملان اليه مطلب معاوية منه . ففي صدرها نقشات ابن ابي سفيان . ورحب وجامل . وشكر وتفانى في الاطراء . ان في هاتين الشيخوختين الصالحتين لنفحات من نبي المسلمين

وفسح للشيخين صدر المكان . مجيئها اليه فضل ومنه . وتكلم ابو هريرة بمنطق رجل الدين الهادى الموزون فقال : من الاجحاف ان يرتاد عبدالله ابن سلام قاعدة معاوية ولا يكون له فيها الملقى الاثير والمهد الوثير . ان هو الاغصن من اغصان هذه الدوحة النامية . ابناؤ قريش في طليعة الصفوف وقد كانوا رسل الجهاد . وامير المؤمنين انتهج النصفة في استقبال ابن عمه بتقدير السميع ورحابة المشتاق !

فلم يكن يدرك عبدالله ما يلقي في سمعه . ماهذه الفاتحة الحميلة الدباج؟ ...
أ يكون في معتقد معاوية بهذا المقام الوزين وهو يجهل نفسه؟ ... انه لا يثار
حقيق بالفاتحين والاقبال . وكاد زوج اربنب يضع في هذا الايناس . ما
يدعو الى الاحتفاء به باجلال وعظمة وما اقدم على جليل عظيم . فهو عامل
من عمال هذه الدولة يقوم بما يشير به عليه معاوية صاحب المكنانة العليا في
المطبخ العربي . فما اهاب بابن ابي سفيان الى رفعه الى حيث يكاد يرتاب
بكونه هو اياه؟

وارتج عليه فما اطاعه لسانه في جواب . بل هو لما حضره الرد على ابي
هريرة كان قد سبقه ابو الدرداء في الشوط فقال : من نعم الله على امير
المؤمنين ، معاوية ابن ابي سفيان ، انه دعمه برجال المروءة والوفاء ، والعقل
والدين . فالتوفيق يطوقه من جميع الجنبات . ولقد سمعنا من ثنائه على
عامله في العراق ، عبدالله بن سلام ، ما ملأ القلوب استبشاراً . ان امير المؤمنين
ليرى فيك علماً من اعلام هذه الدولة ووجهاً من وجوهها الكرام !

فشرق ابن سلام بريقه واستعاذ بالله من هذا المديح الطافح المكيال .
أ يريد له معاوية شراً فطبخ له السم في الدسم؟ ... وواثبه مخاوف امراته
اربنب : « ادعوك الى الخدر من ابن ابي سفيان . انت حياله طفل يجرّ
بخط . فلست منه في بعيد حيلته ولا في رهيب مكره . يطعنك في صدرك
فيما يقبلك في جبينك . يدهدك على ريش النعام ليوقظك على دبابيس !... » .
تذكر مقال اربنب ولكن ... لقد ضاع . قال : روحي فدى امير المؤمنين .
نحن زغب في خوافيه ، فما شأننا في بنيان هذا الصرح الركين وقد شيد الخليفة
السمح دعائه بيديه؟ ... إنا لقوم نؤمر فنطيع . وان نكن نقوى في خدمة

معاوية على مأثرة فاننا لنقدم عليها بنافذ رأيه وماضي قدرته . ولولا حسن
تدبيره لزلت بنا القدم وادر كتنا الظلمة المدجان !

فقال ابو هريرة : ان له فيك للرأي الخطر . فهو يؤثر على جميع من
يضمهم الاسلام . وما دعاك اليه لسوى مشاطرتك فلذة كعبه . فان
منزلتك السامقة منه مالت به الى وقف ابنته صفة عليك . فليس يجد سواك
جديراً بمصاهرة امير المؤمنين !

فارتاع وقد انجلي له السر . معاوية يريد على الاقتران بصفية ابنة الخليفة .
وعاد يتذكر وساوس اربنب وهو اجسبا . خافت من معاوية على نفسها وهي
في خوفها على حق . ابن ابي سفيان يحاول ان يجيها بضرة تقاسمها قلباً
ترتع فيه وحدها

وارتبك . هذا اللطاف من معاوية ذهب بروع عبد الله . على م تنطوي
مصاهرة البيت المانك في الاسلام ؟ . . . وألمت بعبد الله بن سلام الغصص
الشوائك . هذا احراج . وخشي على اربنب . فكان دعوة معاوية تتعاها .
لم تكذب ظنونها ولا طاشت رؤياها . ذلك الشح الفاصل بينها وبين زوجها
ان هو الا معاوية بن ابي سفيان . ولقد استفاقت من الرؤيا وهي تحسب
هامتها محطمة على نواتي الصخور . وستعظم هذه الهامة باقتران عبد الله بابنة
الخليفة . ولكن أيعقد لعبد الله على صفة ويحفل منزله بضرتين ؟

تردد ابن سلام في اقرار امره . ان الكفتين لراجحتان ، فليس يدري
الى اي كفة يميل . اربنب ذات يسر وبهاء ، وبنات معاوية الثلاث على
بهاء ويسر . هؤلاء من قريش وتلك من قريش . اربنب تتوكأ على طلالة
خلت منها حسان المسلمين ، وبنات معاوية يرفلن في جاه يعز فيه النظير .

فالتفوق مرموق في الناحيتين . غير ان عبد الله يهوى اربنب . وللهوى حكم
وسلطان . فالقلب لا يخفق خفقتين متساويتين . وسفع في اربنب حب عبد الله لها
فتجراً ابن سلام على القولة : امير المؤمنين ينفجني بما لست به خليقاً في تزويجي
احدى بناته . يكفيني من الشرف ان اكون خطرت له في بال . على ان
لي زوجة هي اربنب بنت اسحاق . وانا من قوم يخافون ألا يعدلوا فامسكوا
على واحدة . ولا اراني استطيع ان اكون لاثنتين . مدّ الله عمر امير
المؤمنين وابقاه لنا حامياً نلوذ به ، وهادياً نستضيء بنبراسه . انه ليكفني
رفعة اتوء باعبائها !

فنظر اليه الشيخان المخضمان بعته وبه . أنزل عليه نعمة امير المؤمنين
ويعرض عنها ؟ ... هذه قجة لا تبدر من ذكي فطين . قال ابو الدرداء :
أيكبر عبد الله بن سلام وما سيطوق هامته من نبل يشتهيها اكبر اهل الارض ؟ ...
خليفة الرسول يعرض عليك ابنته فتمانع ؟ ... ربي ، ان هذا لكفر . انت
تلعب بدمك يا عبدالله . معاوية لن يصبر على الحزبة . فاني لآخشي اذا عاندته
في المطلب ان يحفظها عليك فتدور بك الدائرة . لا ارغب لك في المصير
الانكد يا ابن اخي . إن يصاهر ك معاوية فقد شق امامك طريق الجنة !

فتلجلج عبدالله في النطق . لا ، ايس من حسن الضيع الاحجام عن
قبول عطية الخليفة . معاوية اعلن فكأنه ابرم . وقال ابو هريرة بلهجة
الايان : انك لتسيء الى نبي الله في نكوصك عن اجابة النداء . فان معاوية
خليفة سيد المسلمين ، فاذا عصناه فقد عصينا الرسول . وماذا يتكافأ من
ديناك وهذه الهبة ؟ ... ليس من اليسير ان تصاهر ابن ابي سفيان ، فتهب
ريحك ، ويكتنز عودك ، وتبيت الدولة النامية الجذع ملك يمينك . انت

وزيد في بسطة العديل ومرتبة المثيل . وما يدريك اي غد مورك ستقلب فيه ؟... فالخلاقة قد تحوم عليك وفي بردتلك من الفضل والدين ما عطل منه يزيد ، أفلا تبيع اربنب بخلافة المسلمين ؟

فسال لعابه حبال المنصب الاسمى . وتوامت له أئنة الدولة في بينه ، فيسوس بحكمته وينبع رأيه هذا الملك الضخم . وقابل بين الحب والجاه فإذا الجاه اطيب واشهى . ولكن اين عهده لاربنب ، أينكث العهد ؟ وظل على اضطراب . بسمة ابنة اسحاق لا تزال تطغى على جنانه . فهو بها مقيد الساعدين . قال ابو الدرداء : دع عنك ميول الفتوة ، فأنت من صفوة رجال المسلمين علماً ونخوة . وخليفة المسلمين وقد عجم عودك شعر بقصي جلالك فشاء ان يستند اليك في رعاية بني قومه . فان تتلكأ عن الاجابة حرمت اخوانك العرب سديد نهجك ونضيج علمك . وهي اساءة لا يغفرها لك ارحم الراحمين !

واستعدى عليه الدين ليقينه انه من المتعبدين . فلا يهادن في صلاة ولا يعابث في سجدة . فالتقى فيه طبع حصين . قال وهو في بحر ان ضاق به عليه مجال التفكير : وارينب ، ماذا يكون من اربنب ؟... لها عهدي وقلبي ، أيعيش المؤمن في دنياه بوجبين وقلبين ؟

فضحك ابو الدرداء ضحكة ساخرة وقال : أنتكث لاربنب الرجحان على ابنة الخليفة ؟... ان اربنب لفي ذروة الحسن والحلق ، ولكن المعادن لا تستوي في القدر . فالذهب اغلى من الفضة ، والفضة اسمى من النحاس شأناً . والحجارة الكريمة باجمعا في اشراق النجوم وندرة الحظوظ ، بيد ان الماس زينتها . والماس نفسه على مراتب . وابنة الخليفة مها وهت دون

ارينب نضارة وسناء فانها لاوفي مكانة واكرم محتداً !
فتاه عبد الله في ما يجهز له معاوية وجمجم بجنر الحشيان : لو كنت
اعلم ان امير المؤمنين يدعوني الى الزواج لرغبت اليه ان يعفني من مشقة
الرحلة . والله ليست تجد نفسي في السؤدد مشتهاها . ضمة من ارينب تكسف
عندي البدور !

فتصاعدت ضحكتان خيبتان اطلقهما شيخان لا يحسان بلهب الشوق
وضرم الجوى . فقد تناسيا لاعج الحب والسن قعدت بهما عن نشوة الهيام .
قال ابو هريرة : كنا في مثل ما انت فيه من نداوة العمر ومواهته يا عبدالله ،
نبيع الحياة بقم روي ، وناظر وري ، فماذا لقينا ؟ ... طارت عنا السكرة
ووقفنا ازاء الحقيقة واجين . المرء لربه ولحاكمه . وانت وقد اجدت التعبد
لربك فعليك الاخلاص لحاكمك . معاوية اراد ولا بد من اجابته الى مشيئته !
فكاد يجن . على انه اعاد النظر في المعروض ، بل المفروض ، فاما ملك
همة المغالبة . سلطان معاوية قهر الاخلاص لارينب . فسقطت ابنة اسحاق
في الميدان محطمة ، مهشمة . فالفوز لابن ابي سفيان . والتصقت عيننا ابن
سلام بالارض لا بيدي ولا يعيد . فهو ضم كئيب . قال ابو الدرداء وقد
شعر باستسلام زوج ارينب الى رغبة معاوية : على م عولنا يا عبدالله ؟
فغمغم بخجل : على ما شئت ، غير اني ارى ان ابقى على ديني في هواي !
ورائه الحجل من تلك المقيمة في العراق . قال ابو الدرداء وقد ايقن
بالظفر : أنبلغ معاوية انك راض عن المصاهرة ؟

فاطلق عبدالله زفرة سالت بها عزمته وقال بصوت كسير وهي به امتناعه :
ابلغاه ما يشوقكما . عزيز علي ان اعود الى ارينب بضرة تلطم فيها شموخ

الحب والوفاء . ارينب ليست ترضى بمن تراحمها على عبدالله بن سلام !
فامضها هذا الميعان . أيتفق له ان يتزوج ابنة معاوية ويسخر بالحظ
الموافيء ؟ ... وغساده الى الخليفة ضاحكين من حمقه الدهاق . واغتبط
معاوية واستبشر وهو يبصرهما بين يديه على طلاقة . قال : اراكما على
اشراق ، فماذا تحملان من طريف ؟

وادرك من الاعين الجواب . نال ما اشتهى . ابن سلام وطن النفس
على مباعلة ابنة الخليفة . فقال ابو الدرداء وهو من بهجته في نشوة السعيد :
أينكفنا معاوية امرأ ولا نكون فيه في توفيق ثري ؟ .

فقال معاوية وابتمامته الماكرة تطغى على وجهه فطلق من حدقته
نظرات حادة ، واعية ، تبطن الصلب فيما تستر بطراوة الحمل : وهل اجابكما
الى المبعى ؟

فقصفا ضحكات ، صاحبة ، ندية ، تطاير منها الى معاوية رشاش حفيل .
وترنح ابو هريرة بقولة بقطر منها الزهو المصانع : أيتجامق حتى يركل عطية
السماء يا امير المؤمنين ؟

وقال ابو الدرداء باعجاب المفاخر بسمو القدرة وراجح القطنة : هز زناه
حتى لم نبق فيه على ارينب اثرأ من عطف يا امير المؤمنين . لقد سلاها وبات
لصفية ابنتك قلباً خافقاً وعيناً مشتاقة !

فقال معاوية وقد سره هذا النجاج الوشيك : احسنتما ايها الصاجبان
الوفيان . والله ان فيكما لدهاء اللبيب وحكمة البصير . معاوية لم يعتمد كما
عفواً . فان يقينه بسعة علمكما ونفاذ صوتكما حمله على انتدابكما للامرا الجسام .
هذه الاساير الحفية لا تزال تضيء بما انعكس عليها من وهج النبوة . الصلاة

والسلام على ابن آمنة الرشيد !

واجزل لها العطاء . وبهذا العطاء . خطب مودات القلوب . فزادها له
اجلالاً وبه اعجاباً . قال : ومتى يقبل عبدالله الينا خاطباً صفة ؟ .

فاجاب ابو الدرداء : عندما يشاء امير المؤمنين !

- ليقبل الينا غداً . خير البر عاجله . فما انتفضت في خاطري هذه
الامنية حتى شممت اليها على وثاب سبوح . عبدالله زهرة من يزدان بهم
قصري وتنضيء مملكتي . فمرحبا بالطلعة الصبحاء ترصع داري بلعائنا
السنني !

فعاد الشيخان الى ابن سلام يبلغانه ان الموعد ضرب غداً . امير المؤمنين
بالانتظار . فقال ابن سلام : نحن طوع مشيئة معاوية حامينا وهادينا . سأكون
صباح غد بين يديه !

ووقف من غده وقفه الحائر . وبله على اربنب وويله من معاوية . ولم
يكن يتشوق الى صفة يتزود منها السمات وينهل اللذائذ وقد ساوره فيها
حب المجد فكسف لظى الهيام . فذهبت به مطامعه الى احتلاب الضرع واقتعاد
ذروة السلطان وما صفة غير سلم للارتقاء . ولم يتم ليلته وقد بدت له طويلة
قلقة يغالبها بالنعاس فلا تتعقد له اجفان . وكلما انطوى حجاب من الليل
توهم عبدالله انه في بوقع الفجر . ولكن الالوان استوت في تلك الليلة المبصرة
الحلك . فالعسق والبكور تشابها . وما انت يتراءى لابن سلام من نافذة
حجرته انت المؤذن على وشك تحية الصباح حتى يفرق الليل في ضجعة
المكالم .

وكاد ينكر اذنيه فيما تحملان اليه صيحة : « لا إله الا الله ! » تتأبل بها

اعطاف دمشق خشوعاً وتحناناً . فهل تخدعه اذناه ؟ ... وسجد سجدة الصبح
يناجي بها الغفور الرحيم ، خالق الارض ومن عليها . وماج في عينيه قصر
الحضراء ينفذ عنه الغبش وينجلي عن مبسم ريان . فاستطاب سكنى هذه
الدار الرخيّة ، القريرة ، المشدودة الاطناب في منبسط مديد من الارض
والطامعة في مصالاة السماء !

معاوية في ابوانه يرصد وثبة الزمن . فما عانده هذا الناشز العاصي
ولن يعانده . فانه ليقبض منه على خطامه ويديره انى شاء . فالزمن عبده .
لقد اذله في انصب فلن يحرن في الهين اليسير .

واقامت صفية وراء ستار . قال معاوية : اصغي الينا في ما سوف
نتخاطب به . وعندما ادعوك اجيبي بما حرصت على تلقينك اياه ، فلا تردي
كلمة ولا تنقضي حرفاً ! .

وجلس بجانبها اخوها يزيد يشهد المأساة بقلب ضاق بالغبطة . ارنب
اضحت له وسيخلعها عنه عبدالله بن سلام كالعبء المضي . وانتصب بالباب سعد ،
حاجب معاوية ، يعلن بصوته الجهوري : عبدالله بن سلام يستأذن على امير المؤمنين !
فقال معاوية بابتسامته الخادعة : مرحباً بفتى قريش يا سعد . صدر المكان
له . فليدخل بامان !

فظهر عبدالله في اروع حلة يتأرجح فيه عطر الشباب وتخضبه الاناقة
الجليلة المبسم . وانحنى بين يدي معاوية وهو يقول برهبة المتقين : السلام
على امير المؤمنين خليفة الرسول العربي !

فانتشى ابن ابي سفيان بصولة النمر المتهداية اليه الغنيمة . ليس له
الا ان يضرها بمخالبه لتبيت في حلقه . قال : والسلام عليك يا ابن الميامين
ويا اخا يزيد ابني !

ونفض يستدرجه اليه . وما امسى بجانبه حتى جنح اليه يعانقه
قائلاً بشجو المشوق: كم هزني اليكم الحنين اتم ابناء عشيرتي . فاجاهد في ان
اجمعكم حورتي واخضعكم الى صدري . اني لافخر بمن طبع مثلك يا عبد الله على
فضل وحمية . فان ذوي المرؤات لقليل . اجلس هنا على مقربة مني . فمن
المسرة لعمك ان يساقتك الحديث !

وفسح له حتى كاد يكون لزيه . قال ابن ابي سفيان متناهيًا في الرقة : ماذا
ابقيت بعدك في العراق؟ ... امطمئن انت الى طاعة القوم لنا ورضاهم عن نهجنا؟
فراقه هذا الاستفسار الحميم من معاوية . فكأنه يلقيه على نداء كفو .
قال عبد الله : عاش امير المؤمنين دعامة هذه الدولة وهامتها . فالامر لا
يصلح الا به . ان القوم ليجدون فيه السيد الحازم والاب الحكيم . ولقد
لوت المكاييد من عنانها ، واطفأت الاحقاد من نيرانها . وان يكن هناك
موتور فليس يجد من يلتف عليه وينجده وقد ايقن الجميع ان الركن الاموي
أيدي منيع !

— اطربتني في مقالك يا عبد الله . انه ليشوق عمك ان ينعم برضا الامة
وما يكافح لسوى نصرتها . فوالله لن يغمض لي جفن الا وقد ضمنت الحق لطالبه
ومنعت الاذى عن البريء . فلست اطيق ان اتذوق اللقمة والعدل منكوب
بما يقلقه قيد شعرة !

فنظرت صفة الى اخيها يزيد نظرة الاعجاب بابيها وكأنها تقول: ما ادهاه!
وعض يزيد شفته لئلا يقهقه ضحكاً . فالحيلة محكمة النسيج . قال، عبد الله
ابن سلام : جهد امير المؤمنين في رفاة الرعية مرموق محسوس . فما للاسلام
بعد سادته الذاهين غير معاوية ينشر الويتة ويوطد جنباته !

فقال ابن ابي سفيان : ولكني لست في النضال وحدي يا عبدالله . انكم
حولي تعضدونني وتسعفونني في خطوي . هذه الدولة ليست صنع معاوية
وحده وله فيها شركاء مصابيح !

والقى يده الى كنف عبدالله وقال : أيجوز ان انكر فضل عبدالله بن
سلام في حميته وشيمه ؟ ... ان له على هذه الدولة لليد البيضاء بما ينفجها به من
الخدمة النصح والسعي الامين . جاءني عنك ما صفاه خاطري يا ابن اخي
وابهج كبدي . انت في هذه الدولة من اركانها التندباء !

فشاعت في عبدالله البهجة . ان ما يسمع لنديّ فتيق . معاوية يرفعه الى
الشامع الشاهق في دولة الامويين . قال وهو لا يكاد يتأسك : نحن في خدمة
امير المؤمنين وفي طاعته كيفما دار بنا الزمن . فاذا ما بدت منه الرغبة في
العمل الجاد الحازم فاننا لنقتفي خطواته في الصعيد القويم . ان معاوية
لنبراسنا وهادينا ، به نجلو الحلكة وتبين النهج السديد !

فقال ابن ابي سفيان وقد اطربه ان يرقد عبد الله بن سلام على امامت
وطبأينة : عبدالله ، لست اغالي في معالنتك انك بمقام ابنائي . وان تكن
تبغي الدليل على كونك من فلذات الاكباد فان في ما حمل اليك ابو الدرداء
وابو هريرة من نأ صادع للحجة القاطعة . اعجبني ما ترتع فيه من محامد
فاعترمت ان اعقد لك على صفة ابنتي !

فما كان من عبدالله الا ان هزته العبطة . صدق الشيخان المعتمات
المتهرسان . قال : هذه منة عليّ لامير المؤمنين لا اراني لها اهلاً . فان
مباغتني ابنته لترفعني الى حيث لا يحق لمثلي ان يرتقي . فالنور الوهاج بعمي
من لم يتعوّد مرآه يا امير المؤمنين !

فقال معاوية وقد تمثل ابنه يزيد في فرحة المتهاذبة اليه الامنية الضالة:
انت اهل للخلافة نفسها يا عبد الله . فلو لم تكن على قدر راجح من الكفاية
لتحامي معاوية مخاطبتك في لباب شؤونه وعميق دخائله. فما جعلني على هذه المصارحة
غير الثقة بكونك من الصفوة الغيارى على احدثنا ومكانتنا . فليس بالامر
الضئيل ان يفاوضك خليفة المسلمين بامر زفاف ابنته اليك وانت تعلم ان
العيون ترمق بناقي ، وان اكبر رجال الدولة يطعمون فيهن وانا امسك
بين يدي !

فانحنى عبد الله وغنم : هذا امراف في الجميل يا معاوية . واني لاحل
ابنتك مني المحل الارفع والاروع . فهي عقد المجد في جيدي ، وياقوتة العز
في صدري . اعجابني بامر المؤمنين واخلاصي له يدفعايني الى النزول على
مشيئته بطاعة واجلال !

فعاد معاوية يلقي يده الى كنف ابن سلام وهو يقول يبشر يطغى على اساريه
النابض فيها الحنن والرثاء : بارك الله فيك يا عدل يزيد وقورن صفية .
انه ليسر معاوية ان يلمس فيك صدق الاجابة وسرعة الامتثال للنداء .
وسأدعو ابنتي فتسمع منها رأيا فيك ، وانه للرأي العالي ان شاء الله !
وانفخ صدره وقايلت اعطافه . اطعم عبد الله بن سلام لعقة من غسل
فامتلك منه الجنان . وراقه فيه سلطان الدهاء . فانه ليجر اليه الجبل بايماة اذا
شاء . وصفق بيديه وهو يتأدي : صفية ، ابنتي صفية !

فاجاب من وراء الستار المضروب في جانب من الديوان صوت مرن
كالوتر الاغن قائلاً : ها انا يا امير المؤمنين !
قال بارتياح : انت يا ابنتي ؟ ... رضي الله عنك . ابن عمك عبد الله بن

سلام بحالسي . واني لحدته عما يزيناك من حشمة ووسامة فرغب في مباعلتك .
فما رأيك في ما بيدي صفيّنا الحميّ ؟

فرددت الامثولة وقد حفظتها واجادت تمثيل دورها : الرأي رأي
امير المؤمنين !

— ولكن امير المؤمنين يضيحه احراجك يا ابنتي ، فالكلمة كلمتك في
ابن عمك . وليس يخفى عليك ان عبد الله من مفاخرنا ومن قادة الفضل فينا .
فاذا عقد له عليك فقد ازداد التبل وهجاً واحللق الرضي سمواً . فماذا تقولين
في هذا الكريم النجد ؟

فاعلنت بصوت يحفل بالتأني : ان يكن امير المؤمنين يرى في ابن عمه
ذلك الحقيق بابنته فمن يعرض له في بال ان يعاند امير المؤمنين ؟

فتظاهرمعاوية بالمسرة . قال : اذا انت راضية عن استئثار عبدالله بك ؟
قالت : كيف لا ارضي وقد رضي امير المؤمنين ؟ ... غير اني
اعلم ان عبدالله يباعل ارينب بنت اسحاق ، والجمع بيني وبين ارينب بما لا
تشهي نفسي !

فارتجف عبدالله وكاد يشب من مقعده . فالتفت اليه معاوية وقال بلهجة
المستوضح الجادّ : أسمع يا عبدالله ؟ ... صفة لا تبخل عليك بنفسها ، غير
انها لا تطيق ان تصطمم بضرة . فهل لك ان تنصفها من ارينب يا ابن اخي ؟
فكاد عبدالله يحسنتق . ما هذه المهواة يحفرها تحت قدميه معاوية ؟ ...
وخاف وحاول الابتعاد كأنه يخشى السقوط في البؤرة . ولمس فيه معاوية
الفرزع والجزع فقال يخفف من اضطرابه : صفة لا تدفعك الى ما تهوت
فيه يا عبدالله . فهي تجنح الى المسألة . ولا مسألة وصفية وارينب في عنقك .

فعليك ان تمسك على واحدة مخافة ألا تعدل بين الاثنين . اما طرقت اذنيك الآية ، آية ربك مالك يوم الدين ؟... ان رغبتى في ان اعقد لك على ابنتى لا تفرض عليك الاستسلام على كره منك الى مطلبي . فانت حر في ان ترفض او ترضى . هذه صفة امامك وتلك اربنب في منزلك . فكمن لمن شئت منهما ولا خير عليك !

فزاد في احراجهم وقد اطلق له يده في الحيار . أئيل عن اربنب ؟... انها لطعنة في صميم الوفاء . أيشيح عن صفة ؟... انه ليدي حشاشة معاوية . وهو اذا ادماها فقد انقلب سعده الى ويل . ان معاوية لينتقم منه بما لا يبقى فيه على نفثة . ووضت حيرته . فهو أشلّ الارادة ، مهدود الرأي . وابى الخليفة الداهية الا ان يستغل هذا التردد المنتفضة به جوانح عبدالله بن سلام فقال بمكر حاطم : لا عليك يا عبدالله . ان تكن صفة تخرجك في قلبك فدعها . لست اريد لك الاذى يا ابن اخي . كن لاربنب ولا تحفل بآبنة عمك معاوية ... انها لتغالي في مطلب عزيز !

فامعن في اقلاقه . أيرفض وفي الرفض محوه ؟... أيقبل وفي القبول خسة ؟... وكاد يصيح : ما هذه الاحبولة المحكمة يا معاوية ؟ واستبطأ ابن ابى سفيان الجواب فقال في شبه همس : أبلغ صفة ان لا نصيب لها منك ؟... لا حرج عليك في الاعراض عنها . انت لاربنب وهي لديك اسمى قدراً !

فاعلن في حشرجة : صبراً ، صبراً ، دعنى في استشارة ضميري ! وعاد الى القول متمتعاً وقد هاله طلاق ابنة اسحاق : ألا يجوز الجمع بين الاثنين يا معاوية ؟.. انى لضنين باربنب . احببتها حتى وهبت لها النبهة والروح .

وخشيت وانت تدعوني اليك ان اسلوها فتشاءمت وبكت . ان الرحمة
لمفروضة في الحيين !

وزفر زفرة كآوية اطلق مثلها يزيد من وراء الستار المضروب . وتراوى
لمعاوية ان الفريسة تكاد تقلت منه فقال بعذوبته المأثورة : لسنا نميل الى
ايلامك يا ابن اخي . ان تكن ترى من الصعب هجران اربنّب فابق لها .
قد تكون ابنة معاوية لا تساوي ابنة اسحاق وانت تأبى ان تعدل
صفية باريب ؟

فاطرق . ان في ما يرشقه به معاوية لسخرآ خادشاً ، ولكنه هوى امرآته ،
تلك . وشهده الخليفة تعباً مكدوداً . فهو يتلوى بين حبه الممكين وشهوة
المجد . اربنّب قلبه ، الا ان صفية غده . وامسك يزيد بصدرة لثلاثي جوانحه
وقد ضاق بها الصبر . أيكفر عبدالله بن سلام بحبه لاريب ام يحرص عليه
وينبذ ما يعرض عليه معاوية ؟ ... وساد القلق الديوان ، حتى صفية تولتها
الوهلة . فان يصد عنها عبدالله فقد خذنها واخزاها ولاكت سمعتها الافواه
ورقب الثلاثة من عبد الله ان يتكلم . فان مصيرهم بين شفّيته . هو في
هذه الدقائق الحرجة ، الحافلة بالرعدة ، ارفع قدراً من معاوية وانفذ سلطاناً .
هو رب قصر الحضراء وسيد الدولة الاموية . ونظر اليه ابن ابي سفيان
بابتسامته الخالبة ، الا انها ابتسامته تبطن الحيرة ويرين عليها الوجل . فان يرفض
عبد الله يهدم مكانة معاوية في المسلمين ويحطم قلب يزيد ، وبثلّم مناعة صفية ،
بما جاهد في ان يتحاماها ابن هند براجح دهانه . قال : هلا تكلمت يا عبدالله ؟
فالتفت ابن سلام الى الستار المضروب وقال بحجرة : صفية ، صفية ،
ألا رفقاً باريب !

فاجابت بصوتها الاغن : ابنة معاوية لا ترتضي الضرائر يا عبدالله !

- حتى ولا ارينب !

- حتى ولا ارينب بنت اسحاق !

فكاد يصرعه ارتباكاه . فهو غادر اذا خلع عنه زوجته في سبيل الجاه .
وغاب في وجومه . فامسك بذراعه معاوية وهزه وهو يقول : عبد الله ،
ستكون شريك عمك في ملكه العريض . ستقبض على اعنة عدته الدولة من
اطراف بلاد الروم حتى اقصى بلاد فارس . كلمتك كلمتي ورايك رأيي .
معاوية ما اصطفاك لابنته ليبقيك عاملاً زريباً في العراق ، بل ليعدك لغد
ابهى وهو الموقن انك اهل للمعالي يا ابن اخي . لا ، لم اختر لك صفة جباراً لصفية ،
بل كي تدنو مني وتصبح من اهل بيتي . شريك في الاحكام يجب ان يكون
من اقرباء معاوية الاذنين ، من ابناؤه او من اصهاره . وهو ما دفعني الى
مخاطبتك في امر ابنتي . اني القي في كفك المجد والسيادة ، فقابل بين ما اسخو
به عليك وما ياتمع في ارينب من روتق ، واحكم بنفسك لنفسك . انك
لخير الحاكمين !

فاندلعت فورة المجد العريض والسلطان الطليق في نفس عبد الله وحجبت
بسناها لآلاء ارينب . فتلاشت ابنة اسحاق في عين عبد الله رويداً رويداً كأن
غمامة تلفها وتغيّبها في مطاويها . وامتدت باصرتنا ابن سلام الى ما ينشده له
معاوية من امل ، وما ينشره امامه من فتون ، وما تمالك ان قال : انك
لتعريني بدمي يا امير المؤمنين !

وانفجرت شفتاه عن بسمة بليلة . فضحك معاوية . حلت العقدة . قال
الحليفة بمجهود من يستعجل الاستهواء واستلال المطب : واخيراً يا عبدالله ،

على مَ اتفقنا يا ابن اخي ؟ ... افصح . عمك يشتهي ان يبني على نور !
فكان الجواب وجيزاً ، كومضة البرق في العتمة الفاحمة : رضيت يا امير
المؤمنين !

فنزلت كلماته على الثلاثة كالبلسم ، كالندى على الازهار العطاش .
وتنفست الصدور بهناء وارتياح . قال معاوية وهو يبغى النفاذ الى الاعماق :
أتطلق ارينب ؟

— هي طالق مني ثلاثاً يا ابا عبد الرحمن !

فجهم ابن هند وقد فاز ، وعيناه تجاولان الستار المضروب : هداك
من نعبد ومن نستعين . الا اوفد على عجل الى ابنة اسحاق من يبلغها انك
في حل منها ، وقد طلقتها ، وتعال الى صفة فاعقد لك عليها . انت منذ
الساعة ساعد امير المؤمنين الايد وسيفه الصقيل !

الجزء الثاني

خبيرة... فابترهاج!

١

— ابطاً سيدك يا رسيلة!

وتأوهت وهي تترجي قولتها . فان بها من ماض هذا الابطاء ما قعد بها عن شؤون نفسها . فجفاها الرقاد وفترت فيها شهوة المأكل والزينة . فلم تكن تجد الراحة وهي القلقة في جلوسها ووقفها ، لا تطمئن الى ليل ولا تطرب في صباح . فان ذلك الثاني عنها اخرجها في غببتها فأحست بانها تموج في دوار من الحمى . وادركت رسيلة الزنجية ما يلم بسيدتها فلم تتبعد عنها . هي ابدأ بجانب هذه الروعاء المتدقق فيها الحسن على لظى كأنه دائم الغليان . ورسيلة جارية يمنية سوداء كالمصيبة ، الا انها عطوف كالغمامة الوظفاء في القبط اللاذع . نشأت في هذا البيت على امانة مخلص و ما برحت تقيض بامانتها واخلاصها كالام الرؤوم . فتشعر بشعور سادتها في الفرحة والفرحة . تطرب كأن المسرة تغمرها اذا طربوا ، وتتألم كأن لهفتهم لهفتها في الجزع الغاشي . وهذا الصدق في المودة اقامها من السادة مفزع ثقة وموئل ركون .

فيفضى اليها بالدخائل كأنها معقل الاسرار .

وهال رسيلة القتوم الناشب في سيدتها فالت عليها تؤاسيا : سيعود
يا مولاتي ، فالرحلة بعيدة شاقة . ليست تدرك دمشق من العراق بوثة !
فقلت ربة الدار وقد بدت في اشراق الريحان مع نفورها من التجمل
وليس بها اليه في خلاجها هوى : كنت اوثر ان يصدف عن هذه الرحلة ، فلا
اراني فيها على سكون . ان قلبي ليحدثني بوقوع خطب جليل . والقلوب تصدق
في تحمينها يا رسيلة !

واطلقت كلماتها بنواح . فهي على هلع يذيب منها مسكة الصبر . قالت
الزنجية تحاول ان تمنع عن سيدتها انهيار الرجاء : لا خوف عليه يا مولاتي .

غادرنا في صولة الاسد وسيرجع الينا في بسمة الامير المنصور !

— انا اخشى عليه من ذلك يا رسيلة ، من ابن عمه خليفة دمشق . فهو
يمن لا يستنام اليهم في مروءة والعدو ديدنه . فيخلع القلوب من نوطها فيما
يعانق حاملها عناق الاب لبنيه . يعنف في عناقه حتى يحنق ويزهق . هذه
هي محبته لمن حوله ، محبة الطامع في الابداء والتنكيل !

فصاحت الزنجية : اينطوي لمولاي عبد الله على حقد ؟

فضربت سيدة المنزل ركبتيها بيديها وهي تقول في انتعاب يائس : هل
من يدري يا رسيلة ؟ ... هو في موقف يبعث على الحيرة . فليس في الناس
من يدرك امره . قد يكون صديقاً فينقلب الى عدو . وقد يكون عدواً
فيبدو في توب صديق . دعوة عبد الله الى دمشق تثير ظنوني !

فما استطاعت الزنجية الا ان تشاطر سيدتها لوعتها . ومن هي سيدتها ؟ ...
ارينب بنت اسحاق شاغلة معاوية ومالئة قلب يزيد . فلم تكن تهذا وعبد الله

في غيبة وقد نُفِث في خاطرها ان معاوية سيباعد بينها وبين ابن سلام فيرميها
بفاجعة يجول فيها مكره جولة الثعبان الارقط . وغامت ملامحها ولامح
جارتها بالاكداد اللهبان فوجتا في شجو كاسف . ذاك الصفو الطري الوجنة ،
السائد المنزل ، ينذر بالرحيل الوشيك

وجاهدت ارينب في امتلاك روعها ففتّ في ساعدها . انها لفي وهن
العاجز عن الاسترسال الى الطمانينة . واقامت ترقب عودة عبد الله يوماً فيوماً ،
بل ساعة فساعة . وكلما اقبل ركب من دمشق او فدت جارتها رسالة
للقوف على اخبار المهاجر النائي . فتعود اليها الزنجية مرتحية اليدين ، ساقطة
الهمة ، وتغص الاعين بالدموع كأن انقطاع اخبار عبد الله يعنى عبد الله
الى من تنتظر طلته بجرقه المشتاق

وفي ليلة طويلة البساط غفل عن ارينب الارق فنامت . اغفت والفجر
يتوائب . ودهمتها فور نومتها رؤيا هزتها في رقابها الصفيق . ابصرت بنفسها
تشي على جبل واذا الجبل ينقطع بها فتسقط الى الارض محطمة الاضلاع .
واستفاقت وهي في شبيق . هدتها الرؤيا . ونادت اليها على عجل رسالة الزنجية
قائلة لها : طيري الى حيث تقبل القوافل من دمشق واستوضحى امر عبد الله .
انا موقنة ان لنا منه اليوم خبراً !

وكان قد انقضى على رحيل عبد الله الشهران وبدأ الثالث . واسرعت
الجارية الى مضرب القوافل وعادت مثلها في كل استيضاح منحنية الظهر ،
مخلوعة الجناح . فالتفتت ارينب الى السماء مستشفعة ، متسائلة : الى متى يطول
يارب هذا العذاب ؟

ولكن الباب يُقرع . هذا فارس يقبل في متنفس الاشعة . من ؟ ...

عبد الله؟ ... واندفعت بنفسها الى الباب تفتحه . يا صباح الخير ! ... على ان
الباب ، وهو ينشق ، نضّ بالحياة . هذا ليس عبد الله بن سلام . انه لفارس
مجهول . واستطلعت اربنب : من الرجل ؟

لا ريب انه يحمل اليها خبراً عن عبد الله . ففي اساريره ما ينطق بما في صدره .
هو يحمل نبأ خطيراً يريد ان يلقي عنه اعباءه . فاعادت الاستفهام : من الرجل ؟
فتعته سناها ووقف منها على شدة . ما هذا الحسن الصاعق ؟ ... وكاد
يضيع عما جاء يعلن . فالصباحة المتألقة شغلته عن المهمة العجلى . وشعرت
أربنب بوقع جبارتها عليه فانقذته من خبله بقولها : ايها الرجل ، من انت ؟ ...
أتكون رسول عبد الله بن سلام الينا ؟

فتذكر وهي تلفظ في مسمعه اسم عبد الله وقال : عبد الله بن سلام ؟ ...
هو ما تقولين ، انا رسوله ، جئت ابلك عنه انك ... ولكن من انت
يا اخت الشمس ؟ ... اريد زوجة عبد الله !

فصاحت بشغف بالسماح ، وبالجاح في استلال الرسالة من فم المؤمن على
البلاغ : انا هي زوجته ، هات ما تحمل . كيف حال عبد الله ؟

فزادته احجماً عن الافضاء بما ترخر به حناياه . جاء يعالنها انها طالق ،
ولكن أيجوز طلاق مالكة هذه الوسامة المنزلة ؟ ... وراعها بطئه في البيان
فعلت منها صيحة اشد : ولكن تكلم ، ما بك لا تصارحني بما في صدرك ؟ ...
ماذا تحمل من عبد الله ، هل اصيب بمكروه ؟

فتعاطم بهاؤها في قلقها . وخشي الرسول الاحراج فاورجه ان يكون
دعي الى ابلاغ رسالة الطلاق . واطرق لا يبين . فهو في اشفاق على هذا
الحسن الموار بالفتنة ، بل اشفق على من خلع عنه هذا الاشرار اليتيم . كيف

قسا قلب عبدالله بن سلام ومال عن هذه القسامة المعطار؟... فما كان من
ارنب ، وقد احرقها سكوته، الا ان قبضت عليه تهزه وهي في رهبة خرجت
بها عن اعتدالها . وزعقت بارتجاف : ايها المبعن في ايلاننا ، هلا اوضحت لنا
ما يملكك الينا ؟

فاعلن والكلمات تفرّ من ذاكرته فلا يهتدي اليها لسانه : انا مقبل من
دمشق . ولقد كلفني ابن سلام ان امرّ بك لابلاغك تحيته . فهو بخير !
— وماذا بعد ؟... ماذا ؟

فما خفي عليهما ان الرسالة لا تزال بتراء . قال وهو لا يدري كيف
يؤدي النبأ : ثم ان اقامته في دمشق سوف تطول !
— تطول ؟... وما يدعو الى الاطالة ؟

قال والمضض يساوره ، والكلمات تتصاعد من حنجرتة كأنها اشواك :
وربما لن يعود !

فاعولت كمن نزلت به مصيبة : لن يعود ؟... ألا افصح . افصح . انك
تحمل اليّ ما هو انكد وادهى . هل اصيب عبدالله بشر فبات لا يقوى
على العودة الينا ؟

— لا . هو في عافية . غير انه يميل الى الهجران . فلن يرجع الى
دار تقيمين فيها !

فاذهلها عن نفسها . أيهذي ؟... ماذا يقول ؟... وجمجت مستهمة من
ثم تراخت اعصابه : لن يرجع الى دار اقيم فيها ؟
— لا . فهو يبلغك انك طالق منه !

ونطق بما دعي الى بيانه . عبدالله بن سلام يبغى الطلاق . فلم تصدق .

هذا خداع وزور. غير انها اختلجت بسوء الظن. قد تكون صرفته عنها دمشق.
واستندت اربنب الى الباب لثلا تقع . ونظرت الى الرسول بمحمد وخجل.
أبطلقها عبدالله؟

ودخل الرسول . فلم يجد من الصواب ان يفضي وهو بالباب بكل ما
عنده . وحدجته اربنب بناظريها وهي تود ان تشق صدره وتطلع دفعة واحدة
على كل ما يتوج في هذا الصدر من فوادح . وظهرت فوراً لعينها يد معاوية.
معاوية اكره عبدالله على الطلاق . بيد انها ما برحت ترتاب . من المحال ان
يكون عبدالله بن سلام طلقها منه وهو المستعربها هياماً . ومشت الى صدر
المنزل يلحق بها الرسول والزنجية رسيلة . ونطق رسول عبدالله بما استودع:
الطلاق ، الطلاق !

فما بكت اربنب ، غير انها اطرقت بوهلة كمن تفاجئه الصدمة فيسهو
بوقعها عن الشعور بألمها . وطال السكوت . هو سكوت اللوعة اثر الباردة
الحاطمة . ورأت ابنة اسحاق ان تتأسك حبال النبا اليقين فقالت بهدوء
عجيب بعد قلقها الفائر : أبلغ عبدالله اننا سمعنا فاطعنا . ليكون ما يشاء !
ونهضت لا يختلج فيها عرق بهول . وانتصب الرسول يستأذن في الانصراف
فما شيعته بنظرة بل دخلت حجرتها تنزوي فيها ولا تميز حتى لرسيلة ان تجالسها .
وذكرت مخاوفها . كانت على حق في منع عبدالله من اجابة دعوة معاوية . قالت
له : « انه ليتلاعب بك كما يتلاعب بالخنزيرة القابضة عليها يمينه وانت لاتدري .
فيرفعك ويحطك ، ويتجاوزك ذات اليمين وذات اليسار ، وانت تحسب نفسك
لا تزال حيث انت ! » . وما توقعت وقع . نجحت الخدعة . ولكن ... في
سبيل من طلقها عبدالله ، ولماذا طلقها ؟ ... أهذا هو الحب في شرع المغرمين ؟

واعترفت الصبر على المحنة . الا ان ما ودت النفاذ الى لبه هو الباعث
على القطيعة . فما ذنبها وما عذر عبدالله ؟ ... بم اغراه معاوية واستلبه ؟ ...
واقرت بعجزها عن مناهضة معاوية . فهي دونه دها . وسلطاناً . دولة
السياسة الماكرة امضى شفرة من دولة الحسن . ولما برحت حجرتها كانت
المساء يدق اتاده . فهرعت اليها رسيلة بذعر في اساريها تقول بنواح : مولاتي ،
مولاتي !

فاشارت اليها ان اسكني . وجالت في حديقة المنزل ، لا لتأنس بظل
الشجر ، ولا لتشم الزهر ، بل لتغيب في الفضاء الطلق في تفكير غضيب .
وما برحت تسائل نفسها : بم اغرى معاوية عبدالله فاقنعه بالطلاق ؟ ... هل
اختر له من هي أروع حسناً ، هل اسند اليه احد المناصب الرفيعة في الدولة ؟
وخشيت ان يكون حدثه عنها بما يسيء الى السمعة والكرامة . وليس
يحجم معاوية في سبيل هدفه عن التهشم والتحطيم . والابم اقنع عبدالله وفصله
عنها ، وما هدفه من التفريق بين زوجين صفيين ؟

واحتقرت الحياة . وبدت لها الدنيا هزيلة بشعة فازدرتها . غير انها لم
تقوَ على نبذ عبدالله . فهي لا تبرح على دين هذا الهاجر المتلاف . انها لتهاو
حتى في التجني . وانحدرت من عينها دمعة في متوهج الجمر ، ساخنة ، محرقة .
ومشت في الحديقة والليل قد لفّ بكفنه الاسود تلك الارعاء فحجب فيها
الاخيلة والاشباح . فلم تكن العين لتبين أثراً كأنها فحمة منطفئة . على ان
ارنب سمعت وقع خطوات في العتمة المنشورة . فارتعشت وصاحت
بحشية : من ؟

فعلا الجواب يبعث على الظلمة نينة : انا يا سيدتي ، عبدتك رسيلة !

فجئت عنها الرعدة وتراعى لها ان رسيلة وحدها بقيت لها من دنياها .
فالجميع غدروا بها ما عدا هذه الزنجية السوداء . قالت : وما حملك على اللحاق
بي في الظلمة ؟ ... اذهبي ونامي . دعي السهر للمتعبين المبهجورين !
فادمت قلبها كلمات سيدتها . قالت : وهل هجر عبد الله بن سلام ؟
- هجر يا رسيلة . هجر بلا لفتة وداع . آه من ذلك الحب الصائر
في انتفاضة الى رماد . كنت احسب عبدالله ابعده اخلاصاً !
ولكنها على نفورها منه لم تكن تدري كيف تلومه . فان له عنراً . وهو
عذر تريد ان تقف على مطاويه . ماذا هجر عبد الله ؟ ... وبرى شفتيها
السؤال لفرط تردده دون ان تقع فيه على جواب . ودهمت ازمة نواح فارتمت
بين يدي الزنجية نغمم : عبد الله اذاقني الويل يا رسيلة . رحلته الى دمشق
ضربة فأس محكمة في جذع هنائي . دعوته الى الامساك عن الاجابة فضحك
مني . معاوية هو المادام ، فلا صفت له ايام ولا طال له بقاء . ان دولة تقوم على
الكفر لتنتهار في ايامه . ربي ، انتقم لي من ممزق الاكباد !

معاوية ويزيد وصفية ، مثلث الدهاء العاتي ، على بهجة مترامية . فما
اشتهوه اقبل طافح المكيال ، واعد الجنى . عبد الله بن سلام خلع عنه اربنب
واعتقها . فهي حرة . ولم يبق ليزيد بن معاوية الا ان يربط شفثيه بذوب
السحر وينقع الغلة . اربنب اضحت سهلة الارتشاف
وقهقه معاوية ضاحكاً ، وضحكته ذات صخب وهدير . وقال وهو لا
يكاد يتالك وقد ماع في البهجة : اصطدناه اعمى النهية والقلب . وسنضحك
منه طويلاً ونعمن في تحميمه . اوفد اليوم الى اربنب من يبلغها انها طالت منه .
لك البشرى يا يزيد . فما ان يرجع رسوله قاطعاً حتى نوفد اليها رسولنا خاطباً ،
فسرّ بعد اكتئاب . ينفض منها عبد الله يده فيلتقاها يزيد بجرص . وستحقد
على عبد الله حقدآ يودي به . فلا تطيق ان تراه ولا ان تسمع به . وهو
اقصى المنى . فاغتبط يا رجاء ابيك !

وضمه اليه راضياً عن نفسه . افلح دهاؤه العريض حيث لا تنجح حيلة .
فلن يرقد ابنه على حسرة . ان غبطة يزيد لتعادل سرير الخلافة . وانتشى يزيد حتى
كاد لا يثبت على حالة . بسمت له النعمة . فما ولاية العهد لديه بارجع قدراً
من اربنب . هذه منتهى الامل ومبتغى الضمير !
واقام بعد الايام والليالي في صمود الرسول الى اربنب وعودته الى دمشق .
ان العراق لقطر بعيد الشقة ودّ يزيد ان يكون اقرب امدأ . واندفع الى

الخمرة يذيب فيها اوقات الانتظار . والانتظار ممض طويل يعاني فيه المرثي الضيق والغصة . على ان النفس راضية . فلن تفلت اربنب من القبضة المحكمة والتفت معاوية الى ابنته صفية يقول : وانت عليك بالمضي في اجادة تمثيل الدور يا ابنتي . احسنت في البدء و عليك ان تجيدي في الختام . وانك لتعرفين الامثلة فاتقنيها . عبد الله بن سلام يجب ان يتدحرج من شرك الى شرك حتى يمحي !

فجاولت شفتيها الابتسامة . هي في دهاء ايها فلا يخف معاوية . قالت :
ليكن ابي على اعتباط . صفية ابنته !

وتعال الضحكات . فالثلاثة في متعة . وما يروح عبد الله بن سلام ذلك الضيف المفدى . فالاكرام يؤدى له بسخاء واسراف . فابى معاوية الا ان يطوقه بالاجلال . هذا رب قصر الخضراء وسيد دمشق ، حفيد الميامين وابن المساعير . وفرض ابن هند على جلسائه مجاملة عبد الله ومصانعته . ان كلمته للكلمة العليا في الدولة . فهو صهر الخليفة

وتعجب اصفياء معاوية من هذه الخفاوة البليغة بعبد الله . ولمس ذوو الرأي فيها مداورة وروغاناً . ايزف معاوية ابنته الى ابن سلام ؟ ... انه ليسخر به . ولكن الحيلة خفيت بهذا الطلاق . فلو لم يكن عبد الله ذا حظ في ابنة معاوية لبات بغنى عن سلخ اربنب منه . فليس مضطراً الى المهجران لولا وعد معاوية القاطع بصفية . وحيال هذا التعليل وقفت الاسن عن التجريح والتقويل . وقليل من درى ان الحافز الى الطلاق حب يزيد لاربنب . وعبد الله آمن بصدق معاوية . ليس ما يدعو الى الخداع . فما ثمة خلافة يفرض اغتصابها النفاق . ان هناك الا ابنة اختار لها ابوها زوجاً . غير ان

عبد الله كلما خلا بنفسه خاف من نفسه . فاي اساءة اليه بدرت من اربنب ،
ومن في النساء كارينب ، أبيعها بالجاه والسultan ؟

ويبدو له طيفها في الليل فيؤرقه . فينهض من سريره جاحظ العينين ،
مرتعش اللب . ويحاول الفرار من حجرتة . ان هذا الطيف ليندد به . ويتفق
له ان يغادر الحجرة مغلوباً على امره ، مضطرباً ، مهدود الحيل . فان اربنب
لتنصب امامه بغيظ ونقمة وتصيح به : يا غادر ، أتقع في فخ معاوية ؟ ...
حذرتك منه فما احترزت . انت حقيز تطمع في المعالي ، لا عرفت الشبع ،
ولاجل المعالي ضحيت بحب لو نزل على ميت لعاش !

وآله الغدر ، ولكنه اتاه . وهاضت الحيانة عظمه ، غير انه اقدم عليها .
فما تحامى ولا ارتدع . واقام يرصد رسوله . ماذا كان من اربنب وقد ابلغها
الرسول انها طالق ؟ ... ومثلها عبدالله في لهفتها وجزعها ، بل تمثلها تشمه
وتبينه . ولم يكن عزائه الاوحد في سوى كونه سيوتقي في سلام الدولة
الى حيث يعز على من يطوله . فيشب من السفح الى القمة معانداً الظفرة . وفي
هذا التسامي سعد كميل لن يتوافر بجانب اربنب . ومن يدري ، فقد يركب
مقعد الخلافة ، فما يزيد بمن يصلح للمنصب الاثير !

ومهادى على بسطة من الآمال . وشابه يزيد في عد الايام المنقضية على
الرسول . كم طوى من الزمن وكم سوف يطوي . وشاء ان يتناسى اربنب .
فالمجد يحجبها عنه . واحس بعطش الى المجد لم يكن فيه . فمن العظمة والشموخ
ان يقبض بيمينه على الارواح فيديرها على ما يستطيب . فان ما تعب
معاوية السنوات الطوال في تشيده سينتقل اليه في عقد قران ، في مباحلة .
سيكون له مهراً ، وما اغلى هذا المهر . سيأخذ ارفع ما عند معاوية في مقابل

ماذا ؟ ... في مقابل لا شيء . بل في مقابل طلاق . فما أرخص الثمن !
واطل الرسول . اطل وفي ملاحمه موجات اضغان . انه ليلقي على
عبدالله نظرات عابسة تنفث الامتهان . فالحن المختلجة به في العراق عيناه ،
الممتلئة به اجفانه ، المطبق عليه الاهداب لثلا يتوارى فلا يتمثله كلما خطر له
ان يتذكر الروعة والصباحة ، مال به الى ازدراء المنجوى . على الاشاحة عن
ذلك البهاء النبي وهو يكاد يعدل دنياه . قال ابن سلام وقد تغافل عن
نظرات الرسول الاليمة ، الحسافة بالتعريض والاحتقار : ماذا فعلت
في الكوفة ، هل احسنت اداء الرسالة ؟

فاجاب بصلابة تجنح الى الحشونة : تم الامر كما يشتهي سيدي . ابلغت
ارينب مشيتك فيها . انت منها بعد اليوم براء !

فاستوضح بوجل : وماذا قالت وانت تطلعها على رغبتى ، ماذا بدرمنها ؟
فطاب للرسول ان يدمي حشاشه هذا الساخر بالروعة المليئة ، المستخف
بجسارة يتضائل حيالها التاج والصولجان ، قال وعيناه القاسيتان تحدشان عيني
ابن سلام القلقتين : كل ما قالت انها تدعوك الى العمل بما تشتهي !

— أما اضطربت ؟ ... اما اذابت دمة ؟

— وقفت موقف السامح . فما انتفض فيها عرق بدهش كأنها تتوقع
المفاجأة . خافت في البدء عليك وقد خيل اليها ان شرأ دهمك ، فكادت
تجن . اما ولباب المهمة تكشف لها فجمدت كأن الامر لا يعينها . افعل
ما يطيب لك !

وانجلي بيان الرسول عن الاستهانة بعبدائه . ليس لمن يملك ذرة من
الرشد ان يشيح عن ذلك الحسن المصفى . ولهجة الرسول ، وموقف ارينب

من النبأ ، لطمأ عبدالله في انفته فاذلاًها . اربنب لم تكثرت لطلاقها منه .
جزعت وهي تحسبه في اذى ، اما وقد علمت ما يدفع الرسول اليها فتولتها
الاستهانة . هو الحاسر في هذا الطلاق لا هي ولن تعدم امثال ابن سلام
فترف اليه ، ولكن هل لابن سلام ان يظفر بمن تظاهرها في مغرورق الحسن
ومستفيض الانوثة ؟

واكد عبدالله وانحنت كتفاه . شعر بغدره . كان يعتقد ان اربنب
ستعول وتضح ، فاذا وقع النبأ عليها جليداً على جليداً . ربما تألمت لانقصاف زهرة اكثر
منها لهذا المجران السخيف . وخجل عبدالله من الرسول فصرفه عنه مكتفياً
انتهى اليه منه . فما تجراً على الاحاح في الاستقصاء لئلا تتساقط السهام
على السهام ، حسب ان الطلاق تم وانه نجما من عبئه بسلام .

على ان الغضاضة دهمته . فحبا الى معاوية اعرج المشية ، كسف الجبين .
فالنطق يكاد يغور في شديقه وقد ارتخى فكاه . ما باله يعصي قلبه ؟ ... أيمحو
عمرأ راجعاً من الحب والاخلاص بمنصب غير مضمون ؟ ... باع لذة
ايامه بلذة لا تبرح مترجحة ، مشكوكاً فيها . وخذلته ركبته وهو يدنو
من قصر الخضراء ، كمن يقبل على المعركة اعزل . وتضايقت في صدره
انفاسه ، ونهكه التفكير المضي . ألا يحقره معاوية وقد رآه يزهد في اربنب ،
سيده الحسن الاعم ، لرفعة ربما كانت موقوتة ؟

وخشي نظرات ابن هند ، ابن هند الحاطم الهادم ، المجهول اللوث ،
المبهم المطلب . فقد يساوم على شعرة وهو يريد الرأس ، قد يتحدث عن
الماء وهو يبغى النار . فليس حتى لمن يعرفه ان يدرك دخلته . واستأذن
عبدالله على ابن هند هذا بلبلجة تسودها الحيرة . ومثل بين يدي الخليفة

بإتسامة طعيبة مغتصبة . شاء اعلان انبياً وخاف . على ان بشائته معاوية
حبته همه الافصاح فقال : زاد الله ايام امير المؤمنين وضاعة واخضلالاً . عاد
الى رسول اربنب بالنبا السار . فلم يبق بيني وبين ابنة اسحاق نضاضة من
مسألة . فهي في ضفة وانا في ضفة لا يجمعنا دثار !

فانتشى معاوية وانتفش في سريره وقد تراءى له انه جبل شامخ يملأ الدنيا .
قال والفرحة تهزه من القمة حتى السفع : هل انتهى ما بينكما يا عبد الله ؟
- انتهى يا امير المؤمنين !

- ان الحظ ليواكبك يا ابن اخي ، فاهناً بما كتب لك دهرك من نعيم .
هذا انت وهذه صفة . اريد ان تنتهيا الى اتفاق !

على ان قصر الحضراء درى بعودة الرسول ووقف على النبأ قبل ابن
سلام . فما الرسول الا من رجال يزيد . ولقد عرج على ابن معاوية يحذثه بما
كان من اربنب ثم مال على ابن سلام بقص عليه كيف ادى الرسالة وماذا
لقي من المطلقة المجهورة . وماج قصر الحضراء بالعبطة . افلنت يد اربنب
لتمسكها يد . قال معاوية وضحكة الحثت تتطايير من مرشفيه على اجنحة
طلاق : البشرى لنا جميعاً . نلنا الارب . احمد الله يا يزيد وقد وهب لاييك
القدرة على انالك منك . ضربنا ضربتنا الاولى فعلينا بضربة الاجهاز . كوني
على قدر المهمة يا صفة . ان في مقولك للكلمة القاضية . اعتقد انك ملكت
من اييك سر التلاعب بالالفاظ !

وانتظر معاوية ان يأتي اليه عبد الله . فلا بد من طلته للافضاء بما صارحه
به الرسول العائد من العراق . وها هو بين يدي الخليفة لعقد الصفقة .
فالمساومة وقعت ولم يبق غير العقد . ونادى معاوية ابنته صفة لتبوم ما

عاهدت عليه . فارتفع من وراء الستار المضروب ابداً في زاوية الايوان
صوت صافي النعمة ، جازم النبوة ، يقول : ها انا في حضرة امير المؤمنين !
قال معاوية : بجاني ابن عمك عبد الله بن سلام يا صفيه . ولقد جاء ينبئك
انه حقق المطلب . فالطلاق وقع بينه وبين ارينب بنت اسحاق . فلم يبق
من صلة تشد بعضها الى بعض . وهو ما ابتغيت يا ابنتي . فمتى يروقك ان
يعقد عليك لعبد الله ؟

فاجابت وهي تنظاهر بالارتباك : هل لامير المؤمنين ان يعفني من
وعدي ، وهل اجد عند عبدالله عن نكولي سماحاً ، فلا يجفوني لديه العذر ؟
فاعترى الانقلاب اسارى ايها . واستدارت عيناه ووجهظنا كأنها روّعتنا
بالفاضح المخوف . قال بما يشبه العواء : اعفيك من وعدك ؟ ... أغيبه
انت ؟ ... أتجهلين ما بدر منك في عبد الله من عهد قاطع ، ام يطيب لك
ان امسي هزأة في المسلمين ؟

وتضعع عبدالله بن سلام ووهت عزيمته . ماهذه النكبات المتأبئة عليه ؟ ...
وتلظى جيئه بالحمى الناهشة ، وجفت حنجرتة كأنها صخرة صلباء . قالت
صفية بصوتها الحازم : وعدت ثم ايقنت اني لست قادرة على الانجاز . قد
يكون عبد الله ممن يعز عليّ الظفر بهم ، الا اني لا اريد ان اسقيه . فلا مودة
بيننا ولا ملاطفة تجمعنا . فاني منه وساظل في موقف الغريبة من الغريب !
فبظن معاوية الى ابن سلام كأنه يقول له : « أسمع ؟ ... » . ونظر
ابن سلام الى معاوية كمن يقول : « أتروقك هذه الخدعة ؟ ... دفعتني الى
الهلكة وابيت علي النجاة ! ... » . قال معاوية يخاطب ابنته : صفية ، انا ابوك
ولي عليك حق الطاعة . لست ارضى هذا التعرير بابن اخي . وعدناه فلننجز :

انت له بحكم ما عاهدت عليه !

فما رهبت اباه . قالت بعزم لا يلاين ولا يهون : لا احسب ابي يريد
لعبد الله بن سلام الشقاء في المعاشرة . فان اقامتي بجانبه تظلمه كما تظلمني .
فلا انا استطيعها ولا هو يطمن اليها . ان عبد الله لمن اجنحة امير المؤمنين ،
ولا يشوقني ان يبدو جناح امير المؤمنين منتوف الريش !

— منتوف الريش يا صفية ؟ ... ما هذا البيان المقيت ؟

— زواجه بي نذير بالمض والحياة ، فلن يشعر بسوى العذاب والالم .

صنه من الاوجاع يا امير المؤمنين !

— ووعدنا له يا ابنتي ؟ ... ألا تعلمين اني دعوته بنفسي الى مباعلتك ،

وانك ابدتني في الطلبة ودفعته الى طلاق اربب وانت لا تطيقين حياة

الضرائر ؟ ... اين ما اعلنت بما تعلنين ؟

فقلت بثبات وعناد : لا يحملني ابي على ما اكره . ليس لعبد الله مني

مكان لهوى . هو ابن عمي ، واني لانه من نفسي منزلة النسيب لا منزلة

الزوج . ولا بأس ان اسأل عبدالله ، هل يطيب له ان نقيم على خذلان

فلا نتصافى ولا نتفاهم ؟

ونكلم عبدالله . يجب ان يتكلم . قال وهو يحس بانه يغيب في لجج

الحزبة الى حيث لا يهدأ على قرار : ولكن ما يدريك اننا لن نتصافى ولن

نتفاهم يا صفية ؟ ... انحكمين عليّ وانت تجهلينني ؟ ... اراك ممسكة على رأي

عقيم . اني لاملك طبعاً لا يبيع لك الشكوى . ستكونين عندي مثلك في

قصر الحضراء ، عزيزة سيدة . ليس لمشيئتك مرد ولا لمكانتك نهاية . انت

هنا اميرة ، وستكونين في داري اميرة عليّ . رأيت مني الاستئمامة

اليك في رغائبك جميعاً وسترين اني لك على استسلام مديد . وما يرهيبك
مني ؟... نحن من نبعة واحدة ، وكلانا في الرّيق الغضّ من متعة الشباب .
وما يحطني عنك ؟... اذا وهب لك معاوية السيادة والشموخ فلن يبذل بها
عليّ وانا صهره وساعده والضارب بسيفه . اشفقي عليّ من الشهانة يا ابنة
امير المؤمنين !

وكادت تنساب دموعه . اي غضاضة ستلمّ به واي حقارة ستغشى صيته .
طلق اربنب في ابتغاء ابنة معاوية فاذا ابنة معاوية تركه كأنه حصة تعرضها في
الطريق وتحشى ان تعثر بها . ولكن صفة لم تقو على الالتواء عما تعلن . ابوها
لقنها الامثلة فحفظتها وعليها ان ترددها بامانة . والويل لها اذا اهملت كلمة او
اخذت بحرف . الرفض ، ابدأ الرفض . ليس عبد الله بن يصلح لبنات الخليفة .
قالت : يمز في قلبي يا ابن عمي ان اسمي اليك . ابني اطلق يدي في امري واني
لاملك حق الاصطفاء . وما احجبت عنك كرهاً لك ، بل خشية ان لا تنفق .
قلبي لا يميل الى زواج اراني فيه مظلومة . لقد فرضت على نفسي ان اهواك ،
ان اتمثل لذة العيش بجانبك ، فاذا بي اغالب هواي ولا اوفق فيك لهوى .
فغفوك عني وقد آلمتك واقلقت منك هناة الضمير !

فقال بيؤس ومسكنة : صفة ، لبتك شعرت . بان التصافي محال قبل
طلاقي اربنب . طلبت اليك ان تقيا معاً في عصمتي فايبت مشددة في ان
تكوفي وحدك . صارحتني بانك لا تحتملين جو الضرائر فاسرعت الى اجابة
رغبتك وصرفت اربنب عني . وارينب هي روعي يا صفة . فشعرت وانا
اخلعها عني باني اخلع قلبي . ولكنني صبوت الى التضحية لاجلك ولاجل معاوية اييك .
معاوية دعاني الى الاقتران بك . اما انا فوائه ما خطرت لي ببال . والآن ،

الساعة ، اشفقي فيّ على الكرامة ، لا تعرضيني لسخرية قومي ولشهادة الناس
بي . لا بأس ان اكون لك لبعض الزمن ثم ليكن بيننا طلاق . ارحمني بقيا
الانفة في عبد الله بن سلام يا ابنة خليفة المسلمين !

قالت : انت من ذوي الفضل الراسخ الدعامة يا ابن عمي ، فلا خوف ان
تمس فيك الكرامة المنبوعة . فلن يعاب عليك حث ابنة معاوية ونكثها ، بل يعابان
عليها . لن يقال صفة بنت معاوية بن ابي سفيان صدت عنه ، بل يقال
نكلت عن العهد . وفي القولة اساءة اليّ لا اليك . انت قمت بما فرض عليك
الاباء وخرجت من المعركة عطر السمعة ، وما اللوم الا عليّ وحدي ، فلا
يشاركني فيه احد من الناس . وعذري اني رأيت بيني وبينك في اعماق
خبري هوة لا سبيل فيها الى تماسك واحكام !

فانطلقت من شفّتيه ضحكة مرّة ، الا انها اشبه بالأنفة . قال : ما خرجت
من المعركة الا محطماً يا صفة ، مغبوناً ، صفر الدين . فلا انت ولا اربنب .
وانها لاستقى حال . خسرت من اهوى لارضائك ، فاذا انت تتلاعبين بي
كأني دمية في اصابع وليد . ألا اذكري ربك واتقيه . انت السخرية بنا
ليست من شأنكم وفي حوزتكم الخلافة ، وانتم عماد الاسلام !

وانقلب من التذلل الى الوعيد . فقال معاوية : خفف عنك يا ابن أخي .
كان عليك ان تتأني . فما حملك على العجلة في طلاق اربنب ؟ ... عهدي بك
من ذوي الرأي والتدبير ، فإني اضعت حجابك ، حرسك الله ؟

فانفجر . أيدعوه معاوية الى التأني بعد ذلك الاحاح عليه في الطلاق ؟ ...
قال بجنق : معاوية ، ان خدعتك لنانة العين ، فلا تحاول اخفائها . أتعرض
علي مبالغة ابنتك حتى اذا ما اجبتك الى بغيتك وطلبتها امعنت في لومي

وايلامي ؟ ... هذا ختل بودي ان اصونك منه ، ولكنه ملهوس الاديم
يا ابن هند . ان السليم الطوية ليضع فيكم . كان عليّ ان اماكر واكايد
لجاراتكم في ما ينتفض فيكم من نؤم . على اني وقد مشيت مكشوف
الجبين غدرتم بي واذللتوني . وهي نهاية من يثق بكم من ذوي الحظ العاثر .
ولكن في السماء رباً يدين واليه ألقاً في النار الغليظ !

ونض يريد الانصراف . يكفيه ما لقي . فقال معاوية يسك به عن
الرحيل : الى اين ؟ ... لم يضمحل الرجاء . اجلس . صفة ، ما بك تخاشين
ابن عمك ؟ ... أهذه وصيتي لك ؟ ... عبدالله اقرب الناس اليها يا ابنتي ، فلا
توجعيه . برّدي سعي انفاسه بعدوبة مقالك . ان عبدالله لمن هؤلاء الكرام
القليل !

فارتاعت من دهاء ايها . ان معاوية لكفور . هي تلقي ما دعاها الى
التفوه به . انه لينطق بلسانها وهذه مشيئته . اما هي ، صفة ، فربما كان
لها في عبدالله غير هذا الرأي . قالت واكلها اضطرار الى مشايعة ايها في
ميوله : ليس يجبل ابني انه جعل لي من نفسي شوري . فان لي مطلق اليد
في اصطفا من يميم به جناني . لو كنت من عبدالله في خلجة الوجد لأترته
على الجميع . ولكنني قاصرة عن تسخير قلبي . وعلى عبدالله ان يقابل هذه
الصراحة مني بالرضا والشكر !

فصاح ابن سلام وهو ينتفض ألماً : كل ما بدر منك يقل فيه الشكر
يا صفة . انت ابنة ابيك . غير اني لا ادري ما اهاب بكم الى الازراء بي
فصدمتوني هذه الصدمة واقمتوني في الناس اضحوكة . سوف ادري . فالدعاء
المنشور اللواء فيكم لا بد ان تتجلي اخاديعه . بيننا الغدا يا ابن اني سفيان !

فأبى عليه معاوية مغادرة الايوان . قال : هذا مكانك ، فالى اين ؟ ...
اذا تدللت اليوم صفية فقد تهوي غداً عن تشاخي . إبقى بيننا . ثم ان صفية
ليست معاوية . فان تكن لا تستشعر فيك الكلف فان اباهها لكلف بك .
هذه دنياك ، فتبسطن فيها على رعد وأنس . فان في صدورنا قلوباً تنطوي لك
على اجلال ومودة !

ولكنه لم يشأ ان يبقى . فلم يكن يملك القدرة على البقاء . وايقن ان
تمة خدعة محكمة ، غير انه عجز عن النفاذ منها الى الصميم . فماذا يخفي معاوية
وراء مداورته ، ما هدفه بالتغريب باصدق الناس واخلصهم له ؟ ... ووثب
عبدالله من الايوان بوجه قائم ، ورجلين تلتويان . ولم يكن يبصر طريقه .
فهو ضائع الادراك . كيفما امتدت قدمه خيل اليه انه يشرف على هوة .
وتنفس بجهد . واصطكت اسنانه بعضها ببعض واطبقت كأنها فوهة كلابية
ضاغطة . ولم يلجأ الى المنزل المحبوس عليه في دمشق بل تاه على ضفاف بردى
حزيناً حائراً . أيكون نصيبه من معاوية هذا العسف ؟ ... يحقق له مبتغاه
فيجبهه بالامتحان ؟

دعاه الى مباعلة صفية فلم يمانع . اراده على طلاق ارينب فاجاب . وان
في طلاق ارينب لتحطيم قلب ، وقص جناح ، ولكن كرامة امير المؤمنين
فوق كل كرامة . فالتفاني في خدمته يحجب كل هوى ملصاح . على ان
امير المؤمنين ، طال بقاؤه ، هزأ بكل تضحية ، وبكل وفاء . فما حفل
بالطاعة العمياء ، ولا بالجهد المبذول ، فكان لا قدر لديه للامانة والمروءة
والاكرام .

وتذكر عبدالله مواقف معاوية كافة فاذا به حيال طاغية ما كثر . يتلبس

بشوب الحمل وهو الذئب الحرون الشهوة، المسنون الناب . فيقضم كل ما يطول ولا يبالي النعمة ، ولا اللعنة . يراوغ ويلسع . يبدو في برودة الاختيار ليستحل المصونات . انتضى في مسجد دمشق قميص عثمان باكياً مستبكياً ليقتضي ابن ابي طالب عن مسند الخلافة . فما استفز المسلمين الى الانتقام لعثمان ، بل الى انقاذه هو معاوية من عدل علي . فان استباحته اموال المسلمين رمته بسخط ابن ابي طالب ، فاعتزم ابو الحسن عزله ، فما كان منه الا ان استعدى علي علي انصار ابن عفان للبقاء في منصب ولاية دمشق . وجاءه ابن العاص يزين له الخلافة فادعاها وليس من حق له فيها . وهل لمن ينكر على الخليفة دعواه الحق ، وبغضب منه مقام الخلافة ، ان يقيم وزناً لطلاق رجل من امرأته ، ولو عد لم يقتون بالانجاز ؟

وسأل عبدالله نفسه : أبقى في الشام ام يعود الى العراق ؟... ولكن كيف يلقي اربنب اذا عاد الى العراق ؟... وبم يعتذر اليها ؟... أيجرؤ على مخاطبتها اذا جازف ومثل امامها ؟... أيقوى على رفع عينيه الى عينها وهو في حضرتها ؟... انه لوقح ان يفعل . لا . سيقى في ديار الشام ، على مقربة من معاوية . فيشم الغادر ، ويدعو عليه ، ويعيره مكره . فليس في ما اقدم عليه ما يكتب له المحمدة . ان هذا الاحتيال في فصل الزوج عن الزوجة لشبيه الشبه كله باستلال الخلافة من علي . هنا حيلة منكورة ، وهناك حيلة منكورة . هنا غدر ، وهناك غدر !

وسأل ابن سلام روح تلك الغارقة في العراق في اساهها الصفع والغفران . كان غرّاً جاهلاً وهو يدعى الى طلاقها ويحجب . شوّه صفحة الحب الاوفي ولم يبال . نسي العهد الطهور كأنه من عهده في مزاح . فتناسى الالفه

المطبوعة والهيام الصراح ليلتف بعباءة مهلهلة الخيوط تراءت له في المنام .
قال ووجهه الى بلاد الرافدين : اربنب ، اربنب ، علتي ابن عمي بالمئي
الكواذب فخدعني عنك . فالرحمة لمن ليس خليقاً بالعفو . أتجيبين الرحمة
عمن يقرّ بأنه من الانكاد ؟

وومض عذاراه بدمعه . فهو يبكي حباً سلخه منه قوم دينهم الغش
والمين . وخاف من جميع هؤلاء الدارجين حوله ، أما وقفوا على النبا ؟ ...
ولكنهم ينظرون اليه نظرهم الى خائن نذل . ففي عيونهم احتقار وامتعاض .
خدع اربنب فخدعته صفة . خدعة بخدعة . على ان الدائرة دارت عليه .
فهو لا يملك حتى خيمة يستظلها . فكل ما ازدخر من ثروة بين يدي اربنب ،
فهل له ان يسير اليها ويطلبها بالذخر ؟ ... أنتقد فيه هذه الحسة وتكسو جبينه
الصفاقة ؟ ... لا ، يكفيه ما غار فيه من اسفاف . فلن يحاول التسفل الى
دون ما تسفل اليه . لن يذهب الى اربنب . سيعيش في دمشق . فالحرب
بينه وبين معاوية . فاما ان يخرج من المعركة مغلول العزم ، هامد النفس ،
او ان يتمتع بنشوة من انتقام .

سيبقى للجهد ، لاماطة اللثام عن فضيحة معاوية وكيدة الزنيم . فمن
اخلاف وعد ، الى استهانة بالكرامة . وتلفت الى ما حوله بذهول الحائب
وحق الموتور وصاح : ايها العرب الضاربون في مشارق الارض ومغاربها ،
أترضون ان يسوسكم وتبولى الامر فيكم ما كرم محتمل ؟

تلك الزعقات المتطايرة من شدي عبد الله بن سلام ، المحضبة بالدم القاني والنائح فيها الامل الذبيح ، لم تكن تجد في قصر الحُضراء غير الصدى الكافي الحسير . فان معاوية ليقهقه بلء حنجرته ، ويشاطره القصر ومن في القصر القهقهة الهادرة كأنها شماتة السواقي بالصيف المؤرود . فالضربة اصابت الهدف ، وها هي الضحية تنتفض في دمها والسهم يشك في كبدها . ألا فليطرب يزيد ، قبض على شهوته بجمع اليدين !

قال معاوية وهو نفسه ارتاع من دهائه الحاطم ، المقوض كل شامخ منيع : لم يبق الا ان نوفد اليها من يخاطبها لك يا مهجة ابيك . لست اجد للامر سوى ابي الدرداء ، فهو صاحبنا العامل بمشيتنا . فان هؤلاء المنتاهين في التعبد يرضوني بسلامة الطوية . اتدبهم للمهمات وأطلق ألسنتهم في الحمد والتسبيح ، فينخدع سامعهم بمكائنتهم في الدين ويجيبونهم الى ما يبتغون ، على اعتقاد ان الله ينطق فيهم ، وما ينطق فيهم سوى امثال ابيك !

وتذكر ابا موسى الاشعري في مؤتمر اذرح وابتسم . اقبل ليحك لعلي ابن ابي طالب فساقه ابن العاص بفظنته وحنكته الى حيث يريد . وكانت خاطر يزيد رشح بما رشح به خاطر ابيه . فالابن تذكر ابا موسى فيما يحدثه ابوه عن ابي الدرداء . وخشي يزيد ان يتشابه الرجلان . فيخلع ابو الدرداء صاحبه شأن ابي موسى في علي . ولكن في سبيل من يخلعه ابو الدرداء

وليس من مزاحم عنيد؟... قال ابن معاوية : ارى ان يسرع ابني في تحقيق ما نعلل به النفس . فالتعود عن انتهاز السانحة قد يصير بنا الى ما وقعنا فيه .
فما عن اربنب فسبقنا اليها ابن سلام . واذا غفونا اليوم عنها يسبقنا اليها جمع
حفيل !

— أترام منها على صبوة ؟

— ان فيها لمن نواضر الرونق ما يفتح عليها حتى العيون الرمد . ما
عرفت حسناء تستهوي الحلي فتشجيه كهذه الروعاء النفور . تفجع ولا تؤاسي .
اخاف ان تكون الساعة بياها الوفود !

— وفود من يا يزيد ؟

— وفود الحاطين يا امير المؤمنين !

وتأوه يزيد . وجمدت عليه عيننا ابية بهول مشدوه تئينان فيه الهيام
القهار . فالحب المتقد في الحنايا يتوهج في الاسارير على خشية . ليس هذا
الفتى القلق النظرات ، الحائر النية ، من يعرفه معاوية . فلقد تبدل يزيد حتى
بات ينكر نفسه . فالحوف من ان تفلت منه اربنب خرج به عن سحنه ،
فكأنه على فوهة الحُطر ، لا يبالي للنجاة من النار ان يقبض على كل
حبل يعرض له ، حتى على الحيط النسيل .

واوجع معاوية الشغف المستحکم من ابنه . ان يزيد لمفؤود . يترأى له
ان الامصار العربية جميعاً تمشي الى اربنب تراحمه فيها على نحلة الحسن .
وخاف معاوية على معقد امله ان يهون فيكبو فيما يشق له من طريق الى
السؤدد والمجد . قال بوهملة : يزيد ، ساوفد اليها ابا الدرداء على اجنحة .
ابن ابو الدرداء يا سعد ؟

فانطلق الحاجب كالسهم المرّ يبحث عن رجل الدين . وابن يلقاه ؟ ...
اما في المنزل او في المسجد . فلا مستقر له في سوى هذين المتكأين . وظفر
به في المسجد . قال : امير المؤمنين يدعوك . اسرع . ان به اليك حاجة
يساورها الاحاح !

وقاوتت في وجه معاوية البسة المألوفة ، الجاهزة ابداً للانتضاء ،
فبسطها لابني الدرداء مجلوة أنوساً وهو يقول : يا بني انت وامي ، كيفما
ادرت عيني لا اجد سواك للشؤون الجسام . ولقد اقمتك من نفسي حكماً
عادلاً ومفوضاً برأ ، فماذا يكون منك اذا انتدبتك لشفاء لاعج لجوج يحن
الى ادراكه خاطري ويضطرم به صدر يزيد ؟

فوقف ابو الدرداء موقف المزهو المعجب . ان امير المؤمنين ليلتفت اليه
في حل المعضلات . قال بهناة المرتاح ، الثلج الضمير : ما كنت في خدمة
امير المؤمنين الا ذلك المطيع . فليتدبرني بثاقب رأيه ووضاء تدييره !
قال معاوية : تلك المهجورة في العراق تزلت من قلب يزيد منزلة الفتنة .
فانها لتخرجه في منبسط الامان . ولست ارضى لابني اللوعة تعض قلبه
وتلذع روحه . فعليك ان تتولى انقاذه بما يعاني وانت خير المنقذين !
فصاح ابو الدرداء : ولكن يزيد فرحة الزمن يا امير المؤمنين ، فكيف
يتشهى ولا نجيب ؟ ... على اني في جهل من امر تلك المهجورة في العراق ،
فمن تكون ؟

— هي ارينب بنت اسحاق ، ابنة عمنا وموئل اعجابنا !
فتراجع ابو الدرداء وقد اضطربت لحيته البيضاء واستدارت عيناه . وقال
بذعر ماج حتى في مستدق اضالعه : ارينب بنت اسحاق يا معاوية ، مطلقة

عبدالله بن سلام ؟

— حضرت يا ابا الدرداء . هي هي . فهل من عتب علينا ونحن تزفها الى
يزيد ؟... عبدالله سلخها منه ونحن نضمها لنا !
— ولكن يا امير المؤمنين ...

— وماذا بعد لكن يا صفيّ الرسول ؟ ... عبدالله طلق ويزيد يتزوج ،
فهل في الامر ما يحمل على الدهش ؟... هذا مما لا يتنافى وشريعة العلي
العظيم . فلن نأتي امراً إذا ولن نقدم على اثم . فما يجله الدين نستحله ولا
نزيد !

فبلغ ابو الدرداء ريقه كأنه يزدرد الشوك . وما استطاع الا ان
ينضو عنه مخاوفه ويصارع معاوية بما يمور في نفسه فقال : اعتمدني امير
المؤمنين حكماً عادلاً ومفوضاً برأ ، واني لافاخر بهذه الثقة يجبوني اياها
خليفة النبي . غير اني اخشى ثرثرة الاسن يا معاوية . فلست من الناس في
حرز حرز . فلا بد للقوم ان يتقوا ولوا ويهدوا . أتدري ما سوف يقولون ؟...
سيزعمون انك خدعت عبدالله بن سلام بابنتك صفيه لتنتزع منه اربنب
ليزيد !

فاخرجها معاوية صيحة تنهكم وقال : انحسبني احفل بالالفك يروح ؟...
يزيد يهيم بارينب ، وارينب ليزيد . واني اعهد اليك في امر خطبتها له ،
فاشخص الى العراق في موكب ثري واقراً اربنب السلام وابلفها مشيئة امير
المؤمنين !

وكان جازماً قاطعاً . ولم يجد ابو الدرداء من سبيل الى العزوف عن
المطلب . فما يقره معاوية اشبه بالشرعة المسنونة . قال : اني لامير المؤمنين

على ما يفرض عليّ . فهو وجه الرسول فينا . ساشخص الى العراق واخطب
ارينب ليزيد . على اني ادعو خليفة المسلمين الى اتقاء فورة الالسن ، فاذا
طالت واستطالت كان لها في اثاره الشر الهاجع ساعد حديد !

فعبس معاوية . ان ابا الدرداء ليجرؤ على ما لا يحق لمثله المباحثة فيه .
غير ان ابن ابي سفيان ، مع عبوسه ، وحنقه على ابي الدرداء لجراته ، لم
يكن يبجل ان هذا الشيخ ، المنصرف الى عبادة ربه اكثر منه الى معالجة
قضايا العباد ، على صواب في ما يطلق فيه مقوله . فلن يخاو الاقدام على خطبة
ارينب ليزيد من غمغمة امتعاض تهتز بها الدولة الاموية في متناهي بسطتها .
ومعاوية يكره الغمغمة التواشز . ولكنه يزيد ، المقلدة والمهجة . قال ابن ابي
سفيان يدعو ابا الدرداء الى الاكتفاء بالامتثال للدعوة المعلنة : ما كنا نميل
الى حرمان الناس حقهم يا ابا الدرداء . فلو اقامت ارينب في عصمة عبدالله
لكننا اول من يتحامي الاجفاف ، اما وهي طالق فلسنا مكرهين على مجابنتها
وقد ولع بها يزيد . اركب الى العراق مطية عجلي واذا كر فينا الله !

فبسمل ابو الدرداء وحمدل . وقد يكون في سره حوقل : « لا حول
ولا قوة الا بالله ! ... » . هذه رغبة معاوية ولا ندحة عن انجازها . واسرعت
يد معاوية الى العطاء الجمّ تخمده به وساوس الشيخ الجليل المنظر . وهذا
السخاء كان يكلم الافواه ويصرفها عن الطعن والمثلية . وانطلق ابو الدرداء
الى العراق في ركب جامع وهو من امره على كتمان . فلم يشأ ان يطبل
ويزمر للهمة الموكولة اليه وفيها ما يقعد ويقم

على ان القوم ، وقد ذاع فيهم ان صفة بنت معاوية رضيت عن عبدالله
ابن سلام زوجاً ثم مالت عنه ، حسبوا لهذا الانقلاب الحساب المديد . فما

دعاها الى الرضا وما فرض عليها العدول؟... عبدالله هجر في سديلهما اربناب ،
وهي قدرت عليه هجر تلك ، فما بها وقد اصبحت اربناب طالقاً وعبدالله حراً
تنقض ما اعلان فيها وتمحو ما كتبت يمينها ؟ ... طرحت ابن سلام في الداهية
ولم تكلف نفسها الرفق به . ان في هذا التغرير لفضيحة يجب ان يصون منها
معاوية وجهه وهو غرة دولة ناشئة على انفة واعتزاز

والجميع لمسوا في الخدعة يد معاوية . وقام من يقول : معاوية فصل
عبدالله عن اربناب ليزفها الى يزيد !

والناس لا يخفون ممن يغوص على المبهات المغلقات فيفتحها على
مصاريحها . وشاع الخبر حتى عم . وتناقله من في العراق قبل ان يبلغ ابو
الدرداء اطراف السواد وضفاف الفرات . فضج الشام والعراق معاً ضجيج
المرعوب . انها لصفقة مستدنية هدم بها ابن ابي سفيان بيتاً ورغداً وقلبين .
وبانت الخدعة حديث كل من أوتي النطق مع سقاية من فهم . واعجب فريق
بمخاتلة ابن هند ونمز منها فريق . فالجزبان الهاشمي والاموي عادا الى الظهور
بمضاء ، حتى ان الكثيرين من انصار معاوية تقموا على معاوية . ففي استفزاز
ابن سلام لطلاق اربناب كي يستأثر بها يزيد قحة وذلة لا ترفعان رأساً ولا
تشفعان في طيب احدثه

ودرت جعدة بنت الاشعث الكندي فهاجت وتفتقت جراحها . معاوية
ويزيد ضحكا من عبدالله بن سلام كما ضحكا منها . يا للطفمة الطغام ! ... وما
اكتفى الاب والابن بجنبك المكيدة ، بل شاطرهم ركوب الغواية الابنة
صفية شقيقة يزيد . تلك دار تضيق بالافاعي . سلالة ليس من شأنها الا الدس
والكيد ونقت السم وازعاج الارواح . فيا لحية البناء كم عقدوا من امل

على هذه الدولة الفتية وكم اضطرب هذا الامل حتى كاد يضمحل !
ووثبت جعدة الى دار اربنب . فلا تبرح دامية الحشاشة ، نائرة الاحقاد .
يزيد سخرها في بلوغ اربه ثم سلاها . بل هو رضّ فيها الرجاء النامي بعدما
لطخت في سبيل ادراكه يديها بالاثم . لا ، لن تكون اربنب ليزيد .
ودخلت جعدة على ابنة اسحاق وهي تتلظى اضطغاناً ونفوراً . قالت بحق
المكالم المعبون : اربنب ، اخي ، أتدبرن ما بيّدت لك اخوان ابليس ،
ساكنو النار ؟

واربنب ما برحت على ازوائها ، تأكل حسرتها وتعيش باسائها . فلا
تفتح شفتها لسوى الزفات تطلقها ناراً تلذع وتذيب . ففي نأي عبدالله
عنها تحطم جناها وتهشم كرامتها . وجل ما طمعت فيه وهي تزحج باشجانها
ان تعلم ما غرّ عبدالله ففصله عنها ؟ ... ووقفت من جعدة موقف الرهبة ،
اي شر يرقبها ؟ ... أما اكنفى الناقمون عليها بابعاد ابن سلام عن مهجتها ؟ ...
قالت وفي فمها جفاف وفي ناظرها سهوم : ومن هم اخوان ابليس يا جعدة ،
وماذا بيّتون لي ؟ ... اقلقت خاطري المهبض !

وهي تعرف جعدة وتلمّ بحكايتها . ونفذت من هذه الحكاية الى اللباب
واستلت السر . هيام جعدة بابن معاوية فضقض الحسن بن علي في نعمائه
ومعمره . ثم كان ماذا ؟ ... اعرض يزيد عن الارملة الكفور واطعمها الشجن .
قالت ابنة الاشعث الكندي : معاوية يريدك لابنه يزيد واوفد اليك من
يخطبك !

فهاها النبأ . وومضت في عينها الذكري ، يوم اصيب معاوية بطعنة
الخارجي وغص قصر الخضراء بالوفود . فاقبلت يومذاك على الطبيب الساعدي

بين من تحلق عليه من النساء المعجبات. واذا بيزيد بن معاوية يجبو لشكر الطبيب
المقذ . وما كاد يراها حتى عقد لسانه وارتح عليه وصب عليها نظرانه .
ولولا ان تنسل بين الجموع وتوارى للفظ القوم بحب يزيد لها . ولو شاءت
لاسرت يزيد وهو كلما رآها استقر منها على شدة . غير انها تعرف ابن معاوية
معشاقاً هاجراً ، وليست تبغي العذاب في دنياها ، فتعوى من يجبها اليوم
ويساوها غداً . ثم هي على شغف بعبد الله بن سلام ، ابن عمها ، ومن طبعها
الثبات في المودة . واستطلعت بجزع : أوفد الي معاوية من يخطبني لابنه يزيد؟
— نعم ، نعم يا ارنب . ولست اغبطك على هذه النهاية ، نظرة من
عبدالله تساوي يزيد واباه . اني اخاف عليك من مكرهما يا ابنة عمي . والله
ما في القوم غير شر وغدر !

— ومن ابغلك النبا يا جعدة ؟ ... انك لتحدثيني بما لا تصدق اذني .
كيف طلقني عبدالله واقبل يخطبني يزيد ، أرغب ابن امير المؤمنين في من
طلقها عامل من عمال ابيه ؟

فوضح لجعدة ان ارنب تقيم بما يساورها على جهل مطبق . فلا تدري
ما يحاك لها من احابيل . قالت بدهش : أتكونين غريبة عما يراد بك ؟ ...
معاوية ما دعا عبدالله اليه الا وهو يبغيك !

فصاحت بهلع : ببغيني يا جعدة ؟

فتصاعدت انفاس ارملة الحسن بن علي لهبة بركان ، وهزت برأسها لفرط
ما خبرت من لؤم الزمن وقالت : ما وجه ابن ابي سفيان دعوته اني
عبدالله الا وانت مطلبه . فالدعوة لك لابن سلام . وفي دمشق خاتل
معاوية وماذق . فادنى منه عبدالله ، وقبله في كتفه ، وضمه الى صدره ،

واوهمه انه لديه بمقام يزيد . واني لامتله في ابتسامته المصنوعة الحادعة ، وفي
 كلماته المعسولة المبطنة بالسم . وجرع عبدالله السم وهو يحسب نفسه يشتر
 العسل . فزخرف له معاوية انه سيف اليه صفة ابنته على ان يطلقك . فوقع
 عبدالله في الشرك وعالنك الطلاق . ولكن صفة لطمته باحتقارها وادارت
 له ظهرها ، فهوى في ازقة دمشق يعوي كالذئب الجريح . وانجبت الانظار
 اليك وانت عنوان الكتاب ، فدفع اليك معاوية من يخطبك لابنه . حل
 عنك عبدالله وثافة ليوثقك يزيد . وانك لصائرة الى حجر الاحشاش اذا
 استسلمت الى مشيئة اولئك العابثين باليهود ، المستحلين المحرمات . انا اسحق
 عليك من استهانتهم بك . ربما اعتمدوك في ادراك ما رب ثم نبذوك كما فعلوا
 بي . حذار ان تستنمي اليهم . فانك منهم لعلی خطر . وهل من يأمن شرّ
 العقارب والثعابين ؟ ... يزخرفون لك العاطفة ليطرحوك في الهوة ، حتى
 اذا ما تدرجت اليها اخنتهم فورة من ضحك سامت . والفاجعة لا تنتهي
 الا وقد سحقوك واجهزوا عليك . نجنا اللهم من عصابة الكافرين . اني لارتعش
 خوفاً كلما تملت هؤلاء الاوغاد الاشرار . صانك ربك من اذاهم يا اختي !
 وارتجفت جعدة كأن بها البرداء . فما كال لها معاوية ويزيد من هزيمة لا
 يبرح ينكأ فيها ناغر الجراح . طوّحها في بؤرة الهلكة وانكراها . هذا
 منتهى الجحود . ووقعت كلماتها على ارنب موقع الرهبة . اي نبأ يخوف
 يتساقط في مسمع ابنة اسحاق ؟ ... أیكون معاوية دعا اليه عبدالله بن سلام
 ليفصله عنها ؟ ... أتكون هدف مكيدة ؟ ... اذا صدقت ظنوننا . ألا كم
 نهت عبدالله عن الركون الى معاوية ، كم حذرته منه . قالت : « انه لبييعك
 ويشتریک بمخمر الوعد ومبرقش الكلم . يعالنك انه يروم لك الخير وليس

بيطن غير التكد!...». ولكن عبدالله لم يسمع . فهو بشوق الى معرفة ما يخبي له ابن ابي سفيان من المبرة . ايمانه بمعاوية رجح على ايمانه بامرأته . امرأته ليست امير المؤمنين !

وكم ألح عليه في البقاء بجانبها ، في سد اذنيه عن نداء الخليفة . على انها ليست تلك من الكلمة المسموعة ما يتحلى به ابن ابي سفيان سيد البدو والحضر . فان معاوية لقابض يمينه على الارواح ، يسعد ويشقي . اما هي فلا تقوى على التحكم حتى بعدانها . فاين سلطانها من سلطان قاهر ابن ابي طالب ابن عم النبي ؟

اقدم معاوية على المحادثة ضاحكاً من عبدالله بن سلام وهو يبتلعه كما يبتلع اللقمة . يأكله ويشرب عليه ولا يغص . غير انها تربت في الايمان بجعدة الناقمة المضطغنة وقالت : اراك تبالغين في ما افضيت به يا ابنة الاشعث ، معاوية لا يتسفل الى هذا الخيض !

فكادت تشتمها وتنعى عليها قلبها السليم . انها لفي غباوة فاضحة . قالت جعدة وهي تتواثب في مستقرها لفرط حرقتها : كنت احسبك ابعدي رأياً في معاوية وابنه . سخرا بزوجك كما سخرا قبله بي . جاملاه ليطلقك منه ووعدها بفضية ابنة الخليفة . وما نالا منه طلاقك حتى تجاهلاه ، فليس يعرفانه الساعة . وسيفد عليك من يخطبك ليزيد . وانك لفي جنون مطبق اذا رضيت بما يريدانك عليه . فالموت يرصدك . قد هواك يزيد اليوم ويملك غداً . فما ان يرتوي منك حتى يركلك . هذا فتى لا يختلف عن ابيه . فالناس في معتقده مطايا لمقاصده . يسوقهم في خدمته ليشيح عنهم فور ادراك المرام . فالبشر في عرفه عبيد ، لا يصلحون لسوى التفاني في الاسترقاق له وفي تقبيل نعليه .

كأنه سبكم بيده وصبهم في قلوبهم احياء يسعون. ذقت منه الويل مخدوعة
بمنقّ بيانه . لا عاش يوماً يتبين فيه النور !

فقال اربنب مدهوشة: وهل وعد معاوية بصفية كي يجيبه عبدالله الى الطلاق؟
— وعدم نكت . عبدالله اطاحه الغدر يا اربنب . وهل يملك العصفور
قوة البازي؟ ... هل للنملة ان تضارع في كيدها الثعلبان؟ ... لا تلومي
عبدالله في سقوطه ، فهو ضعيف . ان اللوم لعلى الذئب الخاطف ، المعن في
النهش والقضم !

فاقلقتها جعدة فوق ما ينتابها من قلق . وران عليها الوجوم . انها لفي
تيار يتقاذفها الى حيث لا تدري . ورهبت غداها وهو غد مشؤوم . ونفر من
عينها الدمع كأنه بات لا يطيق في محجرها الثواء ، فسال غزيراً ذليلاً على
خديها الصفراوين وقد ذهب منها الالم بالنضارة المشرقة الالوان
وهال هذا الدمع جعدة . فهو دليل الاستخذاء لا الجرأة والعنف . وابنة
الاشعث الكندي ، وقد اکتوت بنار يزيد وابيه ولا تبرح على لوعة وحرقه ،
نازية الجرح ، فوارة الضغن ، ارادت ابنة اسحاق صالحة ، مزججة ، تشتم
وتلعن ولا تعف عن السبة . شاءت ان تبصرها في متادي الغيظ ومنتهى
الثورة . فالدمع الصامت ، المتلاشي ، سلاح مفلول ، محطم ، لا تنوهج فيه
الصلاة الحاقدة ، المتوعدة ، الواثبة الى التهشم . وخافت جعدة حيال مظهر
هذه المطلقة المبتغاة ان تلين اربنب في مطلب ابن معاوية . فلا تملك القوة على
بجابه يزيد . فصاحت بها : أتبكين؟ ... كنت استهيك في نقمة ، في
عصيان . فالمكر جعلك ضحية مبتدلة . انت الآن مسحوقة القلب ، دامية
الكرامة . انت سلعة يتاجر بها يزيد وأبو يزيد . وليس للمنكوبة مثلك ان

تكنفي باطلاق ما عينها ، بل عليها ان تنتضي حزازاتها واوتارها وان
تلطم بها وجوه الرواغبين . فانت مدعوة الى وجر ثعلبلا الى بلاط ملوك . واي
بلاط هو ذلك الصرح الحافل بالحبث والمواربة ، المحشرجة فيه الضائر كأنها
صرعى القبور؟ ... لا تبكي ، فالموقف يدعوك الى الكفاح ، الى الصراخ ،
الى فضح الظلم والجهر بالحقنة . معاوية سلخك من زوجك ليؤفك الى ابنه ،
هذا ما يجب ألا تخامرك فيه الريبة ، فعاندي وقاومي ، انك لمالكة زمامك
وليس لقوة مها استطالت ان تصرفك عن هواك التليد !

فلم تجد ارينب غير الدمع من جواب مستطاع . فهي تصوغ من حبات
عينها عقد الشكوى . ففي كل دمعة خطاب وبيان . معاوية ظلمها بفصلها
عن عبدالله . وانتفضت في حيرتها كالطائر الذبيح في متفرق دمه . فتأففت
جعدة وهي الطامعة في الغليان المستأسد ، في النشور الفلتان ، العابت بكل
عنيد جبار . قالت وفي ناظرها نيران تتأجج الماءً وغلاً : دمعت صوبه .
هذا ليس اوانه . جل ما ادعوك اليه ان تمنعي في طلبه معاوية وابنه يزيد .
يجب ان ترفضى بازدراء ، باستهانة . انت سيدة الموقف . ان معاوية لمن
عييدك الساعة . وكم ترددين قدرأ وانت تمنعين وتنتقمين لعبدالله من قاتله ،
من اصفى دمه . فالويل لمن يقتل ولا تغرورق كبده بنداوة من رافة . عالي
من يقبل اليك ليخطبك ليزيد انك تأبين ان تمدي يدك الى من تحضبت يده
بدم زوجك المظلوم البري . صارحيه انك لا تصبرين على الدس ولا تصبو
نفسك الى المحتال !

فما زاد الجواب على دمع يقطر بسخاء . فلم يكن من جعدة الا ان
وثبت على هذه المقتمدة نشيجها الاسيان وعزتها كما تهز غصناً مثقلاً بجناه

وصاحت بها : أسامعة انت ام غائبة عن الرشد ؟ ... اخانعة ام غاضبة للحب
الطعين ؟ ... ألا يختلج فيك حس ببح عبدالله ؟ ... انا قتلت ابن فاطمة
لاجل هؤلاء الانكاس ، فماذا كالت منهم حيالي ؟ ... لفظوني كالعظمة ،
كالدرن . نفر واني كأني الوياء . ولا ترقبي ان ينالك منهم غير ما نالني من
كفران بالجهد المبدول . فاستبقي اباؤك وشمك واضريهم في صدورهم .
لتنزل بهم لظلماتك كأوية دامغة يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل . فالكيد
يجب ان يلقى من بصدده عن جموحه ، وانت وحدك تقوين على هذه المعجزة
الحرون !

فتكلمت اريبن وقد شعرت بقبضة جعدة تكاد تطحن ذراعها وتخلع
كتفها . قالت : أنسى عبدالله يا جعدة ؟ ... هو مني في مستقر الضمير ،
فكيف اعدل به سواء ؟ ... عبدالله اول من عرفت وآخر من اعرف ، فلن
اكون ليزيد غير رمة من عظام ، جثة بلا انفاس !

فانتعشت جعدة . هذا هو المطمح . والتوت على اريبن تضمها اليها
وهي تقول بارتياح ففاض : عوفيت . هذا الطبع النبيل غير عجيب اذا
تجلى فيك وهو منك في حرز مصون . وانك لتحسنين الى الوفاء ونصوح الجبين
وانت تعرضين عن دعاة النفاق والرتاء . هؤلاء قوم يذلون امام القوي
ويشمخون على الضعيف . يعفرون جباههم في تراب نعليك ما دامت الحاجة
اليك ماسة ، ويدوسون هامتك بنعالهم عندما يدركون المطمع ويتوافر لهم
المغتم . انبذهم ، انبذهم وانت الراجحة يا اختي !

وظفح قلبها بالمسرة . ستحتر يزيد كما نحرها . مزق قلبها وستمزق قلبه .
خبيا في حبها وستمخيه في حبه . سن بسن وعين بعين . فما اشهى وما ابهى ! ...

قالت جعدة : اختي ، هؤلاء الظالمون يجب ألا يبظروا . فان لم يقم في هذه الامة من يغالهم ويرد لهم الهزيمة هضيمتين أكلونا وازدرونا غير مكثرتين . فالتيار الهادر يجب ان يقف ولو عند شجيرة معترضة كي يعلم الجميع ، القريب والبعيد ، ان للطاغية حداً لا يجاوزه ، وان اموره لا تدرك باجمعها التوفيق . فلا بد له من مزلق خطر ينحدر فيه . معاوية لم يشعر حتى الساعة بالخطية ، فكوفي اول من يصدمه بها ويلقمه اياها . مغتصب الخلافة لا يجوز ان يستنسر حتى يطاول الافلاك ، فيرقى من ظلم ، الى ظلم ، وليس من يكعمه في غيه ويخرج به عن ضلاله . انت من اصطفاك الله لرحمة الباغي عن عسفه ، فلا تحجمي ولا تضطري !

فغمغت : ليهب لي الله القوة على النضال !

قالت جعدة : وستجديني ابدأ بقربك اعينك وانصرك على امرك .

فلا ترهبي . عين الله ترعاك . ومن رعته عين الله أمن العثرات !

وشددت من عزائم هذه السكرى ، المتواخية الاعصاب ، لفرط ما

جرعت من الم وما اختمرت به من اسى . ستسددها الى قلب يزيد حربسة

نافذة لا تبقي على علالة من زوح . ساعة الانتقام تدق ، فما اجملها من ساعة

طاحنة يدرك بها ابن معاوية ما يعاني من اليأس والغمة الجريح الامل ،

المنكوب بالحب الاثيل !

ذلك الركب الممتطي صحراء الرمال الى الكوفة ليج به الشوق الى بلوغ
عاصمة الخلفاء الراشدين ، المدينة المشيدة في عهد عمر والثاوي فيها علي
وابناء علي . وتضايق ابو الدرداء من طول الرحلة وتبرم بمشقة السفر . لماذا
انتدبه معاوية لهذه المهمة الناصبة وقد كابد في الطريق الكلال والضنى ؟ ...
هو شيخ يحبو على ثلاث ، ويكاد يدب على اربع . غير ان المدينة تماوجت في
ناظره دكاء تترقش باخضرار النخيل ، فتنفس وشكر الله : سبحانك
اللهم ربي هادي الضال ومنقذ الحسير !

واستفاضت في ذهنه ذكريات رحاب . ان الكوفة لصفحة عذراء من
هذا الدين الجديد الممتد البساط . يضيء فيها وجه الفاروق وابن ابي طالب
ولا تزال تتألق بالحسين بن علي حفيد الرسول . وخشع ابو الدرداء وهو
يذكر الرسول . والتمع في وجهه نور علوي كأنه في ابتهاج غاب به عما
حوله من حس وجماد . فحث مطيه الى حيث يلقي حفيد مستنزل الآيات
وفاتح طريق الجنة . وغنم الفاتحة : اياك نعبد واياك نستعين !

ولم يشأ ان يهبط الكوفة دون ان يعرج على ابن بنت النبي . فهو يؤثر
رؤية الحسين على رؤية ازينب . ابن فاطمة ثم ابنة اسحاق . والحسين بن
علي يومذاك سيد العراق روحاً . تخلى شقيقه الحسن عن الخلافة لمعاوية اما هو فما
تخلى عنها . فلا يزال ممسكاً عليها بيد لا يرتخي لها عصب ولا يهي عود .

والكوفة نصرت الحسين كما نصرت اياه واخاه . ولكن أنخذله كما خذلت
ياه واخاه ؟ ... وسأل ابو الدرداء : ابن مقر ابن الامام ؟

انه ليضطرب هياماً بتقبيل راحة من قبله النبي في فمه وهو لا يبرح في
الاقمطة لا يأنس بقطام . ومن يجهل ماوى ابن علي ؟ ... فما تلفظ ابو الدرداء
بالسؤال حتى انبرى له الدليل . واذا هو امام صرح اقتعد التراء وتلظت فيه
سورة المجد . وترجل ابو الدرداء . هذا مكان تخلع فيه النعال . وانحنت
هامته كأنه يزحف الى المسجد . واستأذن بوهبة . سيفاضح بدأ لامست ركن
الاسلام وسيد الميمون . وخيل اليه ان عين النبي تشرف عليه من سدره
المنتهى ، وان علياً يبسم له ويدعوه الى الحرب على ابنه ، شطر قلب فاطمة
البتول . وورد الجواب ان بوسع ابي الدرداء الدخول . فما كاد صاحب
الرسول يتأسك لفرط البهجة . ولم يدرك كيف يميل على راحة الحسين يلثمها
ويتبرك بها وهو يججم : الله اكبر ، الله اكبر . ربي ، اعتقني من دنياي
وخذني اليك . لقد اكتفت نفسي بروائع زمنها ما دمت اتمتع بروضان حفيد
النبي !

والحسين لا يزال يتلأأ بنعمة الشباب مع انه يوشك ان يكون منها في الفصل
الاخير . وسره ان يرى ابا الدرداء في الكوفة يسلم عليه ويدكر فيه من مضى
من القوم الصالحين . قال : ومن رمانا بك يا ابا الدرداء ، فشهدناك في هذا
البلد المنسي ؟

فاجاب وهو يبسط يديه للضراعة ، كأنه يشكر لربه ما جلبه به من
عطف ورحيب : حسن حظي يا امير المؤمنين . ابى الله الا ان يتمتعني في بقايا
عمرى بروية ابن علي وفاطمة . الصلاة والسلام على محمد جدك العظيم !

فقال الحسين وما غاب عنه ان ابا الدرداء منتدب لامر لا صلة له بما
اعلن : ان الفرحة لتلم بنا ونحن نراكم في اكنافنا تذكرون السلف الامين،
على ان دمشق عودتنا يا ابا الدرداء ان لا تطلقكم الينا الا وفي صدوركم
غير السلام على حفيد النبي . فما كلفك معاوية من شؤون ؟

فابتسم ابو الدرداء وقال : والله لكأنك تقرأ في قلبي يا ابن بنت النبي . الا
اني ما جئت اليك لسوى اداء فريضة السلام على زين شباب المسلمين . فليس
بين ما انتدبني له معاوية وبينك سبيل الى الميلاق عليك . عهد الي ابن ابني
سفيان في ان اخطب ارينب بنت اسحاق لابنه يزيد !

فضحك الحسين ضحكة المدهوش واستفهم ناقي الخدقين : جئت
تخطب ارينب ليزيد ؟

— هو ما يقول سيدي ، جئت اخطب ابنة اسحاق لابن معاوية !

— ولكك تحيرني يا ابا الدرداء . انتهى الي ان معاوية شدد على عبد الله
ابن سلام في طلاق ارينب كي يزف اليه ابنته صفية ، فكيف يطلقه منها ثم
يخطبها ليزيد ؟

فهز ابو الدرداء رأسه . مجال القول ذو سعة والصدر يضيق بالحوايس .
وكل ما يبذل معاوية من سخاء لا يمحو الآثام الشواكي . فالظلم لا بد له
من السنة تنعاه على الطغاة المتجبرين . قال ابو الدرداء وهو ينفخ اشجانه كأنه
يرتد بها جرحاً يلتهب : زاد الله في عمر حفيد النبي وابقاه لنا دوحة مديسة
تفياً منها الظل . ان معاوية ليبالغ في التحكم ببني قومه . فهم لديه من السوامم
وليس يبالي فيهم كبيراً ولا صغيراً . فما يبغيه لا سبيل الى الاحجام عنه . ولقد
رأته في مجلسه يتعمد الحرص على اموال الناس . يحرص عليها وينصف

المهزوم المنكوب. غير انه في شؤون نفسه ارعن اعى، فلا يبصر ولا يجامل .
فالمخادعة والمماكرة جائزتان في شرعه . واني لاتعجب من رجل جمع في
صدره الخير والشر . فهو الحليم الصراح والمخاتل القجاج . تستنم اليه ولا
تأمن غدرة . تجد فيه السهاج الارتفاع والروغان الانكسد . لست والله اعرف
له شياً يا ابن علي . فهو سر مغلق ، ظاهره يجهل باطنه . ولقد خدعنا في
عبدالله بن سلام ولا يزال يخادع ونحن له مطايا . كلفنا الترحيب بان سلام واذا
به يتكر له . دعاه الى دمشق ليعقد له على صفة ولم يلبث ان حجبا عنه
بعد ما اكرهه على طلاق ارينب . والحدة وضحت وتحدث بها كل من في
دمشق ، غير انها في جنبها نددت عن الجميع . فما استيقظ فيها ضمير الا وقد
نقذ القضاء . معاوية داور ابن سلام ليخلعه من ارينب ويخلع ارينب على
يزيد . وهو مكر فاضح ، الا انه دهاء لا ينضح بمثله سوى جامع الضدين ،
معاوية بن ابي سفيان !

فتمثل الحسين مكابدة معاوية الحواطم، الضاربة في ركن الشمل النظيم ،
وقال وهو يتألم لوقوف الرجل حائلاً دون موكب الاسلام المتهادي على
حكم محمد بن عبد الله الرشيد: ما كنا نعتقد يا ابا الدرداء اننا سنبلي بمن يقوِّض
المعالم ويبدل السنن . معاوية غالب بالخدبة وغلب . نهض بدعوته وهو موثق
انه خاسر فيها واذا به يربح وتقع في الحسرة . جال الباطل جولة غير
مأمونة المغبة ودحر الحق وفاز . ولست اتعجب من كيد معاوية مثلي من
حماقة هذه الامة السائرة في خطوات معاوية . كل من فيها مؤمن بان الرجل
على ضلال ومعظم من فيها يتبعه . اشترى الضمان واخرس اللسان ونحن
نشع باموال المسلمين ان يلم بها الاسراف . كنا نبخل على انفسنا بالدرهم ،

فلا ننقده مخافة ان تدم الحاجة بيت المال ، ومعاوية يغرف من بيت المال ويحيز انصارنا فيفصلهم عنا . انها لمصيبة يا ابا الدرداء خبرنا فيها طباع الناس . فهم بجانب من يطعمهم حتى ولو اطعمهم فلس اليتيم ، واعداء من يصوت فلس اليتيم ومال الدولة لكونهم لم ينعموا برفده . تبأ لهم من جشعين لا يفكرون في سوى انفسهم ، في ملء الجيوب والبطون!

وسكت الاتان ، الحسين وابو الدرداء . وانتصب امام كل منها شيخ معاوية ، شجه الرهيب . رفعه مينه وغدره الى حيث لم يكن يرجو الوقوف خاشعاً متهيباً . كان قانعاً بمنصب وال من الولاية في الدولة المسيطرة ، فبلغ السدة العليا بقحة وقحة لا يتمكن منها غير المجازف المقدام . وتوجع الحسين والمقام الاعلى يقلت من ابيه ومن اخيه ومنه . ونطقت فيه احقاده فقال : على اني لم ابايع معاوية يا ابا الدرداء . فالخلاقة من حقي واني لا طالب بها . وبراءى لي ان المسلمين في نصرتي . فلن يتخلوا عني جأ لابن هند . انهم ليرهبونه اليوم ويتقونه . اما غداً ، يوم يفتك به قاطع الانفاس ، فلن يجدوا سواي ليعقدوا له الراية على مرتبة الخلاقة . وسوف يرى الحزب الاموي اي منقلب يصير اليه . سندرك البغية يا ابا الدرداء . فانظلم قلق الدعامة ، ذو عمر قصير !

واذا الباب يدق . وبدا الحاجب في حضرة الحسين ملتوي الهامة قائلاً :
بالباب امرأة تريد المشول بين يدي سيدي !
فالتفت اليه الحسين مرفوع العنق وقال : امرأة ؟ ... ومن تكون ؟
— لم تعلن اسمها ولا لاح منها وجه . فهي مقنعة تلتمس من مولاي ان يأذن لها في ابداء ظلامه تعرفها !

فاعلم ابن علي : أتقف بيابنا امرأة تنظلم ولا نسعها في الانتصاف من ظالمها?... لتدخل . نحن هنا لدرء الظلم !

واطلت قائمة يموج فيها الدلال ، مقنعة بالسواد ومجلية بالسواد . وانحنت وافضت بالتحية بصوت ترتعش فيه الانوثة الدهاق . قالت : السلام على ابن الامام وحفيد سيد المسلمين !

فنظر اليها الحسين نظرة حادة ، ثاقبة ، حاول بها ان ينفذ الى كبده هذه الواقعة امامه ، المحجوبة عنه . فمن هي وما تبغي?... قال : والسلام عليك ايها المرأة ، فمن انت وما هي حاجتك ؟

فاجابت : امرأة مظلومة جاءت تنتصف لدى سيدي وابن سيدي ! فغمرتها عيناه برأفة صبحى وقال بصوت بليل : وماذا استطيع فيك ايها الظاهرة المحجوبة ؟

— تستطيع كل شيء . انت وحدك تقوى على انقاذي من كربتي !
— ولكن ابدي ظلامتك ، لسنا ننجم عن اجابة !

فاستطلعت بوجل : أتبيلني بغيثي حتى وان اكن اسأت اليك ؟
— اساء الينا الكثيرون فعفونا عنهم ، ولا بأس ان تكوني من هؤلاء .

تظامي ، كيف تقوى على دفع الملمة عنك ؟
— تقوى على دفعها بكلمة ، بايماة . فما لك الا ان تشاء يا ابن علي !
فراعته قولتها ، وطغى عليه الحلم فقال : كوني من شئت فان حاجتك لمقضية عندي !

فسقط عن وجهها قناعها ، وما كاد يبصرها الحسين حتى صاح بسخط رعاد :
انت ؟ ... انت جعدة قانلة اخي?... لا والله ، لست اعفو عنك في شعرة

من هذب ، اخرجني !

وارتجف حنقاً و كرهاً . قاتلة اخيه الحسن تمثل لديه تتنصف ، بل ترجو سماحاً و عفواً . أيطبق مرآها ، أيجوز ان تفيض شفتاه بالعفو عن مطعنة اخيه السم ؟... وكاد يمشي اليها فيقبض منها على خناقها ويستل روحها . ولكنها امرأة . فاكتفى بان يصيح بها : اخرجني ، اخرجني ، اني لامتثل فيك ابليس العين . تكاد روحي تنسل من اضالعي وانت في حضرتي . ابعدي يا فاجرة . انت بمن ساعدوا على تقويض مجد الهاشميين !

وتشجعت اعصابه فبدا راعباً يقطر الغضب من كل عرق فيه . ولم يكن من جعدة الا ان جثت عند قدميه تبللها بدموعها وتقول : عفوك عن امرأة مشؤومة انزلت التعس بها وبزوجها الامين . رفقاً بطائشة منكودة ادر كتبها الحيبة العضوض . جاهلة لم تشعر بالهزيمة الا وقد طار السعد المؤاتي ، فاقامت تتحصر على الكنز المفقود وتلعن نفسها ومن خدعها ودفعها الى الاذى اللثيم .

اقتلني بيدك انتقاماً مني للحسن اذا ابيت ان تعفو عني !

وحكى فيها الدمع ما لم يقو اللسان على ادائه . وارتاع ابو الدرداء حيال المظهر الرهيب وقف شعر رأسه . ما هذا الاقدام في جعدة وقد تجرأت على المثول بين يدي الحسين تطلب عفوه وتستندي حمله ؟... والحسين يلين حيال الدمع فاطرق . وعدما بقضاء حاجتها ولم يجد بداً من الانجاز . قال وقد تضاءلت فيه النظرة المتوعدة : اذهبي ، لقد رتمت في عفوي ، ولكن حذار ان تعودني . بابي مقفل دونك . أغربي !

فلم تتحرك . ظلت في سجدتها عند قدميه . فصاح بها بنزق : انصرفي ، اريد ان تنصرفي . لست اطيع ان تدنسي داري بانفاسك الوبيئة . هذا

يس مكانك ، انهيضي وابرحي منزلي . اخاف ان تنهار هذه الجدران وانت
تأوين اليها بدمامة وروحك يا ابنة الائم !

فاجابت وهي تشرق بدمعها : من حتى من تمتعت بعفوك ان تستقر في
دارك . مأواك لا يضيق بمن اتسع لها سماحك !

فغلبته على امره واحس بالقهقري . جعدة الحائنة اقوى منه في سلاطنتها .
وبدا في موقف المرتبك العابت به الاكمداد . قال : وفي م تطمعين بعد
عفوي ؟... اكلتك النار !

قالت : في خدمتك ، فاكون لديك أمة تسهر عليك وتكفر عن جنابتها
على اخيك ؟... مثواه الجنة !

فصاح بها : أيطيب لك ان تودي بي كما اوديت بالحسن شقيقي ؟...
يا مجرمة ، هل كتب عليك ان تدفعينا الى الرمس صنواً بعد صنو ؟...
اخرجني والادعوت الحدم الى طردك . ما رأت عيني ذات قحة تضاهيك في
صفاقة جبينك . هذا هو الباب ، فاذهبي لئلا تحو يدي ما افاض به سماحي !
فشهقت وتدحرجت في الارض . لقد اغمي عليها . فتأثر الحسين ونادى اليه
الحدم قائلاً : اسعفوها واحملوها الى دارها . هذه امرأة لا مقام لها في حمانا !
فكان اليقظة عادت اليها وهو يدعو الى اقصائها . فنهضت من سقطتها
وقالت بذل المستجدي : سيدي ، لن يطول مقامي لديك . جل ما استرحمك
فيه ان تبيح لي الثواء في كنفك لهنيئات قد يصبر عليها حلمك الندي !
فقال ابو الدرداء مستشفعاً : لا تغلق دونها مستفيض عطفك يا ابن علي .

عفوت عنها فلم يبق من خير في استغلالها رفقك !
واشدت بالحسين الجهمه فقال : انك لتحملني على ما تكره نفسي

يا ابا الدرداء . لا بأس ، لتستقر فينا هذه المشؤومة !
وتصاعدت زفراته تكاد تنوء باعباء آلامه . صفحه عن قاتله اخيه محنة
كفور . على ان جعدة داورته ونفذت الى فسيح رحمته فنالت منه ما لم
تكن ترجو فيه هبأة . والنفت اليها الحسين يقول بصوت ساورته البجة :
وما تريدن يا امرأة ؟

فاجابت وهي تستحم بدمعها : لا وفق الله من فصل بيننا يا امير المؤمنين!
ونادته بالخلافة والخلافة مطمعه . واجادت استدرار عطفه بهذا النداء
المشتهى . قال : لا وفقه الله مرتين ، ضربنا في عميدنا واباحنا للشهامة الآتمة .
ماذا تريدين ؟

وألح في الوقوف على مكنون اذاعها ليسعفها في طلبتها ويسرع في ابعادها
عنه . فلم يكن يصفو الى مرآها البغيض وما يرحب يتمثل فيها تلك المجرمة
اللثيمة . قالت : ما ارتجيت الا الخير لامير المؤمنين !
فتصلبت عيناه دهشاً واطلتما عليها تستوضحان : واي خير ينضح به
صدرك يا ابنة الغواية ؟

قالت : معاوية بن ابي سفيان الماكر يحوم على اربنب بنت اسحاق ،
وقصده ان يزفها الى ابنه يزيد !
- واين الخير في هذا النبا الداعر ؟

- الخير في ان يحول امير المؤمنين دون هذا الزواج العاثم . فليس
يحمل بنا ان نساند الشرير في جنائله جمعاء . فنبيع له اعراضنا واحسابنا ولا
نعارضه في رغبة . بالامس قضى على الامام ابيك ، ثم اجبر على اخيك ،
وها هو اليوم يضرب عبدالله بن سلام في كبده لينتزع منه زوجته اربنب

ويزفها الى ابته . انها حُدعة هدم بها الدين وبلبل خواطر المسلمين . فحذار ،
حذار ان تنام عن قاده . اني لآخشي غداً منه عليك اذا قابلت بالسكوت
فضائحه ووهبت له من ارواحنا مرتعاً آمناً يجول فيه . فاضربه ضربة يتعظ
بها ويدرك ان يده قصيرة عن ان تطول الدنيا ومن فيها . إن يستفحل شره
ابتلعنا جميعاً يا امير المؤمنين !

فاطربت سمعه بتريد هذا النداء تستميله به الى مرجأتها . والتع في
ذكي فؤاده صدق قولتها . ولكن كيف يدفع عن اربنب بنت اسحاق اذى
معاوية ، أيقاته بالسيف وليس من معادلة بينهما في الجند والارزاق ؟ ...
قال : وماذا اقوى عليه في ابن ابي سفيان يا امرأة ؟

ولم يشأ ان يلفظ اسمها كأث في اعلان هذا الاسم ما يكوي القلب
والشفتين . واجتهد في ان يتناسى من هي . هذه ليست جعدة بنت الاشعث
الكندي المضحية بالحسن بن علي لاشباع شهوة زرية ، بل هي احدى نساء
الكوفة المقبلات اليه في بسط شؤونهن . وآلمها تجاهله اياها كمن لا يود ان
يرتبط بها بصلة ولا ان يعترف لها بقراءة . غير انها رضيت بهذا الانكار محتلة
وهيف مضضه على ان تفوز بأربها . قالت : ألا تقوى عليه بانتزاع اربنب منه ؟
- انتزعا ؟ ... وكيف ؟

- بان تزوجها . اربنب فلتة الزمن في روعتها وادبها . فلن تجدها
شبهاً في نساء المسلمين . فلماذا يغير عليها يزيد وهي بجانبك ، فيستلها من
حضنك وانت تغفو كأنك لا سمعت ولا رأيت ؟ ... ان في مجازفته استطالة
ومهانة . فاطعنه في صميمه واسبقه الى ما يمضي به نفسه . مكر واحتيال وغدر
ليستأثر بريحانة نساء العرب ، فآظهر له ان المكر والاحتيال والغدر تجد من

يطيحها وبصوح ناميها ، وانك حيث تلتفت تظلم في عينيه الدنيا . هذا مجال
كسفك اياه يا امير المؤمنين !

وتكلمت بحماسة وهبتها لها نقتها على معاوية ويزيد . لن تجيز لابن معاوية
الحائن ان يظفر بابنة اسحاق . سترد اليه سهمه . وتلظت وهي تتمثل يزيد
يقترن بارينب . وودت ان تسع من سيد الكوفة الموافقة على ما تدعوه
اليه . هذا مجال الانتقام . فراق التدبير الحسين بن علي . وشخص بصره
الى ابي الدرداء يستبحه . فقال صاحب النبي : انها لفكرة يا ابن الامام .
لماذا لا تكون لك اربنب اللعوب فتعقد شفتيها على شفتين تحضبتا بانفاس
سيد المسلمين ؟ ... والله لست محدثها عن سواك ، بل سأعرض عليها الامر
بجلاء . انت ويزيد تبغيانها . ولا ريب انها ستعرف من تختار . فلن تؤثر
ابن ميسون على ابن فاطمة البتول !

وودت جعدة ان تعلم من الرجل . فما بقي لديها ريب انه رسول معاوية
الى اربنب . ولكن من هو ؟ ... قالت : من يتكلم يا امير المؤمنين ؟
فقال الحسين : هذا ابو الدرداء من رجال الصحابة . نعم بروية جدي ،
صلى الله عليه وسلم ، ولم يشأ وقد ارتاد الكوفة الا ان يعرج علينا . انه
لصديق وفي !

فعمغت تستقصي : هو خاطب اربنب ليزيد ؟

— انه لهو !

فاطمات وقد جاءت في اوانها . قالت : لا تكن عوناً لاعداء النبي على
حفيد النبي يا صاحب الرسول . من راموا بنا شراً يجب ان يدر كوا اننا لن
نسكت عن مقابحهم . خليفة المسلمين هذا ، لا ذاك المتربع في المنصب الاول

ظلماً واقتداراً !

فقال ابو الدرداء : لا تغضي يا ابنتي . نحن نتقياً هذه الدولة وسنظل
جائئين في فيئها لا نعدل به سواء !

فصاحت : وكيف تريد ان ينمو الاسلام والقابضون على احكامه ذوو
تدجيل ومكر ؟

فاجاب ابو الدرداء مستعيذاً بالله : لا شأن للاسلام في سيد يكيد .
فالناس ينهبون والدين يبقون . غرسة ربك ان يستأصلها عبد ينتمّر . اذا
فجعنا اليوم بالضالين فان عهد الضلال غير طويل !
قالت : أأكون رفيقتك الى اربنب ؟

فابتسم . لقد ظهر له مقصدها . ليس سعيها للحؤول دون زفاف اربنب
الى يزيد غيرة منها على الحسين وارنب ، بل حقداً على معاوية ويزيد . فانها
لذات قصة تناقلها الركبان . وعدّها ابن ابي سفيان بابنه يزيد كي تودي
بزوجها الحسن فانجرت ولم ينجز معاوية . وانها من خليفة دمشق وابنه لفي
سورة الحقد . تجاهد في ان تبادلها الطعنة طعنتين . قال ابو الدرداء : ولماذا
لا تسبقيني اليها يا جعدة ؟ ... اطعيا على ما يجب ان تبدو به حيايى وانا
استطلعها مصيرها . لتعلن ما تشتهي نفسها . فاما تكون للحسين او ليزيد .
انك لتمهدين امامي الطريق الى اقناعها باصطفاء حفيد النبي الكريم !

قالت : لن تكون ليزيد . اني لعلى يقين من صدوقها عنه . فقد حدثها
عن محرقة بما فيه الكفاية . وانها لتكرهه كرهها للداء العضال . وزاد في
نفورها منه غدره بعبداً بن سلام زوجها . فهي تحب عبداً الله ، وطلاقها منه
نزع من شقتها البسمة . فاضحت ساهمة ضائعة . غير اني لم احدثها عن الحسين

امير المؤمنين . فما ساورتني الفكرة الا الساعة ، وانا بالباب . ولقد مثلت
بين يدي حفيد النبي لاستيضح امرك ولدعوة ابن فاطمة الى الممانعة في خطبة
ارينب للصل ابن الصل . وشاء الله ان يكمل سعيي بالتوفيق . سنضرب
معاوية وابنه ضربة لن يستفيقا منها . فالى اللقاء !

ونهضت كأنها لم تشقى ولم تسقط الى الارض في انحاء وقد بدت مالكة
قواها جميعاً . قال الحسين بن علي : الى ابن ؟

قالت : الى ارينب . ساطلها على ما يجب ان تعلن وابو الدرداء يعرض
عليها الاختيار . وارينب ذات قلب سليم . فلا تقرب من النكر ولا تميل
الى الارتماء في احشاء النار !

فقال ابو الدرداء : ستجديني في اترك . ذللي كل عقبة ان تكن ثمة
عقبات !

فتوارت كالشرارة . قال الحسين : انها لتشتعل ضغناً على معاوية وابنه .
غررا بها ثم اعرض عنها . دفعها الى هدم الركن الاقوى في الاسلام بعد
السلف الصالح وابقياها تحترق في مذلتها . رماها بدائها وانسلاً في ليل الليل .
ولولا يقيني انها حمقاء ، جاهلة ، لامسكت عفوي عنها . بيد انها آله عجباء
ويشوقني ان تكون تمرغت في خبيتها . وستجدها بين ايدينا سلاحاً قاطعاً .
فنشهرها على من شهرها علينا ونذكر بها منه ما ادرك منا . لا علينا اذا
حطمتنا عدونا بسلاحه . سوف ترى انها تنيلنا الارب !

وابو الدرداء ، مع خشيته انتقام معاوية منه اذا عاد الى دمشق على
انفاض ، سره ان يرى في جمعة النصير على الامنية . فما كان شديد
الاعتباط بما انصرف له معاوية من ختل ومكر وخدعة وتفريق . قال : اني

أبارك منذ الساعة في أربنب لسيدي وابن سيدي !

— أتراها صائرة اليّ ؟

— بل أراها بين يديك . هذه نبلة قاتلة تصمي بها معاوية . فيعلم من تحقق عليهم راية الاسلام ان لعنة النبي في كل حين المقام الاعلى . فما ظهر ابن علي حتى تواري ابن معاوية . وهي خير مقدمة لاقتحامك سدة الخلافة . فالفوز اذا ادركته في طريق فانك لمدركه في كل طريق !

فطرب الحسين . انها لفاتحة بين وبركة . وتلذذ واستبشر . فالسودد النائي عن الهاشميين سيعود الى الهاشميين . فيرجع الحق الى نصابه وبأوي السيف الى غمده . وتراءت الخلافة لابن علي في جلالها وفخفتها فانتشى بالرؤيا . فما اشاه من حلم الفوز بالسلطان في الدولة الفتية ، المسبطرة الى حيث لا تقف بها تخوم . هبت كالأعصار في كبد الصحراء واذا هي تجتاز المدن ، وتقوض العروش ، وتنطلق منصوره عارمة الى ابعد امد . وهنيء الحسين بالنشوة ، وخيل اليه ان عز الامويين نفق ، وان الزمن تفتح عن ریحان صبيح . فما للهاشميين الا ان يتنشقوا العطر المتأرجح والفوح المنثور الطيب !

— اربنب ، ابشري ، وافاك الانس . ستكونين لمن هو اسمي مقاماً
من يزيد واكمل قدراً . ستزفين الى حفيد النبي . ابشري يا ابنة الاصفياء
الاكرمين !

وطوقتها بعنف . لا بد من تطويقها امعاناً في ابداء المسرة . فنظرت
اليها اربنب نظرة لا يخلج فيها الفهم . ماذا تعلن جعدة ؟ ... وودت ان
تعلم . اي غد يرقبها ؟ ... قالت ارملة الحسن بن علي : بلغ رسول معاوية
الكوفة . ولقد رأته وحادثته فيك . واتفقنا على امر !

فملكها الدهش . أبيت مصيرها دون الوقوف على رأيها ؟ ... أنكون
سلعة ؟ ... قالت تستفهم : على م اتفقنا يا جعدة ؟

— لا تقلقي . كل ما قمنا به يكتب لك النصر . انت الظافرة وخصومك
المهزومون . سوف تبصرينهم يأكلون خبيثهم مقهورين !

فصاحت : وماذا جرى ، ماذا ؟

— لن تكوني ليزيد !

— ولمن اكون ؟

— للحسين بن علي حفيد سيد المسلمين !

فوثبت اربنب من مكانها بقلق المرعوب وصاحت : للحسين بن علي ؟ ...
وكيف ابصرته ، واين ؟ ... هل رضي عنك وانت قاتلة اخيه ؟

فضحكت بملء فمها . قالت : ضحيت لاجل انقاذك منه بكل انفة .
فارتبعت تحت قدمي الحسين ذليلة مسترحمة ، وبكيت ورجوت عفوه فما بخل
به عليّ وقد تأثر بدمعي واسترحامي . وشدد عليّ في الانصراف عنه وهو
يجود عليّ بعفوه . فلم يكن يطيق ان يراني . فابيت براح داره وتظاهرت
بالغشيان ازيد به في اسفاقه عليّ وكان لي ما اطمع فيه . فصفا ووهب لي
سماحه . قلت : « اعدائك يحاولون التناهي في تحطيم صلابتك يا امير
المؤمنين !... » . وحدثته عن مقصد معاوية وصحبه وانا اقول : « اسبقهم الى
ارنب . فمن الهضبة ان يستلّوها من جنبك ليزينوا بها قصر الحضراء !... » .
وشعرت بان كلماتي كشفت له عن افق رحيب لا تقلقه فيه الهزيمة . واتفق
وجود خاطبك ليزيد في محله ...

فقطعت عليها ارنب مجال الكلام وقد حذت الى معرفة خاطبها لابن
معاوية : ومن هو الرجل يا جعدة ؟

— هو ابو الدرداء ، من صحابة النبي . شيخ جليل منتفش العمامة ، منتفخ
البطن . خلع عليه جبة تكفيني وتكفيك جهاز سنة . والرجل ينصرنا على
معاوية وابنه . وسيقبل اليك لبسالك عن تخارين زوجاً ، أتكونين للحسين
ام تؤثرين عليه يزيد ؟

قالت : وهل حدثك في هذا ؟

— حدثني فيه ودفعني اليك استحكك على اصطفاء الحسين . فما رأيك في
من اخترت لك ، ألا تجدين في ابن علي الزوج المنشود ؟ ... انه لفي شباب
يزيد وفي جاهه . ابن معاوية يرتع في دولة ابيه ، وابن علي ينعم بعصمة جده
وبمكاته ابيه الامام ابن عم النبي وزوج ابنته . ولست اراك على ضم في

زفافك الى الحسين . فانك لتلقين في داره الرحابة الصادقة ، والبشاشة المأنوسة
الحالية من الكلفة والمصانعة . فلا بمأذقة ولا تضليل !

فحنت رأسها لا تجيب . انما لفي حيرة من امرها . فالأقدار تتجاذبها
غير مشفقة عليها . قالت ابنة الأشعث الكندي: سيكون في حضرتك الساعة ابو
الدرداء ، وسيخاطبك في من تختارين . فالى من تميل نفسك؟ ... أتميل الى
من فصل عنك زوجك وهدم هناك ليستأثر بك؟ ... ابعذك عن تحبين
طمعاً فيك . يا للقاتل كيف اطاعته يدها في خلع القلوب؟

قالت وحيرتها تنطق فيها : ولكن الحسين بن علي متعدد النساء !
— لا عليك . لكل واحدة من نساؤه المقام والاكرام . فلا تسطو امرأة
على امرأة . وما يمنع ان تردان بك دار الانفة والشم؟ ... فانت في حرز الحسين
تردادين نبلاً وجلالاً وترديدن في الروعة والبهجة . والله لن تكوني لسوى ابن
فاطمة . فقد وقفت نفسي على هذه البغية ولن اتهاون فيها ما دام في عروقي
دم يجري . أبطع فيك يزيد؟ ... لا والله ، ان بلوغ الثريا لا قرب اليه منك .
اعتزمت ان احرمه اياك وسأحرمه اياك ، لا لشفاء حزازة ، بل لليقين ان
التلاعب بالقلوب حرام . حطم قلبي وحطم قلبك ، على انك ستأثرين منه لي
ولك . أليس كذلك يا اختي؟

فلم تملك اربنب غير دمع تذروه دون ان تدري بما تجيب . ان جعدة لقابضة
على الزمام كأنها وحدها صاحبة الرأي في المصير . وتجلى لابنة الأشعث
الكندي انها سيدة الموقف . فلن تجد من يصدها عن المنشود . وعلا وقع
اقدام امام الباب . وركض الخادم يقول : بالباب شيخ ضخم العمامة
يستأذن !

فقال جعدة : اقبل ابو الدرداء !

وخاطبت الخادم بقولها : ليدخل الشيخ !

ونهضت للترحيب به وقد ابقت اربنب في وضعتها . فلن تحفل منها
برغبة وميل . فما ترمي اليه ، هي جعدة ، هو المعن والمبرم . وابتسمت لابي
الدرداء بما ملأ وجهها وقالت : مرحباً بسيدنا الاجل الاكمل . انت هنا في دار
ابنة اسحاق . وارنب التلقة المثوى كلفتني ان انوب عنها في استقبالك بما
يليق به قدرك من تعظيم !

وانحنت عليه تمس في اذنه : تم الامر كما يطيب لنا ان يتم . فهي بين
ايدينا كتلة مائعة . لن تعارض في ما نحاول فيها . فما نقرّ يجد منها الموافقة
المطلقة !

ورفعت صوتها تقول : من هنا ، من هنا يا سيدي !

ودخلت به على اربنب . فنهضت له ابنة اسحاق تقديراً لمنزلته وهي تراه
في حجرتها . قال وقد بسط يديه بالتحية : السلام عليك يا ابنتي . شققت اليك
الصحراء على مترامي ملاءتها . فالحمد لله ان اكون بلغت مقرك وانا استرجع
النفّس . فما حسبتني ادركك حياً !

واطال النظر اليها . فهي صورة للجمال الفياض بالروعة . كل ما فيها
آية كأنها سمط آبات . وما استطاع الا ان يلوي عنقه اعجاباً وهو يكبر
ويبسل . لالوم على يزيد في ازعاجه الضمائر لارتشاف هذا الماء الزلال .
وكاد الشيخ يتصابي . على انه جلّ نفسه عن المعصية . قال يخاطب ابنة
اسحاق : حقاً انك لزينة العرب في بهائك المنيف يا اربنب . سمعت بك فانتة
ساحرة ، بيد اني لم اكن اتملك في هذا الحسن المجلوة فيه غوالي السماء . سبحان

من ابدع وصوّر !

فاعترتها حمرة الحجل فزادت في وسامتها واستطاعت ان تتمم : مرجباً
بذي الفضل والنخوة . غاليت يا سيدي في حسن ظنك بي !
وشاع في مبسها افترار كشف عن ثناياها، فارتعش ابو الدرداء على
عتوّه في الكبر . فان في هذا الفم ، المشقوق كالبرعم ، المتحفز لنضو غلافه ، عقداً
من اللؤلؤ النضيد لا يتالك التاعم بروعه ان يخشع في شده . وخشع ابو الدرداء
حيال القسامة العيداء . وبقوة غالبه أوتي النطق فجمجم بابتهاال المتضعع
المستجير : عونك يا ارحم الراحمين !

رخشي على نفسه ان يبيع فذكر انه شيخ وقور . وتصدر المكان وقد
اغرق عمامته في رأسه ليزداد يقيناً بموقفه ومجاورته حد الهوى . قال بلهجة
لينة تجمع بين الادب وجلال المشيب : جئت استشيرك في امر نفسك
يا اربنب . فانت والله زينة الحاضرة وريحانة الجنة . وطلاب استنشااق اربنجك
ضخام العديد وانت تهبين للقلب النداوة والبهجة . فمن الحال وقد رنوت الى
الحلي ان يتناسى نظرة اسرته بها . وافي لمائل امامك في اثنين من سادة هذه
الامة . فهما ، وقد طلقك عبدالله بن سلام ، يصبوان اليك . وكيفما نظرت
اليها وقعت على وهج من النبل والقدرة . فان حظك من دنياك ثري
اثير !

وارينب وقد حدثها جعدة عن الحسين ويزيد لم تجبل ما يهيب بأبي الدرداء
الى الاستئذان عليها . فالسيدان الحظيران افضت اليها باسميها جعدة . قالت :
وددت ان يعفني الشيخ بما يعد لي من خيار . فان نفسي لا تستهي زوجاً
بعد عبدالله وما كنت اعتقد ان حباً يربطني بابن سلام يفصم . فتعاهدنا

على الحياة جنباً الى جنب على الامد لا تبعدنا بؤسى ولا تفصلنا نعمى . نحن
ابداً نحن في ارجوحة الزمن ، فلا يزيح بعضنا عن بعض غير الكفن . واذا العهد
يذبل واليمين تتناثر كالاوراق الصفرة في الكاسحة . واي قدر لحب تهم
دعامته بسمة خالبة في شفتي معاوية ؟ ... لا يا سيدي ، جربت الناس في
اصدقهم مودة واسماهم اخلاصاً فاذا العظيم منهم كالحقير ، والنيل كالحسيس .
فدعني هنا في زاويتي . ان لي من مالي ما يكفيني اتقاء فواجع غدي . لست
اطمع في مجد ولا ثروة . فالوحشة هي النعمة !

وتصاعدت كلماتها حزينة تتوجع . فقال ابو الدرداء وقد تأثر بمنطقها
الكئيب : ولكني لا احاول ان اجازف بك يا ابنتي . فالراغبان فيك يملكان
خيرات الارض ومباهج السماء . فهما بمن يرتعون من الجاه في القمة ، ومن
الذخر في الروي الحصب . أتدرين من هما ؟ ... ابن علي بن ابي طالب وابن
معاوية بن ابي سفيان . الحسين ويزيد . كل منهما ابن خليفة . وما لك الا
ان تختاري . فمن تضحك لك فيه الامنية فهو لك . انها لعطية لم ترشح لسواك .
هذا رضا ربك عنك فاشكري وقولي : « الحمد لله رب العالمين » !

فاجابت دون ان تتأثر كأن الامر لا يلفتها اليه : اراني افضل البقاء في عزلي
فلا اميل عنها . فالحسين ابن الامام وامه ابنة النبي ، فمن يتشرف بتقبيل انامله
يقبض على مفتاح الجنة . ويزيد سيد كريم تفوح في طلعه روائح العظمة
والصولة ، الا اني في غنى عن الاثنين يا ابا الدرداء . والعزلة اطيب جنى . هذه
الوحدة اشهى عندي من التقلب في مهد السؤدد والسلطان . دعني هنا ، في
زاويتي ، في ابقى لي من العز العريض !

وظلت مغموسة في اسماها ، تؤدي كلماتها مجللة بالانين . فقال ابو الدرداء :

على رسلك ، لا اريدك على سهوم . ان العلياء لتدعوك اليها فلا تسدي اذنيك عنها . ربك لا يرضى عن استخفافك بالهبة المنعم بها عليك . فان المنحة الكاسية عندك يزجها اليك الرحمن ، ومن الائم ان تكابري وتعاندي الله في ما يزف اليك من سماح !

فخشيت ان تعاند الله وقد آمنت بكلمات ابي الدرداء وهو بمن اصغوا الى النبي وساقطوه الحديث ، وملاً وادورهم بوصاياه وتعاليمه . على انها لم تبدل في جوابها . فالانفراد مبتغاها . وآلم جعدة هذا الرسوخ في الممانعة فقالت : لا تكفري بنعمة ربك يا اربنب . هذه العطية لم تتفق لامرأة سواك . فالجلال من الناحيتين يبغيك . فالى اي ناحية تميلين ؟ ... تكلمي . أتكونين لابن علي ام تؤثرين عليه ابن معاوية ؟ ... فلينطق فيك خاطرك ! فسكت . فدمدمت جعدة بغیظ : ليس الموقف موقف صمت بل موقف كلام . بحب ايما يخفق قلبك ؟ ... أنتقدين بمودة حفيد النبي ام بشوقك ان ترتبطي بمن يخلع عليك الحب الكاذب ، السريع الانطفاء ؟ ورقبت منها ان تجيب . وجعدة تشناق سماع هذا الجواب من غ اربنب . وهو اذا اطل على غير ما تريد له من الطلعة زادت ابنة الاشعث الكندي في اطلاق اربنب واكرهتها على قبول الحسين . وارنب حارت في ما تعلن كأنها لا تدري من تختار من السيدين الكريمين المعروضين عليها . فلا الحسين ممن يشاح عنهم ولا يزيد ممن يجوز لها ان تصدمهم بالاعراض . وفي الخيار ارتباك . قالت وهي ترغب في ان تتنصل من انتخاب فتاها ، فلا تقع تبعة اصطفائه عليها : ومن ترى ان اختار يا سيدي ؟ ... انت ذو رأي رشيد سديد وانا اثق بك وأقر بعالي فطنتك وبعيد حكمتك !

فايقن انها تترجع على حيرة ، وانها بحاجة الى من يقودها يمينها الى
المحجة .فما توالى عليها من هزات هدا حيلها .قال :الكفتان تتعادلان يا ارنب .
فالسيدان متساويان في كرم العنصر وطيب الارومة . ابن معاوية لا يقل عن
الحسين جاهاً ومكرمة !

فصاحت جعدة : ولكن حدثها عن يجب ان تؤثر على الآخر . فلا
يكفي امتداحها معاً . انك لتزيد في عماها وانت تطري هذا وترفع من
قدر ذلك . من تراه من الاثنين خليقاً بها ؟

وجعدة سمعت ابا الدرداء يتكلم في حضرة الحسين وما غاب عنها ان
الشيخ نصر ابن الامام . فهو بجانب حفيد النبي . ومن كالنبي في المسلمين سيداً
وحبيباً ؟... واصاب ابا الدرداء ما اصاب ارنب من اضطراب وبجران .
اذا هو أيد يزيد فقد اساء الى ابن فاطمة . وان هو سند الحسين فاي شر
سوف يلقي من معاوية ؟... فان ذلك المستقر في دمشق على سرير الخلافة
ليزلزل به الارض . وجرض ابو الدرداء بريقه . اي بلية رماه بها ابن ابي
سفيان ؟... واحس ان ما حوله بدور به وانه في ورطة وبيلة المنتهى . وسزر
جعدة بنظرة ود بها منها ان تكفيه مضض الاحراج . ولكن جعدة وقد
خافت ان يضيع مجهودها عليها مضت في قولتها : تكلم يا ابا الدرداء ، انت
رجل من اصفياء الرسول ، فما فسح لك النبي في مجالسته لولا يقينه انك من
اهل التقى والصلاح ، فماذا ترى في الرجلين ؟... أيرجع يزيد على الحسين
في الفضل والرفعة ؟

فاجاب الشيخ مكرهاً على أمره : معاذ الله يا ابنة اخي !

— أبدو لك ابن ميسون الكلبيية خيراً من ابن فاطمة البتول ؟

فاعلم وجيئه ينضح بالعرق المحرق ، الواخز : لا وترية ابني واجدادني ،
فاين ذاك من هذا ؟

قالت جعدة وقد تجلّت لها الغلبة : واجها اسمي خلقاً ، وارفع همّة ،
واصدق قولاً ، وأعف طبعاً ؟

— ابن علي يا جعدة ، الحريص على آيات الله ونواهي الكتاب !

— اذاً من تختار لها منها ؟

واستدرجته بدهاء صارخ الى الافصاح عن المكنون . قال وهو يتلعم:
اختر لها ... اختر لها ...

— من ... من ؟

— الحسين ... الحسين يا جعدة ! ... أحتاج الامر الى ايضاح ؟

واستلت منه هذا الاقرار بقوة قهارة . فظلت به حتى امالته الى البيان .
وصفقت بيديها طرباً وهي تنتزع منه مطلبها . والتفتت الى اربنب تقول:
هل سمعت يا اختي ؟ ... أتظلين شهادة اوفي ؟ ... ابن فاطمة يحوص عليك
ويكرومك ويلمّ بقدرك . اما ذاك ، المحتال المخادع ، فانه ليطرحك كالنفاية
وقد اكفى منك . فاختراري الآن ، اختراري ، هل يبدو لك السعد في يزيد
الكافر الضليل ؟

فلم ندر اربنب ما تجيب . والتوت جعدة على ابني الدرء تقول بشدة:
امسك بطوقها وسمّ بها في المبيع الآمن . هذه امرأة سليمة الطوية ، فمن الظلم
المجازفة بها . من تراه خليقاً بها ؟ ... تكلم ، أعدّ علي مسمعا القول الصادق
الحمي !

فكاد ابو الدرء يخنق وقد تمثّل معاوية معوبداً هائباً ، يتهدده ويوشك

ان يسحقه بنظراته الحاقدة ، الناقمة ، المشتعلة بنار الكره والغضب . قال
وقد القى رأسه بين يديه كمن يحس بالفاجعة تحل عليه ولا يجد له سبيلاً الى
النجاة منها : الحسين ... الحسين ... هذا هو الهادي الامين يا جعدة !

وارتجف . اضغان معاوية تصب على رأسه . ومعاوية رهيب يتقى .
وسادت جعدة وادركت مجدها مثلها في عهد الحسن زوجها . فان رايتها
للراية المنشورة . وانكفأت الى ارنيب وبداهها تسندان وسطها وهي تقول
بلهجة المنصور : هل سمعت ، هل سمعت ؟ ... الحسين ، الحسين دون
سواه . نطق الشيخ الحكيم . اذا شئت الحياة الهنيئة ، العذبة ، الامينة ،
فلا تلتوي عن عصمة ابن الامام . هؤلاء القوم عرفتهم الا اني كنت حقا
يوم غدرت بهم . ولم يحرضني على الغدر غير الثعبان الطامع في لسعك . فلا
تذهبي ضحية رخيصة مثلي !

والتفتت الى ابي الدرداء فاذا به لا يكاد يتأسك . فقد استرخى . اذا نجا
من بطش معاوية فكيف ينجو من بطش يزيد ؟ ... وخطر له ألا يعود
الى دمشق ، فيلوذ بكنف الحسين . ولكن يد معاوية ستدركه حيث
يكون . ووضع فيه الارتعاش . فقالت جعدة : ماذا اصاب الشيخ ؟ ... اني
لارام مريض الروح !

فانتفض كأنه يطرح عنه هواجسه وقال : لا شيء ، لا شيء يا جعدة !
فلا بأس عليه اذا ضحى في سبيل اهل البيت . ان للمستشهد الجنة .
قالت ابنة الاشعث الكندي وقد رامت النفاذ الى طماحها : وعلى م
اتفقنا ؟ ... اي جواب هو جواب ارنيب كي تحملها الى مصطفاها ؟
فقال ابو الدرداء وقد شدد من عزائه والاستشهاد يضيء بوجهه في عينيه :

لم يبق من حاجة الى التردد. شققتا امامنا الطريق وبياب الحسين ألقينا عصانا
ولن نعدوه . ابنة اسحاق لابن علي ولا محيد . فان هذا الاهتداء لمن وحي
الله . طيبى قلباً يا ابنتي ، مصيرك مصير ارباب النور والرشاد . ان من احتضنه
النبي ليحضنك . فما بعد شأوك واكرم نجارك !

فهبث علي ارينب عاصفة من بكاء . فصاحت بها جعدة : أتكونين من
نصيب الحسين وتبكين ؟ ... هذا جنون اعمى . اغتبطي وليفرح قلبك .
فمن يتمتع برضا ابن فاطمة ضحكت له السماء . لا تكوني غيبة مثلي .
انا بعث سعادتي بالباطيل . ولو عقلت لابقيت على نعيمي لا اهدمه بيدي !
فقالت ارينب وهي تغتسل بشآيب دمعها : وددت من زميني ان يبقيني
لعبدالله ولا كانت هذه الشدة . فاني بجانب عبدالله في متجه خاطري ونبضة
قلبي !

فامسكت بذراعها جعدة وصاحت بها بتزق : أتبكين ؟ ... أترحف
اليك المنى وتعثر في بابك بالنشيج ؟ ... والله دعيني اضحك منك . فلست
ادرك ما يرضيك . أتتهال عليك رحمة الله وتقيمين منها على نفرة ؟ ... انا لا
اجهل حبك لابن سلام . فانك لمتفانية في حبك . ولكن ابن سلام لم يبق
لك . فقد باعك . والى من تركنين وانت بحاجة الى عاصم يدود عنك ؟ ...
أستسئمين الى معاوية وابنه وهذا رسول معاوية نفسه يميل بك عن السقوط
في المهواة ؟

قالت وهي لا تبرح على اضطراب في بت مصيرها : الحسين زينة الدنيا
يا جعدة ، ولكن عبدالله !
فلم تقو جعدة على الاحتمال فوق ما عانت من ألم . وانفجر فيها الغيظ

واندلعت الزجاجة : أتلقين الارض بعبدالله وهو نابذك ... آمنا بان عبداً
وحيد دهره ، فماذا لقيت منه غير المهانة؟ ... اذراك كما يزدرى الاجير .
فكنت لديه أمة مبتذلة بل سلعة للمساومة . على حين انك في رحاب الحسين
سيدة جليلة تأمر فتطاع . ومن هو عبدالله بن سلام بجانب ابن الامام؟ ...
اعلني موقفك . هذه الزجاجة ما لنا ولها وليس من حاجة بنا اليها . لمن
اتت؟ ... صاحب نبي الله يرقب كلمتك . ولقد انتظر طويلاً وأمضه
الانتظار . أتريدن يزيد زوجاً لك؟

فاجابت والدمع في عينها لم يرقأ : لا يا جعدة !

— أنت للحسين ، لابن فاطمة ؟

— اني لاستهدي بهدي ابي الدرداء !

فتنفست جعدة بملء رئيتها وقالت : ابو الدرداء يريدك للحسين !

فاجابت بصوت ضعيف ولكنه صريح : وانا لمن اختارني صاحب الرسول !

فقال ابو الدرداء وهو يجاهد في دفع مخاوفه عنه : بورك فيك !

وهوت عليها جعدة تقبلها بشوق وغبطة وهي تصيح طرباً ولا تدري كيف

تصيح : احسنت ، احسنت . ان ربك لفي عونك . لم تبلغ امرأة ما

بلغت من الرفعة والحسب . انت امرأة امير المؤمنين . يا حللاوتك في حسن

اختيارك !

وقالت لابي الدرداء : ابلغ يا سيدي ابن فاطمة ما سمعت . ان مشيئة

ربك هي المشيئة الغالبة . ارينب اصطفت حفيد الرسول صاحب القول القصل

في عالم المسدين . فلا تزال الكلمة الاخيرة كلمته والحمد لله !

واحست بانها اتقمت . ضربت يزيد في كرامته وفي كبده . ان سلاحاً شهرة

عليها اطعته به . فما اجملها من ساعة قبضت فيها على خناقه واستأصلت روحه .
أم منه كم حطم من افئدة ، فلا حرج عليها اذا حطمت فؤاده وشقت احقادها
المدلعة النيران . فقال ابو الدرداء وقد سره من اربناب ان تميل الى الحسين
كما هاله منها التواؤها عن يزيد: سابلغ سيدنا الحسين مشيئتك يا ابتي . غير
اني اعالك منذ الساعة انك مخطوبة له . فقد فوض الي امر عقد هذه الخطبة .
لك الهناء ، اصبت في اختيارك !

ونهى . لقد ادى الرسالة وقام بالمهمة . وودع حيران عائداً الى دار ابن
الامام . فماذا سوف يلقي من كيد معاوية ؟ ... ونفتت جعدة في مسمع
اربناب : اتعلمين اي هزة خضضت بها بسطة الاسلام ؟ ... احدثت في
التاريخ رجّة لا تهدأ وكتبت فيه صفحة لا تمحى . فانت منذ الساعة في
افواه الاجيال ، يتناقل امرك الحلف عن السلف حتى تأزف النهاية . نيلتك
مزقت قلب يزيد ، كان الله في نصرتك . فقد انتقمت منه جماعة وافرة من
الضحايا !

وذكرت ما كان من يزيد فيها فبكت . هي في عديد اولئك الضحايا
المناكيد . ولم تكن بحاجة الى هذه الكبوّة تهون بها . ولكن يزيد اغواها ،
وانها لها لكة لا تجد من يعطف عليها وبؤاسيها . كانت في الذروة فهوت الى
البؤرة .

واربناب بكت . ماذا سيقول فيها عبد الله بن سلام وقد رضيت بسواه
زوجاً ؟ ... هي لا تبرح على حبه مع طلاقه اياها . ولم يطلقها طائعاً بل
مكراً . انها من هذه الحقيقة الوثابة لعلى يقين جلي . خدعه معاوية انجازاً
لمأرب وفصله عن امراته ، عن تبادل الهوى ، ليؤميه خسارة في الطريق ويقضي

عليه بالهلكة . وساءلت ارينب نفسها عن مصير عبد الله . ففي اي ارض بينه
ابن سلام وقد رذله معاوية ؟ ... ان له في خزانتها مالا اودعها اياه ، وهي
امينة على الوديعة تحرص على ردها على جمام . ونظرت اليها جعدة والدمع
يغشى المقل الاربع وقالت بانين : على مَ تبكي اختي ؟

فاجابت ارينب : على ما تبكين عليه يا جعدة !

وتفاهمتا بلا بيان . انها لتذبيان الدمع تحسراً على حب مهدور . فكلماتهما
على فجيرة بالمودة . ارينب تذكر عبد الله وتتوح . وجعدة تتمثل بزويد في
سخره بها وتتلطف . فلا تزال تحن اليه على غدره المقيت . ليته صدق في ما
صارحها به فلم يصر عودها ويبدد مبهجتها فور ظفره بمقصده منها . لقد كالت
له بمكياله ، غير انها آثرت ان لا تقيم منه على قطيعة بل تستوي واياه على

حب سميع

وطال السهوم والبحران ، وما ترحزحت المرأتان عن مجثمها الا والليل

يطبق بيديه من النهار الاجفان

والحب سكرة دائمة لا ينتهي امدها . فاذا لم يعيش فيها من تحدر بها

عاش بذكرياتها الخصال .

دمشق والكوفة ترقيان طلة ابي الدرداء بشوق الظامء الى سماع البشرى
 وخشية المرتاب بالعاقة . فالحسين وقد اقتحم المضار لم يكن دون يزيد هياماً
 بالوقوف على رأي اربنب فيه . فانه ليمضه ، وهو ابن الامام ، وحفيد
 الرسول الطامع في الخلافة ، ان يتخاذل ويكبو في الوثبة . فيتفوق عليه
 ابن معاوية ، خصمه العنيد ، وبذله حبال المسلمين . فيقال فيه ان معاوية
 كسف آل البيت في السير والعسير ، والجليل والحقير .

واقام الحسين بعد الدقائق والثواني . واستبسط ابا الدرداء فاصابه
 من القلق وهو على رمية سهم من اربنب ما احاب ذاك المنقلب في دمشق
 على جمر لا يحمى ولا تطفو عليه نقائات الرماد .

ولعن الحسين تلك الماكرة جعدة . فهي طوحت وعرضته للهلكة . فلم
 يفكر في اربنب ولا عرضت له في بال . فكل ما جنح به الى التحدث
 عنها غدر معاوية بزوجها عبدالله بن سلام واحتياله على الزوج ليسلخها منه
 ويسخو بها على يزيد . ولولا خدعة معاوية وتحريض جعدة لاقام منها خلي الضير .
 ولكنه يرغب في نهزة يحط بها من قدر خليفة دمشق ويظهره في رجة الاسلام
 كليلاً مهيناً . وارشدته جعدة الى السانحة في اربنب فتصيدها وهو على يقين انه سيطبع
 جبين ابن ابي سفيان بالكسوف . فالتكايه تملت فيه لا الصباة . فليس
 من المحمدا لآل البيت ان يستبيح ابدأ معاوية حمام ، فلا يرعوي غن غواية

ولا يعفّ عن حرام .

ولكن ما بال ابي الدرداء يبطن في العودة، أحتاج جواب ارينب الى مطّ ومطل...؟ ان خاطبها من يتبرك المسلمون براحته وينحنون حتى الارض بين يديه . وغشي العبوس محيا ابن علي . هذه ورطة لم يكن يود فيها الزلق . وساءل نفسه ماذا يكون منه اذا خيبته ارينب وآثرت عليه يزيد . وجلجلت فيه النعمة . فهو حائق على ابي الدرداء وجعدة وهما طرحاه . في الحفرة وجازفاه وبسامي منزلته وافتأنا بنهائه . ومثل معاوية ويزيد في مديد فرحتها وقد طار اليها ان ارينب ازدرته وفضلت عليه يزيد . فضاقت به ارضه ونهض وجسده يغلي بالحمى ومشى وكأنه يمشي على وخر . فبدا مضطرب الخطو ، تعب الضمير . فالفضيحة هالته في فحيحها وخرزيتها .

واطل من احدى الشرفات يبحث عن ابي الدرداء في الطريق . أما حان له ان يعود من المهمة...؟ هل يفاوض في ابرام هدنة وعقد صلح كي تقعد به وعورة الحوائل عن الانجاز...؟ ولكن ابا الدرداء هنا هو . اطل يبرسه الابيض . فتنفس الحسين . سيطلع على رغبة ارينب . غير انه ما برح في ارتباك . هل رضيت به ابنة اسحاق ؟

وثوى في مقعده ينتظر على بحران . وجا اليه ابو الدرداء بمشبهه الوقور باسماً طروباً . فتهلل وجه الحسين . باتت الامنية في مستقر يمينه . قال وقد تألفت فيه البهجة : ماذا يا صاحبي...؟ هات ما عندك عن ابنة اسحاق ! فاجاب ابو الدرداء ، بانتفاخ ، شأنه يوم ظفر لدى معاوية بعبد الله بن سلام : كل ما عندي يرضى به عني سيدي . ارينب أمة بين يديك !

فاستوضح الحسين بنهمة الفضول الملحاح : هل اجابتي الى مطلبي ؟

فعلت صيحة ابي الدرداء وضاحة البشر تجار بالقول: ومن تجد كابن فاطمة بين طلابها؟... أتكابر وابن الامام يسخو عليها بنفسه؟... ابدت اسفاً على عبدالله بن سلام وجهرت بجبهاله . فهو عندها الحفي الاثير . غير انها بعد عبدالله لا تمفو الى سوى زين شباب المسلمين الحسين بن علي . وافضت اليها جعدة بما ستلقى من نعمة في هذه الاكناف فشغفت بان تنفياً ظلك وتأوي الى كفك . ولك ان تعقد عليها قرانك ساعة نشاء !

فاتسعت نفس ابن علي وانبسطت فيها الهناءة . ضم اليه اجل امرأة في دنيا العرب واحرج معاوية وابنه . فالفوز بارينب لطمة للخصم المستفحل ومدرجة الى الصوت البعيد في كل بقعة تحقق عليها راية الاسلام . قال الحسين: ارى ان نسرع في عقد هذا القران يا ابا الدرداء ، فماذا تقول اذا توليته بنفسك ؟

فضحك رجل الدين ضحكة ما خلت من رهبة . ألا يكفي انه خطب ارينب لابن علي حتى يكلفه ابن علي عقد القران؟... فما تكون حجته لدى معاوية وقد اوفده ليخطب ارينب ليزيد فخطبها للحسين ، ولم يقف عند الخطبة بل عداها الى الزواج وعقد بنفسه لابن علي على ابنة اسحاق ؟

انها لطمنة شادخة هذه المداورة . فمن مهد لابي الدرداء الطريق الى الحسين ، بل اي حاجة له بمرأى الحسين والرجل من خصوم الامويين ، من ابعدهم كيداً واقتلهم حقداً؟... لقد قضى الشيخ المتبرنس بما استطاب دون ان يستعين بمشورة . فعصى ولي امره وندّ عما فوض اليه من امر . وهل يجمل به ان يصدم الخليفة في ما عهد اليه فيه وثمة خطورة قد تزلزل دولة؟ وتعتز ابو الدرداء بحشيته . وكاد يرفض دعوة الحسين الى عقد القران ..

حسبه ما اثقل به عاتقه من تبعه . فلن يظفر من معاوية بسماح . غير انه عادل
بين دنياه وآخرته وابى ان يخزوا الحسين . فاي قصاص يجبه به النبي في
الجنة وقد مانع في التوفر على مرضاة الحفيد؟ . . . وود ان يمضي في تضحيته
بعد ما خطا الخطوة الاولى فيها . فاذا انتقم منه معاوية فله المنتهى . وآثر
ربه على دنياه . قال وقد تراءى له انه يلمس بيديه اديم السماء : ما كنت
لاجنح عن تحقيق ما يرشح به مقول سيدي . فان يكن الحسين يريدني على
عقد هذا القران فاني للمجيب المطيع !

فقال الحسين: سميت يا ابا الدرداء . نحن نتقذك من ابن هند اذا بغى عليك
فلا ترهب شره . لا تزال نملك سيوفاً نقاتل بها وصدوراً نعرضها لطعنات
الاسنة . ان بني هاشم لقوم يجانبون الواقعة . اما اذا اقتحموها فلن ينشوا
عنها الا وعدوهم يجرض الهزيمة . معاوية لم يلكنا بالسيف ، بل بالمكر .
وانت ادري الناس بامرنا . فاذا طاب له ان يصدمننا بالسلاح ، بلا غدر ولا
خداع ، فليقبل . ولكنه لن يفعل . اراهنك انه لن يفعل وهو في دهاء
الافعوان . فلا يقوى على سوى الرئاء ينتضيه علينا . والرئاء لسنا منه ولا
هو منا . فاننا لقوم نشأنا على الصدق وسلكنا النهج السديد . لا تحف من
معاوية وانا كافيك لؤمه . ان مرابع الهاشمين لمفتوحة لك ابواها ، فانزلها
بسلام !

فتحس ابو الدرداء وقد احاطه الحسين برعايته . قال : ما كنت اخشى
في معاوية كيدته ولا سورة حقه كبي اتهميه . ساءلته بما كان من اربنب
وانقض يدي من الظنة . فما اقدمت على سوى ما دعيتي اليه ابنة اسحاق .
هي اختارت وليس لي عليها حق الاكراء . واذا عاند ابن ابي سفيان في

تصديق مقالي طلبت منه ان يكونني بغضبه ولست افزع منها الى راجح
الحلم فيه !

فنهض الحسين الى ابي الدرداء يقبل كتفه ويقول: احسنت ، احسنت .
آمنت الآن بانك من الخالص ، كم يشوقنا ان نقع على امثالك الصالحين !
واعاده الى اربنوب يعقد له عليها . خير البر عاجله . وتقدها المهر الغالي .
امرأة الحسين يجب ان ترتع في صداق ثري . وماجت الكوفة بالقول : فهر
الحسين عدوه معاوية !

والكوفة ساخرة خبيثة تشوقها الفضائح تتداولها والخفايا تذيبها . واخوات
فيها الشماتة والحسين ينتقم لعبدائه بن سلام من غاويه . وجمعتها المجالس في
الساحات والدور تهزأ فيها بيزيد وبابي يزيد . ضحكا من عبد الله فضحك
منهما ابو الدرداء . أما اهتديا الى سوى ابي الدرداء يدفعانه الى مسعى لا
يجيد احكامه سوى اشياء معاوية؟

ضلّ ابن هند الطريق وما عودهم الضلالة . فمن حاك المكيدة الدهياء ،
وسلب عبد الله بن سلام امرأته ، يجب ان يملك نظراً ابعده ورأياً انفذ . فلا جهون
بامثال ابي الدرداء . وتساءلوا : هل خبا في معاوية الذكاء اللئاع ؟

ومشت الكوفة باسرها في العرس . الحسين بن علي يتزوج . ومن
يتزوج ؟ ... وكيف يتزوج ؟ ... وزادت حكاية هذا القران في روعته وفي
الاقبال عليه . فالجميع ودوا ان يبصروا ابنة اسحاق في حلتها البيضاء تجتاز
ازقة المدينة الى دار ابن الامام . وعلت الهازيج من كل فم . وسار الحداة
على متون النياق ينشدون اناشيد الغبطة وقد حوت كل طعن على معاوية وكل
استهانة بالامويين . ومن يستطيع ان يحول دون المثالب تقيض بها مراسم

الكوفيين وما في القوم غير الناقمين ، الطوال الالسن ، الشائين ؟... فان الكوفة لضرة دمشق وخصيمتها ، لا تمت بصلة الى بني أمية وهي ترى فيهم اعداءها الالدة

وذكرت اربنب وهي تتمايل في حلة العرس عبدالله بن سلام . ما كانت ترغب في هذا الموقف ونفسها تشتهي الحبيب النجبي . غير انها شاطرت القوم النقة على معاوية في غشه ومينه . هو قاهرها وستقره في ابنه ، بل ستقر الالئين معاً . حارها ابن ابي سفيان في قلبها وستحاربه في جاهه وسؤدهه ، وفي قلب معقد رجائه يزيد . وابتهجت روحها . يوم الانتقام هذا هو . والكوفة على سعتها نادت بان الانتقام وقع ، وان الحسين ثار لايه واخيه . واستدلت على الغد بالعبرة الطارئة . لن يدوم سلطان الامويين . فان هذه الدولة العريضة المتلاثلة فيها سيوف بني أمية ستقضم بهم وينتهي الامر الى بني هاشم آل البيت وعترة النبي .

ولكن هل ضحكت الكوفة بل جنانها ، هل اخلصت في اندفاعها ومشت بجانب الحسين على ايمان ويقين ؟... ان للكوفة مواقف لا تدل على ثبات في النصر . ربما مالأت اليوم ابن علي وانكرته غداً . فهي كما يخاطر لها في السانحة العارضة . فقد تؤيد وقد تجانب . فليس لها رأي صليب . ومناداتها بالحسين دعيتها اليها ساعة الطرب والفوز . فالحسين هو الظافر ، والظافر يجد حوله حتى الحصوم ، بل يقع على الحصوم قبل الاعوان . فالاعوان لا يكلفون انفسهم ما يتكلفه ذوو الوجهن واللسانين . ثم ان الطرب ليس الحرب . فالحسين لا يدعو الى القتال بل الى الفرح . والفرح يلقي في موكبه كل ما هب ودب . فليس يتنكب عن الانطلاق في قوافله احد والجميع يروقه

ان يضحكوا ويهزجوا وينشدوا ويأكلوا ويشربوا . والقليل القليل من هذا
اللفيف هوى الرمح والسيف وخوض المعارك الهوج
وزفت اربناب الى ابن فاطمة زفاف اميرة الى سليل ملوك . وخطت
الهدايا مطاياها بباب ابن الامام فكادت تضيق بها الفسحات . وطال العرس
اسبوعاً والشعراء لا يتغنون بجمال اربناب ، ولا بابتهاج حفيد الرسول باجمل
امرأة حواها بساط الاسلام ، مثلهم بالنيل من معاوية ويزيد وبازدهار العزة
الهاشمية . فالسيف الهاشمي عاد الى الى مضائه وقد وثب من غمده يجلو عنه
الصدأ

وجمت جعدة حولها اسنى فتيات الكوفة ووقفت فيهن تحمن على
الرقص والغناء . وبلغت الحماسة ما لم يبق فيه لمستزيد أرب . وتهادت جحافل
الفرسان وقد ارتادت الرماح في الايدي تنادي بالحسين خليفة المسلمين
ولم يعد معاوية العمال يستمعون ويتجسسون . غير ان معاوية لو اقبل
بنفسه الى هذه الامواج المتلاطمة لفرق فيها ونوزعته الافواه لقمة لقمة وليس
يكفيها . فالثورة كان يومذاك اوانها ، الا ان الكوفيين لم يعثروا بمقاوم
ولا بمنازل . فتطاولوا ما شاؤوا دون ان يجسر مقحام على نظرة يعلن بها
تأففاً وامتعاضاً . وانتضى الفرسان على ابن هند وودوا ان يسيروا الى دمشق
يفتحونها بسيف الهاشميين . فالانتقام الابيض يفرض الانتقام الاحمر
واسفق الحسين على ابي الدرداء وقد همدت فورة النشوة . ان معاوية
لقاتله . فلن يجيب دمه وهو الممعن في ايلام يزيد . فالفتى الاموي وابوه
يحتملان عودة اربناب الى عبدالله بن سلام فوق ما يحتملان زفافها الى الحسين .
انها لزلة تقلقل مناعتها في الدولة الريانية . قال ابن علي مخاطب الشيخ بالحديث البصير

الحكيم: ابا الدرداء، لم يبق لك مكان في ظل معاوية، فاقم بيننا مرموقاً،
مكرماً. فانك لتلقى فينا الانصاف والبهجة. اني لاخاف عليك من حقد
يزيد إن تنعم بسباح معاوية. يزيد لا يغفر لك ضربة سددها منه الى صميم
طماحه فادميت فيه القلب والانفة وابخته لعضات الغاضبين. سينقم علينا
معاً، عليّ وعليك. وسوف يتعين الفرص لطعننا. فكمن منه على حذر.
هذا في حقوق لا يصفح عن اساءة ولا يصر على جرح. انا اعرفه، فمن يخدشه
نصيه منه التحطيم بلا هوادة. انه ليطرب لرؤية الفواجع ويستلذ الغوص
في الدم. ابوه، على سافل مكره، اسمى وارحم. فلا تصطمم بكيده.
اذيتك له سيحفظها عليك ويحاسبني عنها. اما انا فانك لتعلم مقدار ازرائي به.
واما انت فكيف تنجو من منسره وبوثه. إبقى بيننا. فلا تعرض صدرك
للبنايا!

ولكن ابا الدرداء وقد وطن النفس على الاستشهاد مال عن النصيحة.
لن يبالي الضربة يهدمه بها ابن هند وابن ميسون. فهو من ايامه على استصفا.
ولن يمتد به زمنه الى يوم القيامة. قال: ادام الله بقاء سيدي ونفعنا ببراته،
لست اريد ان يعتقد معاوية اني خنته. فعليّ ان اسير اليه اوضح له الامر
كما وقع. واذا ابى ان يصدقني وشاقه الانتقام مني فلتطل بمنه انفاسي وليستلها
مني وقد سبقني في الشوط ابوك واخوك!

— ولماذا المجازفة يا ابا الدرداء؟

— لا مجازفة يا ابن الامام. معاوية لا يجرو على الفتك برجال الصحابة

وهم السنة الحق وسيوف الرسول!

فادهشت هذه الثقة بالنفس الحسين وقال بريبة تجنح بابي الدرداء عن سمته

الطرون: اراك شديد الايمان بكرمه وحلمه كأنك تجهل من اودى بالحسن اخي
ومن اغتصب الخلافة من ابي معاوية لاتؤمن لسعته، فحذار ان تلدغك الافعى!
ولكن ابا الدرداء لم يجيب . سيعود الى معاوية يطلعه على ما لقي في
الكوفة وقد التوى فيها عليه القصد . ولا يد له في هذا الاتواء وهو
منه طاهر الثوب ، نقي الدين . اريئب تمنع في ان ترّف الى يزيد بعدما
وضع لها احتيال قصر الخضراء على عبدالله بن سلام زوجها . فأثرت ابن علي
تشفياً وانتقاماً . قال الحسين : وهل يترامى لك انك تقنعه ؟

— لست احفل بما يكون منه . حسبي اني حاصبت ازاءك وازاءه ضميري .
اني لانطلق اليه على ايمان باني قمت بما علي !

فصاح الحسين : ابا الدرداء ، لا تشخص الى حتفك !

فابتسم كمن لا يخشى الختوف وقال : سيدي ، استشفع في جدك صلاة
الله عليه وانا بأمن من سخط ابن ابي سفيان بن حرب !

وغشي الحديث مسامع اريئب وجعدة وكانتا من الرجلين على وثبة .
وشاطرت جعدة الحسين بخارفة على ابي الدرداء فدلقت اليه تقول : لا
تقتحم اشداق النار يا سيدي ، انت في الكوفة بأمن من العائلة . فاذا نجوت
هناك من معاوية فلن تنجو من يزيد . فاني لاخشى عليك من ابن النصرانية .
هذا فتى يزدرى الكرائم ويطيح المصونات . فلا وهب جليلاً ولا يتجافى
المنكر . صارمه وانت الطويل العمر . فان سعيك اليه بعد هتانك في
النصرة وبال عليك . لكأني اراه يلحوك لحو العود فاحذر المقاربة . ان
سيدنا الحسين ليدراً عنك الاذية فلا تبرح حماه !

فابتسم برفق المطمئن . اذا قضى عليه معاوية او يزيد فان له بمن سبق

من رجال القافلة الميامين لقدوة حسنة . فليس بالضحية الاولى من ضحايا
الظلم . قال : لا مفر من المقدور يا جعدة . مرحباً بالكتوب . لست اتحامي
مشيئة ذي الجلال !.

فقال متأففة : أتطلق الى المهالك وتكل نفسك الى الله ؟... من لا
يصون نفسه من الزلزل فلن ينجده ربه . مسيرك الى دمشق شؤم عليك !
واقبلت اربنب تقعد به عن المجازفة . قالت : انت بيننا في اكرم اهل
واصدق خلان ، فما بك تحاول النأي عنا الى حيث بصطادك ذنب موتور ؟...
لا تبرح الحمى ، فأنت هنا على الرحب . لسا نرضى ان يطولك الاذى
وقد رغبت لنا في السعادة . دمشق كلها انياب لنهشك وقضك !

فمضى في ابتسامته الرضية ، ابتسامه القانع بشقاء الدنيا لكسب الآخرة .
ولم يتبدل عزمه . سيركب مطيته الى عاصمة الامويين . فلن يبدو ، وهو
من رجال الصحابة ، خائناً جباناً . فالمهمة المنتدب لها لم يكتب له فيها
التوفيق . وكان على ابن هند ان يختار سواه للامر الجليل وقد سلك فيه
مستوحى الضمير . فان ابن علي لانبئ وجهاً من ابن معاوية

وودع الحسين ووجهه . ودعا لهم بالغبطة الوارفة الميلاء . وحث جواده
الى قفار طوال ، سمر ، عانى فيها الضنى وسيعاني الضنى . وتلبدت في جبينه
غمائم دكن . فهو غارق في تفكيره . ماذا بدر منه ؟... اي حقد زاد في
اضراره واي نكبة جرّها على نفسه ؟... أيقوى على الوقوف من معاوية
وجهاً لوجه وهو يتمثل منذ الساعة غضبة معاوية عليه ؟... ولكن اذا سدل
معاوية الحلم على الزلة فهل يحلم يزيد ؟

وكما جاب الغدافد ثقلت عليه الوسواس وتعاضم وقع الشر . الى اين

يسير؟... أيجهل انه منطلق الى اسدق الموت ، الى الجزار المنتضي
السكين لذبحه ؟

وكل ما تدمر به من طول الطريق وهو مقبل الى الكوفة تلاشي فيه
وهو عائد الى دمشق . فود ان يطول الطريق الى ما لا حد له ولا نهاية .
ليت كانت دمشق في اطراف العالم . فلا يبلغها الا وانفاسه على وشك ان
تطير . بل ليت تطير انفاسه في هذه الصحراء ، فتطويه حفرة في الرمال
المضياف ، المتأججة حينئذ الى انيس وقد اقامت من وحشتها على ملل
واكتئاب

ومال بالركب الى الهويثا . فليس ما يفرض العجلة . دمشق لن تفر من
مشاها . فهي على ضفاف بردى وستبقى هناك مشدودة الاطواب ، مغبورة
بالحور والصفاف ، فلماذا اجهاد النفس في الوصول الى مدينة لا خوف عليها
من فناء ولا نوى ؟

ورهب دمشق . بات اسمها مقبلاً لديه ، فكأنها دار سقاء . واعتزم ان
يجو من ذهنه اسم معاوية ، وان يتجاهل يزيد . لماذا يخشاهم بهذا المقدار؟ ..
انهما لمن طبيته ومن معدنه . فالخلافه لا تزيدهما قدراً . لن يرججاها عليه
وهو بمن آثرهم الرسول بعطفه وحده . ولكن أيتعامى عن الراهن المحسوس ،
أينكر اتراق الشمس ومعاوية وابنه يسطعان كالشمس في مجبوحة الفلك؟ ...
ان اشعثها لتمتد من القسطنطينية ، قاعدة الروم ، الى حدود الصين . فالى
اين المفر منها وهي تشتعل سوّداً وصولاً؟ ... وها هي في كبد الصحراء
تقلي وتشوي . وان ابا الدرداء ليشعر بلبسها . فهي تكويه . ان معاوية
هنا ، ينشر سلطانه على هذه الرمال كما ينشرها على الحواضر ، فما هذا السيد

المستطيل ؟

واستجد ابو الدرداء بارواح من ضمتهم الجنة من سادة الاسلام الغطارقة ،
ولكن هل يشفع الميت في دره المكروه ؟... غير ان الايمان ، وهو شعلة
متوهجة ابدآ في نفس ابي الدرداء ، لم يخب في صدره مضطرب
الاوار ، يهيب به الى متابعة المسير ، صائحاً به : لا تخش !

وكلما وهنت في ذلك الشيخ همه الكفاح امدها الايمان بالعزة والمناعة .
وشعر ابو الدرداء بالضعف والعزيمة معاً يعتلجان في صدره . فلا يتلاشى فيه
عرق حتى يتصلب عرق . وانقضت على الركب الايام الطوال في طريقه
الى دمشق وابو الدرداء منصرف الى شجونه . فلا يخاطب من حوله وهو في
شغل عن حوله . كيف يعتذر لمعاوية ، وهل يجدي العذر ، مهما كانت من
وجاهته ، في استدرار حلم ابن هند وكسب رضاه ؟

لقد تراءى لابي الدرداء في اعماق نفسه انه لم يكن صادقاً في اداء المهمة .
فهو مكلف امرأ واضحاً فلماذا جنح عما عهد اليه فيه ؟... وطال تقبله في
وساوسه . وادرك من في الركب ان ابا الدرداء غير مستقيم الي مصيره وقد
خاف سوء المغبة . فكيف يريد معاوية على امر جليّ فيعود اليه عابثاً
بالمشيئة والرغبة ؟

وساد الوجوم الركب . فهو يطبع الرمال برواسمه بخطوة فاترة ،
خائرة ، كأنه يمشي في جنازة صفيّ ظلمته الاكفان

أهذه هي دمشق؟ ... لقد تبدلت في عين أبي الدرداء . فكأنه يؤمها
 للمرة الأولى . فهي في نظريه غيرها بالامس . وانه ليسائل نفسه اين هو؟ ...
 ما هذه البساتين الجمهم البادية لعينيه وقد كانت متناهية في اخضرارها ؟ ...
 ما هذه الوجوه الطالعة عليه وكأنه لا يعرفها ؟ ... فهو في عالم جديد العين
 والحد .

ورمض قصر الخضراء في باصريه فارتعش وانتقع لونه . فالشر يبطن
 هذه الجدران الشوامخ ، القائمة في صدر دمشق وكأنها قضاء الله ، الباسطة
 اجنحتها بالرحمة وبالرهبة . فالظلم فيها والحلم فيها . الجبروت في صميمها والوداعة
 في ظلها . انها لو كر اصداد . الحمل يعيش في حناياها بجانب الذئب ، بل
 ان هذا الحمل يبدو ذئباً اغبر ثم ينقلب الى نعجة بيضاء الصوف . فلا يستقر
 على لون لفرط رجرجته ، فيبرد ويصفو بلا تعمل ولا تكلف شأت من
 طبعه اللفّ والروغ

وحاذر ابو الدرداء ان يندفع في طريق القصر . فليس يجهل ما يرقبه
 فيه . وتذكر كلمات الحسين بن علي وما برحت تتواهب في ذهنه . قال له
 الحسين : « ابق عندنا . انت بيننا بامان . فاني لاناخف عليك هناك من بطش
 معاوية . واذا امنت معاوية فلن تأمن يزيد . لقد كويت قلبه وليس من
 العجيب ان يكويك ! ... » . فقال في نفسه : صدق الحسين . ليتني بقيت في

الكوفة . فمن الحماقة ان اعود الى دمشق بعد قهر يزيد !

ولكن الى اين يفر من يزيد ؟ ... فوطد النية على المشول في حضرة معاوية . ليس من ذلك بد . فعليه وقد تجرأ على الايلام ان يمضي في جراته لا يرهب . واقتحم قصر الحضراء . كانت يسير اليه على قدمين مضطربتين وقلب واجف . وما برحت صفرة الموت تكسوه . فهو من نفسه في برد ريث . وبلغ القصر وهو يلهث . ولم يكدم يستأذن على معاوية حتى اقبل الى الترحيب به القادة والحجاب . وماج القصر بالنبا . ابو الدرداء عاد من الكوفة وقد خطب اربنب ليزيد

ومشى الى معاوية ففتح له خليفة دمشق ذراعيه يحول ان يضمه الى صدره . ولكن ابا الدرداء في ارتعاش . فانه ليخشى الدنو من معاوية كأن في نعليه اثقالاً تقف به عن الخطو . بل هو لا ينظر الى الخليفة كأن في عينيه حسوراً فلا يبصر امير المؤمنين . فتعجب منه ابن هند . ماذا اصابه ؟ ... هل عاد من المهمة بالاخفاق ؟

وجمدت البسهات في الثغور . واستدارت العيون وجحظت . واطل يزيد يصفي الى البشرى . اقبل بقلب اتسع حتى ضاقت عنه البطاح على مترامي فجاجها وقد تهادت اليه المنى . ولكن الرعب تولاه حبال الصمت المنشور . ماذا ؟ ... هل رجع ابو الدرداء يتعثر بالحيرة ؟

وسها معاوية وهو يجرض بريقه . وارتخت يدها فهوتا على جانبي مقعده . فما هذا الجمود يابح له في ابي الدرداء ؟ ... وتجلت له النازلة فخشي على ابنه . وابي استطلاع رسوله خفايا الكوفة حذراً من الصعقة المتوعدة . فاحذلان ينطق في ملامح الشيخ القلق ، المكمد ، الغائر في الارض . على ان يزيد وقد

هاله الموقف مال الى الاستفسار الوشيك . ماذا كانت من ابي الدرداء في الكوفة؟ ... وعبس يزيد . عرف الجواب قبل طرح السؤال . ولكنه ود ان يستفهم . قال بنزوة من سخط : ابا الدرداء ، ما هذا الشلل فيك كأنك من الاموات؟ ... ألا تكلم ، ماذا فعلت في الكوفة ، هل انكفأت الينا موقف الجد ، مبروراً ؟

فالتفت ابو الدرداء الى من حوله وقال : اوثر ان نقيم على خلوة يا امير المؤمنين !

وارتجف فمه وهو يفضي بهذه الكلمات المتصاعدة من صدر يعقوص في الحرقفة . فقال معاوية وقد قصم ظهره عبء الفاجعة : ليخرج كل من ضمهم الايوان !

فقلب القوم شفاهم حيارى ساهمين . ابو الدرداء خذله التوفيق . على ان الفضول عبث بالالباب . ما حال دون امتلاك البغية ؟ ... وود الجميع ان يعلموا . وعمدوا الى الاسهاب في التأويل . هل رفضت اربناب ؟ ... قال معاوية وهو يخلو بيزيد وابي الدرداء : اراك تنعى الينا طلبتنا ايها الشيخ المرتعد الروح ، فماذا اتفق لك في الكوفة ، هل عدت منها على اصفاء ؟

فقبل ابو الدرداء الارض بين يدي معاوية وقال : ادام الله امير المؤمنين في عالي مجده ورفيع سؤدده . ان ربك ليعطي من يشاء ويحرم من يشاء . وله في عبادته ، تعالى اسمه ، احكام لا تدرك . فليس لهضم ان يتذمر ولا لذي نعمة ان يصعر خد . نزلت الكوفة وكل من فيها علي عيون . فما ذروا اني رسول معاوية الى اربناب حتى تجلي لهم السر وسبقوني اليها بمنعونها عن يزيد ! فصاح معاوية : بمنعونها عن يزيد؟ ... أتكون العوبة بين ايديهم يحجبونها

عن يريدون ؟

— سبقوني اليها يا امير المؤمنين بأبون عليها ان رضى بن فصل زوجها عنها . وايقنت منهم انهم ينطوون للبيت الاموي على ضغن وحقد !

فقال يزيد وقد احمر وجهه حتى كاد يتغزر بالدم : وماذا قالت اريبن وقد حدثتها عني يا ابا الدرداء ؟

فهز رأسه جزعاً وقال : ماذا تريد منها ان تقول وكل من حولها يشدد عليها في الرفض ؟

— وهل رفضت ؟

— يكفيك ان جمعة اقبلت اليها تشكو ظلمك وتزخرف لها الافتران بالحسين !

فشرق معاوية ويزيد بانفاسهما كأن حبة لسعتها وهما يسمعان ان جمعة توابئها بحفيظتها واضطغانها . لقد خسرا المعركة . فالحقد الفائر بين اضالع جمعة يذهب بمنيع الجهد . قال معاوية بوجل : وهل فازت جمعة يا ابا الدرداء ؟

فصنا الشيخ رأسه وغمغم : فازت يا امير المؤمنين !

فاحسها معاوية نعمة في جبينه وصاح راعداً : وكيف ؟ ... وبحك !

ان ثمة تحطيم كرامة واستفزازاً الى الاصطدام بالهاشميين . فهل يعيدان معركة صفين وبنازلان ابن علي كما نازلا اياه ؟ ... أيريدهما الحسين على قتال يتجنبان خوضه وليسا يدريان الى ما ينتهيان فيه ؟ ... هما ينظران الى هذه الدولة القابضة منها عليها الابدني ولا يكادان يصدقان انها سيداها ، فهل يعيدان الى حرب قد تسمي فيها الريبة بقينساً فيفلت منها ذلك الملك

الفسيح ؟

ونظر بعضها الى بعض وملاحمها في فحة اليأس ، والفصص تفاجئها
دراكاً كأنها لا تنتهي . وطاولها الرعب فتأت الاعين وتفتح الفمات .
واطرق ابو الدرداء وناظراه يبحثان في اغوار الارض عن منفذ للفرار .
وتسنى معاوية ضغط اعصابه وامتلاك نفسه فقال : وهل تزوجها الحسين ايها
الشيخ ؟ .

فتصاعدت الكلمات من حنجرة ابي الدرداء تخرج حشرجة الموت .
قال وهو يتوقع انقضاء الموت : تزوجها يا امير المؤمنين ! .

فخيل الى معاوية انه يسمع باذنيه فضضة عرشه . وهياج يزيد فهم
بالوثوب على هذا الشيخ المأفون يردبه وصاح : تزوجها على مرأى منك ؟ ...
وانت في الكوفة ؟ ... اخشى ان تكون عقدت له عليها بنفسك . والله
لاسفكن دمك وقد وصمتنا بالعار حتى ابد الابد !

وتاح فيه غضبه . عجباً لغضب بنوح ويون ! ... فما ابقى فيه ابو الدرداء
نزرة من صواب . وهجم على الشيخ المرعوب وفي يديه مخالب رهاف ، وفي فمه
زبد ، وفي عينيه نار . وكاد يقبض على عنق هذا الرسول الغبي ، او المتغابي ،
ويقبض منه روحه لو لم يشب معاوية عن عرشه ويجول دون مستفعل الشر .
فلم يكن يزيد يدرك اي جريمة سيرتكب واي اثم سيضيف الي ما تراكم في
قصر الخضراء من آثام . فان مقتل ابي الدرداء ، اذا وقع ، سيكون اشبه
بمقتل عثمان بن عفان . فاذا بني معاوية شهرته وجاهه على قميص عثمان ،
داعياً به المسلمين الى الانتقام للخليفة الشهيد من خصمه علي بن ابي طالب ،
فلن يختلف موقف الحُصوم من مقتل ابي الدرداء عن موقف معاوية من

مقتل عثمان . سوف يحملون قميص الشيخ ، وهو من رجال الصحابة ،
ويكون عليه ويستكون ، طالين الى المسلمين الاثار من معاوية
لدم المهدور . هذا صفي النبي ووديده يبطش به ابن ابي سفيان !
ولم يكن يجنح معاوية الى تمثيل مأساة اشبه بمأساة الامس . فالمبتغى
الاوحد في شرعه ان يوطد تحت قدميه مقام الخلافة . وفي سبيل الاعتصام
بالخلافة كل تضحية تسوغ . فاذا لم يعد ابو الدرداء موفقاً من مهمة معقودة
عليها الآمال فلن تغلو الضجة ويستصعب الامر . فالضجة في علوها واحتدامها
تبعث على خضخضة قد يضطرب بها مسند الخلافة . وللحوول دون هذه الخضخضة
يجب اعتماد السكوت . السكوت والرضا بالمقدور . فلا سورة تضرم الثورة
وتحرق الاخضر العود . وصاح معاوية بيزيد : حذار ان تمد اليه بدأ بسوء .
اني لاجيه من عدائك . اياك ومسه بشر . انه لمن رجال الصحابة فلن تحدجه
عين شزراء !

وقف معاوية بينهما يهدد يزيد ويقول : اذا لم يوفق فالتبعة لا تطوله
والكوفة تضيق باعدائنا . كلهم هناك يريد لنا الحزبة . ولا تدعش اذا جانبك
ارنب . فالسر في ان ترضى بك زوجاً . وما كنت اميناً عليك منها لو
قبلتك حليلاً . فان حكاية جعدة في الحسن لتعود الى الظهور . احسنت في
مصارمتك وصانتنا من الدم . انها لصديقة الحُب ، كريمة العرق !

والفتت الى ابي الدرداء قائلاً : اما انت يا ابا الدرداء . فلا تنقم على يزيد
في حديثه . فانت تعرف من امر ابني ما لا حاجة فيه الى ايضاح . يزيد
غضوب فلا تعتب عليه في بادرة الغيظ ، الا انه سليم القلب والنية . ألا
انصرف بايزيد . دعني و ابا الدرداء في محادثة يفرضها المقام . ولا تجزع

للخيبة ، انها لغيمة صيف وتبتدد . ففي المظنن العربي الف ازينب ، وليس فيه ليزيد عديل !

وصرفه عنه برفق وتؤدة وامر . وعكف على ابي الدرداء يخاطبه بقوله :
وقانا الله واياك داهية الخذلان يا ابا الدرداء . فاذا دفعنا عنك نعمة يزيد
فليس انقاذنا اياك من غيظه بالدليل على انك اجدت واحسنت . انت ما
اسأت الى يزيد في قلبه وشممه ، بل اسأت الينا جميعاً معشر الامويين . ان
يزيد ليجلني ويهمني ويأبى ان انطوي له على سخط . فاذا رضي بالانصراف
وقلبه يقطر دماً فلن يغفر لك ايلامه والسخر من هواه . فسوف يحفظها
عليك وبطلب دمك ، فابتعد عن طريقه لئلا يطولك ويشفي منك بلباله . ربما
كنت لا تعلم مدى هيامه بارينب . فاذا عالتك بانه يعدل بهذا الهيام سدة
الحلقة فصدّقي . لقد ظهرت في الكوفة عاثر الحكمة ، ملتوي النية .
والمعربة عليّ وحدي . كان من المنطق الصحيح ان لا اعهد اليك في ما انت
دونه . رميتنا بغضاة ما عرفنا لها مثيلاً منذ ملكنا السيادة في الاسلام .
ألا ابن حجاج ؟ ... أتتولى المفاوضة في امر فتدور فيه علينا الدائرة ؟ ... انها
لسخافة كنت اود ان اترهك عنها ، ولكنك اقدمت عليها فيا لضباع املي
بك . لم تكن عند حسن الظن !

فتألم ابو الدرداء وهو يسمع مقال معاوية الواخر ، على عفة في البيان ،
اكثر منه وهو فجأً بتهديد يزيد . فان معاوية ليحسن صوغ المعنى القاصم في القالب
الرزين فيوجع من يندد به دون ان يدميه . ففي لسانه عضات قوارص الا
انها سريعة البرء والاندمال . فيصغي اليه حتى عدوه ويقول فيه : « لقد
اذلني ! ... » ، ولكن لا يستطيع ان يقول فيه : « لقد شتمني ! ... » .

فالشبهة كانت تنبوع عن ذلك المقول المطبوع على الدهاء . واصيب الشيخ
بالخرس ، وشعر ببلغ ايدانه . جاوز في اسائه امد الرفق . قال معاوية وهو
يعاني مضمض غضة بكهاء : أتدري ما فعلت ؟ ... لا تتجاهل ان تكن
تدري . كبت للبيت الهاشمي النفوق على البيت الاموي . فاي شيطان
عبث بلبك واعماك ؟ ... فالامر يعدو خطبة حسناء وزواج ، انه ليهدم
سياسة عميقة الغور بذلنا في تشييدها الغالي والرخيص . ألا افصح ، هل
هاج فيك الحين الى ابن الامام وانت تؤم الكوفة فخرجت عليه واطلعت
على ما انتدبتك له من سعي ؟

فاستعاذ ابو الدرداء من الشر الكاشر . وازدادت عيناه استدارة وتفاقت
فيه الرهبة . أنجلو لمعاوية النبا الصدوق ؟ ... ما تعود الكذب وان يكن
فيه بماته . ثم هو اقبل مستشهداً غير حافل بما سوف ينتابه من سؤ عقبي ،
فما عليه اذا باح بالمكثون واوضح المقدور ؟ ... لينزل به غضب ابن هند
محرقاً مييداً ، فما الكذب ديدنه وان قاده الصدق الى المهلكة . قال بصوت
هاديء الا انه حازم : لقد عرجت عليه يا امير المؤمنين !

فاهتصم معاوية بالجلد ، ماخاتته اعصابه وقد طاب له الامعان في الاستدراج .
فهو يروم استطلاع الحفاسيا فلا يبقى ستر يحجب مضمراً . فلماذا ترويع
ابي الدرداء ؟ ... قال يستبث : عرجت عليه ورويت له الامر في جليله
ويسيره . ابغته انك مقبل لتخطب اربنب ليؤبد !
- وهو كذلك يا امير المؤمنين !

- وشغفت ، وانت تراه ، بطلعته الوقور . فذكرت فيه جده الرسول
وامه فاطمة ، وابه علياً ...

فقسم ابو الدرداء مقاطعاً بابتهال : الصلاة والسلام على النبي وآله يا امير المؤمنين !

واضغى معاوية الى التمشة ، وما تمالك ان صاح بينه وبين نفسه صيحة صماء كاد بها يميد : يا للشقي ما اتقاه !

وظل سيد اعصابه وعيناه على ابي الدرداء الغائر في خشوعه . قال : وبدا لك ابن الامام وحفيد سيد المسلمين اولى بارينب من يزيد وانت تعلم ما تخاطر فيه ابنة امعاق من حمن شهبي وخلق سوي !

فجمدت عينا ابي الدرداء على ذعر مستطيل . قال وهو يتلعم لفرط الهول : من انبا امير المؤمنين ان ...

فقال معاوية : أليست الحقيقة في ما اوضح ؟

فارتجفت شفتا ابي الدرداء . ماذا يعلن ؟ ... وغلب فيه الصدق المواربة فقال باستخذاء وهو يرقب ان تنزل به نعمة معاوية قاصمة كافرة : ان جعلت لغاوية يتبعها الغاؤون يا امير المؤمنين !

وحنا رأسه للضربة . هذه عنقه . فقال معاوية وقد اباح لغضبه ان تنفس بقدر ما يشاء : أندري ما يجب فيك من قصاص يا ابا الدرداء ؟ ... والله ان استئصال هامتك لقليل . اوفدتك الى اربنب لتدفع عني لاجة يزيد وتخفف من لاعج فتى مستهام ، فماذا كان منك ؟ ... كان انك زدت في الالم وقطعت الرجاء وطعننا في مناعتنا . فكأنك لنا عدو في توب صديق . بل انت هذا العدو يا ابا الدرداء . ان الفاجعة لاعظم مما يخيل اليك . فلقد خنتنا في كرامتنا وحسبنا والموت جزاؤك . فما حملك الى الحسين وما انت بمؤفد اليه ؟ ... هو الحق اهاب بك الى مخاطبته في مهمة ليس من الحق ان تعدو اربعة ، انا

وانت ويزيد وارينب ... أتكيدلنا وتدس علينا؟ ... والله لولا يقيني بضعف
فيك لاطعمتك حمامك . ولكن غباوتك هي الشفيح . فالتبعة عليّ وحدي .
كان من الانصاف لنا ولك ان نعهد الى سواك في الامر الجلل، الا اني خدعت
فيك . ألا فاذهب ولا ترح في هذه البسطة . اني اخلع عليك حلمي ، على
اني لست اعصمك من يزيد . هذا فتى حطمت قلبه وامله ، فقد يشور اذا
رآك وينقض عليك غير راحم ولا متخرج . فابتعد عن طريقه . اخشى ان
يكون واقفاً لك بالباب . واني لمسك بزمامه ما دام ينعم بالتهبة ، اما
اذا احتدمت فيه الغضبة فاني لاشفق عليك منه وهو المحطم كل قيد والقاتل
من كل زمام ودمام !

فارتعد ابو الدرداء . فتأدى معاوية في تخويفه من يزيد . وندى جسده
العرق البارد . فهو ينزو هلعاً . وضاع عن نفسه . فبات لا يشعر بانه يسير في
الارض وقد اذابته خشيته . ورضي معاوية بعض الرضا وهو يراه يغيب في
الوهلة . وشاقه تعذيبه . قال : دمشق لا تقم فيها ، وقصر الحضراء لا تعد الى
وطء عتبه . فان ارتيادك اياه للطخة في جبينه . كنا نحسبك درهماً وازناً
فاذا بك زائف خادع . انصرف . رؤية الغادرين الاغبياء . ترعجني في صميمي !
فاجتهد ابو الدرداء في ان يتحرك وان ينفذ عنه ذعره فما أوتي العزم .
فالتحافة نزعته منه القوة فتلاشى . وصاح به معاوية وقد ايقن من ارتحشاء
الشيخ : هلا انصرفت ؟

فلعلم نفسه ببقية من همة ، وهو الراح تحت عبء الروع والمهانة ، وزحف
متعثراً بالفزع والرجيف . وخاف ان يفتح الباب فيما يبغي الانطلاق . فقد
ترأى له شيخ يزيد على العتبة . ورغب معاوية في ان يلهو برهبة الشيخ فقال :

اصلح من وفتك ، اراك تغور في الارض !

فالتقى ابو الدرداء نظرة على الخليفة الساخر فتعاضم اضطرابه . لقد
ومضت في وجه ابن ابي سفيان عينان راعتان تضعان بالهزه القاضم . هذا
هو معاوية بكيده ونشوة اعتزازه . فكأنه لا اصيب بكرامة ولا ارتبك
في امر ابنه ، وكان الرزية لم تتل منه منالاً وقد استخف بها فتساقطت
كليلة تحت قدميه . وشق ابو الدرداء الباب فراراً من هذا المرأى الخيف .
فأثر ان يضرب بسيف يزيد على ان يعرض نفسه لاستهانة معاوية وسخره .
ووثب في اروقة قصر الحضراء وقد وهب له الذعر قوة وخفة . فركض
ركضاً مرعوباً هرباً من نقمة يزيد وتمك ابي يزيد . ومن ابصره في وثبه
خامره ربب في حلم الشيخ .

ولم يصدق انه نجا من القصر . فان هذه الخطوات القلائل بينه وبين الطريق
بدت له اطول مما بين دمشق والكوفة . وما استطاع ان يتنفس ملياً الا
وقد بلغ عتبة منزله ، بل وهو يخنيء في صدر منزله . وما برح يتلفت كأنه
يخشى ان يتبعه يزيد شاهراً نقمته ، وان يكون ابو يزيد ماضياً في تسديد تلك
النظرات الحبيثة الدامغة اليه . ولم يؤمن بالنجاة . فكلمها دق الباب خيل اليه
ان ابن معاوية اطل . وساءل نفسه عما بثير فيه هذا الفزع كله . ليقته يزيد
وقد راقه الاستشهاد . فليس باول من طارت روحه في سبيل معتقده

ولكن هذا الميل الى الاستشهاد لم يكن يمنع عنه البلبل . فهو في بحران
اذنى منه الى الخبل . واستجار بربه من الشر المهدد . يزيد لن يصفح عنه .
واستقر في منزله لا يبرحه . وتعاضمت مخاوفه فبدا ساهماً ، متعباً ، لا يطبق
طعاماً ولا شرباً . صدق معاوية . انها حبيبة ترهق العزائم وتذل الانوف !

هذا الزهو في معاوية ، وهو يصرف عنه ابا الدرداء ، صار الى كسوف
 في الرجل الداهية وقد خلا الى نفسه . جازف بسعته وبابنته لاجل يزيد
 فاتمى به المكر الى الهوان . فماذا سوف يقول فيه المسلمون حين يفشو فيهم
 النبأ وبذيع ؟ ... من الراهن انهم سيشتون بالخليفة . وقع ابن هند في
 حفرة احتفرها لسواه وجنى على نفسه وعلى ولده . فلم يكن من الشمم
 والاباء مداورة رجل لفصله عن امراته ثم الاخلاف بالوعد . فما في الامر غير
 احبولة وكيد . والاحبولة والكيد ارتدا الى معاوية فذهب ضحية مكيدة
 نسجها بيديه

والآن كيف يسكت الالسنة الثرثرة ولا بد ان تستطيل ، وكيف ينفي
 عنه الدس واللؤم ؟ ... انه لعاجز . غير ان الالسن الثرثرة يحتمل وقعها ، والدس
 واللؤم بضاعة موفورة لديه ، فلا ينتقص من قدره ومكانته تغييره بها ما دام
 صاحب الامر والنهي في المسلمين . وهب انتقص من مكانته وقدره فانه ليبني
 المنهدم بسماحه وحلمه . وكل ما يعجز عنه ، ويقرب بعجزه عنه ، ارضاء يزيد
 بهذا هذا الاخفاق الحاطم . اقام الدنيا واقعدتها في سبيل يزيد ولم يفلح .
 فوارب ، وداجي ، وكايد ، وافضى جهاده في الباطل الى ما لم يكن يرجو
 ويريد .

ضل الهداية في اعتماده ابني الدرداء . فكان عليه ان يدرك ان هذا الشيخ

من المتعبدين ، وان المتعبدين ذوو آراء لا تتسع وتتسامح اذا دهمتها حوافز الدين . واي كفاح نهيك سينقذه بما ورطه فيه ابو الدرداء...؟ كتب للبيت الهاشمي التفوق على الامويين . فما بذل فيه معاوية وعمرو بن العاص دهاءهما وعرضهما محاه ابو الدرداء في مجاملة وخطب مودة. انها للظمة ممضة من الصعب ازالة اثرها الوجيع

وحار في ما يدرا به عن يزيد عبء النازلة . باي كلام يبدد ما في نفس ابنه من قهر ونزق ، وكيف يصون مهجة هذا الابن من الذوبان؟ ... فلا بد ان يقبل اليه يزيد حانقاً ، فكيف يدعو الى الاستكانة والهدوء ؟ ... وما تماسك ان قال : لعن الله ابا الدرداء ، حماقته جرّتنا الى الوبال !

وانكأ على عصاه وهو في تفكير شتيت . اني ينجو من هذه اللطخة السوداء الذبول ؟ ... وودّ ان لا يرى ابنه . ونادى حاجبه يقول له : اذا بدا يزيد فابله اني امنع عني الجميع . فلست في موقف يميزني الالتفات الى احد حتى الى ولدي !

فقال الحاجب : اطال الله بقاء امير المؤمنين ، ان يزيد لفي الباب وقد اصرّ على الدخول بلا استئذان . واني لاجاهد في اقناعه بان لا يفعل ، ولكنه غاضب نائم يعلو الزبد شفتيه وتقذح عيناه بالشرر !

فصاح معاوية : أيكون يزيد بالباب ؟ ... لا تبح له الدخول . لست ارجب في رؤيته . ابلغه اني في شغل عنه !

ولكن يزيد انتهر فرصة دخول الحاجب على معاوية ليلحق به . وبدا تتوالت فيه الثورة . قال بصوت جهير دون ان ينحني امام ابيه : أيكون امير المؤمنين راضياً عما انتهت اليه حال ابني الدرداء في الكوفة ؟

فاجاب معاوية وقد حسب للفضبة الفائرة في يزيد حسابها البليغ : ليس
امير المؤمنين بن يرضى عن الخذلان يا يزيد . أفلا ترى اين اصبحنا بغباوة
ذلك الشيخ الواقف من دنياه على تممة صلاة وخشوع مهجة لا يجيد
سوامها ؟ ... فضحنا حيث رجونا منه العوث !

فقال يزيد واسنانه تصطك ، وعيناه تغليان ، وعروقه تنشج : ولكن
ما بدر من الشيخ المتعبد يجب ألا ننام عنه . فمن شهد معركة صفين لا يرهب
معركة يشدها ، بل يضرهما ، في الكوفة الخؤون !
فارتاع معاوية . ونظر الى ابنه برهبة وقال : يزيد ، اي بيان يفضي به
مقولك ؟

فأجاب والغيظ يتأجج فيه : ما لم ندر كه بالسلم يجب علينا ادراكه بالحرب !
— وكيف ؟

— بان نغزو الكوفة ونسي نساءها !

فانقلبت اسارير معاوية وخشن صوته وقال باضطراب : أتدري اي كلمات
ينضض بها فمك يا يزيد ؟

فاجاب والغصص تشوكه فما يطيق بها افصاحاً : ربما كنت اجهل انك
تستحقني ، غير اني اعلم ما اقول . ما لم نوفق فيه بالملاينة علينا ان نصل اليه
بالشدة . فتهاجم الكوفة ونستولي على اموالها ونسائها ونأمر رجالها ونبيحها للنار !
— وهل يطيب لك ان يقال في ابيك انه هدم دولة لاجل امرأة ؟

— ليقبل الناس ما شاؤوا . ارينب اريد . ولقد سمعت اليها على دعة فما
ادركت الوطر . وسأسى اليها على رؤوس الاسنة والفوز محقق لا شك فيه !
— وتهدم سمعة ابيك ؟ ... وتلطح كرامته بالشين ؟

— تحكيم ابي موسى الاشعري في اذرح، على غرابته، لم يصب ابي بسوء،
فهل اخاف عليه من غزو الكوفة؟ ... وتسمي الحسن وقد باشرناه معاً لم
ينلنا باذى، فهل من خير علينا ونحن نهاجم الحسين؟

— والتاريخ يا يزيد، والتاريخ؟

— اني اهزأ من كلام ينقل وبروى. فالتاريخ لمن بعدنا لا لنا. وما
شأننا في من يقبل على اثرنا يتحدث عنا؟ ... ان من يكتب عن موقفنا من
علي والحسن لا خير عليه اذا سرد موقفنا من الحسين؟

فتأفف معاوية. ليس باضطراب الى هدم دولة لارضاء ابنه. يكفيه ما
قام به من شعوذة لاجل هذا الابن. قال: يزيد، لا تكن اعمى. سكوتنا
عما اصابنا من فضيحة خير من اثاره القلاقل للوصول الى المشتبه. هذه الدولة
غير ثابتة الدعائم تحتنا. ان نسمة ربح لنذهب بها. واذا رأيتني في اشرو وجبوت
ألا فاعلم اني اظهر من القوة ما لا املك كي اظل قابضاً على مقود الامر.
تالله لو ابدت رعدة من ضعف لا كلوني. فالخصوم يرهفون اظفارهم لذبحي.
فارفق بي، بل ارفق بنفسك. هذه الدولة ستنتقل اليك بعدي، فلماذا
المجازفة بها وهي مرتعنا وحمانا؟ ... أتجازف بها لكسب رضا حسناء؟ ...
ان تحت هذه السماء للمئات من شبيهات ارينب على حين تخلو البسيطة من نديد
ليزيد. ألا فانس ابنة اسحاق ما دام زمناك يعاندك فيها. إنسها. لو كان زواجك
منها نعمة لا قبلت هذه النعمة على يسر. زفاف الخلافة اليك افضل من زفاف
امرأة ربما لن يكتب لك في الاقتران بها التوفيق. فالحسان في دولتنا لا يحصى
لهن عديد، فلماذا نشدد في ارينب ولا نبالي سواها؟ ... ان اكرمهن حسباً
وملاحة لتتهز شوقاً اليك. أتريد ان تؤلم ارينب؟ ... اعرض عنها. اعراضك

عنها يكفي لاختناقها في حسرتها . فليس يقتل المرأة كالاستخفاف بها . هي
تحسب نفسها ذات سلطان ، فاذا شئت ان توجعها فاعبث بسلطانها . ابوك
خبر قبلك الدنيا ، فلا تم عن نصح ابيك !

فشعر يزيد بعنف الحجة ودقتها في معاوية . وهدم كلام هذا الاب بعض
عناد الابن ، غير ان ابن ميسون ظل يمسك على رأيه في مقاتلة الكوفة مع
استيقانه انه رأي فطير : قال ماضياً في النزوة : أيجوز لنا ان نعصي على
الفضيحة ؟... فالقوم ما تعمدوا ايلامي دونك ، بل رموا الى تحطينا بعضا
واحدة . فما ابتغوا الاساءة الى يزيد بقدر ما تعمدوا هدم معاوية . وجماعة
هذا شأنها لا اجد من كرم الخلق اباحة المجال لابطيلها . فان لم ينهشونا
اليوم حصراً فلن يعفوا عنا غداً ونحن عنب نصبح . اين سيفك ؟...
ارفعه واخطبهم به . انهم لكفرة منا كيد !

فابتسم معاوية ابتسامة الملاينة ، وهي ذات اثر في سميعة امضى من البيان
الحفي . قال : رفقا بالناس يا يزيد . ان نحن آثرنا انفسنا ابدأ عليهم فاروا
واغاروا علينا وليس من يردعهم عنا . لا بأس ان يفتنوا بنا حيناً بعد حين
ويتوهموا انهم تغلبوا علينا ونحن نقبض منهم على الارسان . فان هذا الظفر
نهبه لهم ليشير الى عفونا والى رغبتنا في المساواة بهم . فلنكن وياهم بين كفة
ترجح وكفة تشول . فالاحاح في قهرهم ابدأ يلطنا بالاحقاد . وما ادراك
ما الاحقاد يوم تهيج . هي يوم القيامة . ألا فلنصبر على اللطمة صبر غير
المكترين . فالسلطان لا يبرح بين ايدينا . وان يكن الحسين سلبك اربنب
فان الحسين لمن رعيتك . انت السيد وهو المسود . ليكتف بارينب ان تكن
تلبيه عن المطالبة بحقه في الخلافة . وهذا كثير . تعال ، تعال اضمك الى صدري

واعانك بما سوف اعوضك من اخفاك في ابنة اسحاق . ساكتب الى
الآفاق انك وارثي في الخلافة . فان هذه الدولة الذاهبة في الارض على امتداد
وانبساط لك وحدك بعدي . انت مولها وامير المؤمنين فيها . فالملك ينتقل
مني اليك شأن اقبال الروم . فالدولة ارث الجد الى الاب فالابن فالحفيد !
واذا الستار المضروب في زاوية الايوان يرتفع وتبدو من ورائه صفية
بنت معاوية . قالت على كعدة : ابني ، سمعت كل ما دار عليه الحديث . لقد
جاهدنا باطلاً . فمن المضرة لنا ان يقال فينا اننا قصرنا عما طمعنا فيه .
عبدالله بن سلام يشمت بنا ، والحسين وانصاره في طليعة الثائنين . واني اليوم
في المسلمين سيدهم وحاميهم ، فما يقف به عن رد كيد الحسين الى نحره ،
فتصرعه بسهمه وتمحو عن جبينك لطمخة التحقير !

فتنكر معاوية لابنته . حسبها له فاذا بها عليه . قال بامتعاض المكدود :
صفية ، ما دمت قد سمعت فعليك ان تدري اني ان اباك على صواب . ليس
الموقف بسعفنا على مقاتلة ابن علي . اتزلنا اياه من شائق ، وجدلنا اخاه ،
وملكنا الامر في هذه الدولة . فان يتصيدنا الحسين في امرأة فما بلغ مناله
منا . هذا انتقام سخيف . لو هدم بنا سرير الخلافة لكان من حقه التفاخر ،
اما والقضية قضية زحام في زواج فلننظر الى الامر نظرة تبعد بنا عنه .
ليتزوج ابن علي من ابنة اسحاق ، ليسبقنا الى كل حسناء عطرة الشذا ،
فالاقبال على الزواج لا يشيد دولة ولا يرفع تاجاً على مفرق . يزيد قنع بما
عرضت عليه . ساهيب بالمسلمين الى مبايعته بالخلافة . فلا يكاد ابوك بغض
عينيه حتى تنتهي مقاليد الاسلام الى اخيك . فالسوود فينا وسنظل تتداوله
كبراً عن كابر !

قالت : ويضع كل ما بذلنا من جهد؟

- وابن الجهد يا ابنتي؟... كل ما اقدمنا عليه اننا ادرنا ألسنا في حلوقنا.
ابوك تكلم وانت جاريتيه في النطق. بيد ان الريح لم تكن مؤاتية، فما تم لنا
الامر كما رغبتنا فيه. وهل تريد ان نحترق في خيبتنا لامر مبتذل سخيف؟...
لنكن اوفى ادراكاً . دولة ابن ابي سفيان لن تنهدم لاجل عيين سوداوين
في امرأة ذلفاء . ناضل ابوك الليالي الطوال قبل ان يصير اليه السلطان في
هذه البطاح . ولست اراه على أهبة للتضحية بما نال بعرق الجبين في سبيل
ذات صباحة غداء . اني لاهب ليزيد ما تهون عنده جيوش الحسان . اهب
له ما بذلت لاجله سهر العين وضى القلب . ليتربع في هذا السرير بعد ابيه .
كان الامر شورى في الاسلام وسيجعله معاوية مرهوناً بشيئة سيد فرد .
اتفق لي ان عدوت عن السنن وانزلتها على حكمي . وهذه سنة ساعدو عنها
وافرض فيها حكم الوراثة ولن اجد من يعارضني . فالخلافة لنا نحن الامويين
وارثاً عن وارث . فينتقل في مقعد السلطان ابني وحفيدي وكل من ينتقل
اليه الارث عني . واي قدر للمرأة في هذا السؤدد الواثب بمنعته الى
مناطحة الآباد؟

وزخرف لولديه الملك الرحراح والمجد النامي فابعدهما عن اربنب . ومن
هي اربنب في هذه الدولة السائرة الى غدها بجلال ، والمقيمة من يومها على
طلالة؟... انها لتفأخة بواقه ، منمقة ، غير انها تحبو الى انطفاء . اما العرش
والصولجان فالابد مداهما . ان اربنب لفتاة زائلة ، على حين ان الخلافة شعلة
متمادية الضرم ، يستضيء بنورها العرب ومن آمن بالله ورسوله من العجم .
فهي بضة العز ، وهاجة الاطار ، يموج في رحبتها الخلق الرداح وتحنى لها

الجباه ، فكأنها قبة الدنيا !

ووقف يزيد بفاضل بين الخلافة وابنة اسحاق ، فما كان جلال الخلافة
ليسبح في عينه سناء اربنب . هذه بطانة تلك . فالدلال لا يتواخر ان لم
تكن اربنب مسحب ذيله . وبكى يزيد . ان هذا المستهين بروائع زمنه ،
الضحك من تفجع عاشقائه ، الضارب وجه النعمة بسوط من هزه وسخر ،
اطلق دمة احقرت خده . دمة اشبه بالجمرة المتأججة ، الحمراء . فسالت
من عينه تلتظي وهوت على وجنتيه تنهش وتؤلّم . فقد تآذرت بها لوعته
وشاع فيها عمق مضه . هي ذوب قلبه المصور . كان لهذا القلب في حبه
الحساس فضالة من امل فعدا عليها الدهر الظوم .

وشهدت صفة مهوى دمة اخيها فاكثوت بها . ان يزيد ليسبل الدمع .
لعن الله اربنب كم امعنت في التعذيب . وما تماسكت ابنة معاوية ان جارت
اخاها في لوعته . فهي تشتعل بنار يزيد . وابصر الاب ولديه في حرقه فضم
يزيد الى صدره وماجت عبراته في باصرتيه على رجحان . فلم يكن قصر
الحضراء على مورق عوده ، وبسطة قدرته ، بالدار الصافية الاديم ولا الهنيئة
اللباب . فالكدر يعرفها ويذهب برونقها الوضاء

وطالت غمرة الدموع . فالمصيبة الخالعة قلب يزيد رزح تحت عبئها البلاط .
جهد ثلاثين عاماً في دمشق ازرت به امرأة كل فضلها وقدرها ان في اعطافها
رقرقة من دال وفي حدقتها وميضاً من فتون

وما استطاع الثلاثة نطقاً . فالغمة قعدت بهم عن نبس الكلام . واي
كلام تفيض به الشفاه والعز غير موفور ، والوسع ضيق الامد مع رجة المجال ؟
ونظر الثلاثة معاً الى هذا الملك الفسيح نظرة الاكمداد . فان تكن

السلطة القابضة عليها أيانهم لا تبيع لهم القوة على الظفر بامرأة، فاي وزن لهم
في مغالبة الزمان؟ ... وادركوا ان الزمان سيد لا يقهر . فالرؤوس مها
علت تتعظم على صخرته، والايام طوع يده، فلا سبيل فيه الى مكابرة وعناد

دمشق على بكرة ابيها مجتمعة على عبدالله بن سلام تصغي اليه في مثالبه
ومطاعنه. فهو ناخب ناغم . يجوب ازقة المدينة وجاداتها شاكياً بلواه ، ناشرآ
حقدته ، فاضحاً مكر معاوية ولؤمه . دعاه الى طلاق اربنب ليزف اربنب
الى يزيد . ابلغ الصغار بالخليفة الى التمرغ في هذا الاسفاف ؟

ووقفت دمشق من المتذمر المتألم موقف التأيد . فانه لعلى صواب في ما
يبث من ظلامه . معاوية لم يكن على وفرة دهائه بالرجل اليقظ الواعي .
ضحى بعالي مكانته لاجل عينين نجلاوين . وثارت الاقاويل وتناهى صداها .
ونظر كل من وقع في مسمعهم التبا الى معاوية نظرة الامتهان . اذا ليس في
المسامين من هو امين على نسانه ما دام الخليفة يسلمخ اية امرأة شاء بمن يشاء ،
حتى من اقرب المقربين اليه ، من ابناء اعمامه !

ولقيت سمعة معاوية الضيم وعبدالله بن سلام يفرق في الاستطالة . وشعر
قصر الحضراء بالاحتقار يلطمه . فالتاس نفروا من حاكم يستبيح المصون .
واقبل الضحاك بن قيس الفهري على الخليفة الساهي اللهيف يقول : هل
لامير المؤمنين اذنان تسمعان ؟

وابتسم معاوية للضحاك وهو يراه بالبباب . رحب به باحدى هاتيك
الابتسامات المصنوعة ، الجاهزة ابدآ . غير ان الضحاك ظل منها على جموده .
فكانه يحمل نعيأ مشؤوماً . وبدا في وجهه الاكفهرار . فانه لفي موقف

لحانق المتألم . كل ما في وجهه على انكسار ، من جهته حتى لحيته . فقال
معاوية فيما بينه وبين نفسه ، وقد تلاشت الابتسامة في وجهه وتلاها الجزع :
لا اراهم حولي غير ممتعضين ، نزفين ، فليسر بينهم من يضحك لليمن والبركة ،
مع اني اجريت عليهم الخير السني !

وقال يجيب الضحاك : وماذا تريد مني ان اسمع يا ابن قيس ؟ ... هل

من خبيء خطير ؟

فقال الضحاك وعيناه معقودتان على غيظ : لم يبق عبد الله بن سلام
على سبة الا اعلنها ، وما لقي ذا سمع وبصر الا حشاه بغضاً لامير المؤمنين !
— وماذا يريد منا عبدالله بن سلام يا ضحاك ؟ ... لست اعلم انا اسأنا
اليه . كان ضيفنا فنأى عنا . أنكون مطلعاً على مصدر نفوره منا ؟

فانتفضت هامة الضحاك وبرزت عيناه بعد اطراق ، وتنشق الارتياح .
الا يدري معاوية بماذا أساء الى عبدالله بن سلام ؟ ... أيتجاهل بعد ذلك
المكر كله ؟ ... قال وفي بيانه مسحة من هول : هل نسي امير المؤمنين ما
كان منه في عبدالله ؟ ... ولكنه نسيان المتجاهل يا معاوية . عبدالله بن سلام
يتهمك بانك فصلته عن امرأته ، ووعدته بصفية ابنتك ثم نكث . وانسه
ليقف في الناس مندداً بك ، داعياً عليك وعلى آلك اجمعين بالويل والفناء .
وما بقي في دمشق من يجهل مصابه . والناس يؤيدونه في الظلامة والظنة .
فهم يرون انك تجنيت وبالغت في القهر والايلام . واذا طال طوافه في دمشق ،
غامزاً حملك وعدلك ، فاني لاخشى ان تحصد حصاداً غير ميمون الجنى .
فاجتهد في انصافه او فابعده عنك . بقاؤه في عاصمتك على ذم وتنقص يؤلف
عليك الحصوم ويسعف الاعداء في استفحال الشوكة !

فقال معاوية دون ان يبدو منه تأثر او جزع : ليتشدد بما يستطيع -
است على مقوله حسيباً . شئنا له الرفعة فلم يسعده الزمن . ما دعواناه الى
طلاق اربنبا الا لتعقد له على صفة ابنتي ، فيصبح منا وقد جمعنا به المصاهرة ،
الا ان صفة افلتت من وعد اعلنت ، فابن جريمة معاوية ؟

— هذا ما لا يدرك الناس يا امير المؤمنين !

— وماذا يدرك الناس يا ضحاك ؟

— هم يلقون عليك التبعة في ما ساد عبدالله واربنب من قطعة . ويقولون
انك اقصيت الرجل عن امراته لبياعها يزيد ابنك . ولم تكن صفة غير سلم
ارتقيت عليها لبلوغ الارب . فما تعدت الوفاء لعبدالله في ما رصفت ونمت ،
بل كان قصدك ان تشفي هيام يزيد . سخرت من عبدالله في وشيك وتطريزك ،
حتى اذا ما استنام البك اذقته العلقم . فحملت ابنتك ، بعد طلاقه اربنبا ،
على صرفه جاف العلالة مهذوم الخطوة . ودفعت الى اربنبا من محظبها
ليزيد . وهذه المكيدة اذا صدقت ، ولا اراها الا صادقة ، تذهب عنك
بالجلالة ، وتعرضك للقدح المهين . فاما ان تنصف عبدالله في عهدك له ، واما
ان تقصيه عن مدينة لا ينشر لك فيها الصيت الحميد !

فصاح معاوية بانتفاضة من ألم: وهل اكون المعلوم اذا خذلته صفة ؟ ...
اعملت الرأي فلم تجد من نفسها دافعاً الى الشغف بابن سلام ، فهل تريد مني
ان اكرها على الرضا بن لا تهوى وقد اطلقت في امرها يدها ؟ ... لماذا
يتظلم ابن سلام وقد احلته من نفسي المحل الشموخ ؟ ... شئت ان يكون
صهري ، واعتزمت ان ارفعه الى اعلى الرتب ، فخانني سعي ، واضطرب
مبتغاي . لم يفكر يزيد في اربنبا الا وقد نزعها منه عبدالله . ثم ... ثم ان

الامر التوى يا ضحاك ، فاختفنا حتى في اربنب !

وماج الايوان بزفرات معاوية . وتعاضم ذهول الضحاك بن قيس
القهري . ألم ينجح معاوية في استمالة اربنب ؟ ... اذا لقي المكر جزاءه .
أصبح ان ذلك الاحتيال كله انتهى الى الخزية والافخاق ؟ ... واربتك
الضحاك في موقفه من معاوية ، من هذا الرجل السامق كالطود ، والمتهدم
كالطلل . اجل ، ارتبك الضحاك في موقفه من ابن هند على منعة الضحاك
ونافذ بصيرته . فهو من ذوي المكانة والعزة في هذه الدولة . ومعاوية نفسه
لم يكن يؤخره عن ابن العاص . فان له به ثقة عريضة الجناح . ونظرته اليه
تترجع على اعجاب وخشية . فما الضحاك بن يرتضون الخداع ، ولا يمن
يطبقون الظلم والاستهانة . ومعاوية مع معرفته محدثه شاء ان ينفض قميصه
حياله من كل عدوان على ابن سلام ، ومن كل غدر به . ما اراد له الهزيمة .
مع ان الهزيمة تترجر كالحلة انساب . فلم ينطق بالمقال الصحيح ابن ابي سفيان
وهو يعلن تحية على عبدالله وسعيه لاعزازة وقد نكأ فيه الغصص
يرقص بها حنجرته ، ويكوي مهجته . فان معاوية ليعبث بكل جليل ايرفع
من جلاله ، ويمنع عن الناس المذات الطامعة فيها نفسه ونفوس ابناؤه . قال
الضحاك وهو يحدق بارتعاش الى الخليفة المجهول اللون ، الساترة كلماته
بواطنه : هل افلتت منكم اربنب يا معاوية ؟

فاجاب بنواح كاسف : افلتت يا ضحاك . زاحنا فيها الحسين بن علي
وظفر بها . ترى اي كبوة كبونا ؟ ... لكأن الزمن معاند . او فدنا اليها
ابا الدرداء يخطبها فعاد وقد باعنا بالبخس بدل . ابى الشقي الا ان يعرج على
الحسين ليتبرك بلثم اناامل حفيد الرسول . وفي مقام حفيد الرسول باع

واشترى . فاطلع الحسين على المهمة . وغاظ الحسين ان ننزع اربنب من تحت جناحيه فاستمسك بها يزين بفتنتها داره . فهي الآن امرأته . والغريب يا ضحاك ، الغريب ، ان ابا الدرداء رسولنا اليها عقد له عليها دون ان يهرب سطوتنا . فما اضطرب له وجدان وهو يخوننا في ما ندبناه له !

فادهش الامر الضحاك ، بل هو لمس فيه نقمة السماء على معاوية . اعتمد البطل في سلخ المرأة من زوجها فاقبل من يستعين عليه بجملته ويزن له بميزانه . المكر اصطدم بالمكر . الخديعة قهرتها الخديعة . ان الكيد لقصير اليد على سعة امده ، فلا بد له يوماً من عثرة تهوي به وتلوي من زمامه فيتعظم ويطحن . قال ابن قيس الفهري : وهل بنا عنك ابو الدرداء ؟

فهب معاوية رأسه التباعاً . واي نبوة ! ... واطرق الرجلان . وذكرنا معاً ، دون ان يذيع احدهما في الآخر ما يموج في ضميره ، مؤتمر اذرح . كأن مؤتمر اذرح مضرب المثل في الكيد والغبن . والاثنان ، ابن ابي سفیان وابن قيس الفهري ، تحسسا في نازلة الكوفة رجعة اذرح . فالنبلة المسددة من سهم معاوية الى علي بن ابي طالب ردها الى معاوية الحسين بن علي . وهو خاطر يخنلج فوراً في كل نفس عندما تبدو للعين صرعة ابن هند في اغارته على اربنب . فالكوفة رأت في الامر انتقام الهاشميين ، ودمشق سوف ترى ما رأت الكوفة والنبأ ما برح فيها مغلفاً لم تنشق عنه الاكمام . قال الضحاك : لم تحسن اختيار صاحبك يا معاوية . اخطأت فيه كما اخطأ علي في اعتماد ابي موسى الاشعري !

فتأوه معاوية وقال : دعني يا ضحاك . دعني من حديث ابي الدرداء . كنت احسبه خير اداة لتحقيق المطلب ، فاذا به شر اداة لتشويه الاحدوث .

وثقت بطيب سريره وتقاه فذهبت ضحية طيب السريرة والتقوى . هؤلاء
 العاكفون على عبادة ربهم يجب ان نقيهم لربهم . فلا نكلفهم الشؤون الجسام .
 ولكن ماذا كلفت ابا الدرداء ؟ ... لا اراني اثقلت عاتقه بمفاوضة في عهد ،
 ولا باقرار سياسة . فما خرجت به عن نطاقه . ان الامر لمن اضلعه فما
 اضطلع به . ويزيد لم يكن راضياً عن هذا الاعتدال على ابي الدرداء . وقد تمثل
 فيه ابا موسى فصدقت ظنونه . واخجلناه من يزيد ! ... استهى ولم ينل .
 وواخشيته منه على الحسين بن علي ! ... اني لاراه ينغص على الحسين صفو
 ايامه . فلا بد ان ينتقم منه ، لا بد يا ضحاك . انا ادري الناس بولدي . سوف
 يتقاضاه بدل اللطمة غالباً . وهو بما لا اريد ان يقع . فليس من مصلحة
 الاسلام ان يغوص ابدآ في الدمار والدم . لقد ذرف يزيد دمعاً على خيبتة ،
 الا انه سيستنزف بها دموع الهاشمين . فما ان اطبق اجفاني للمقدور حتى
 يشور يزيد على من اقلقه في لبه . وهو مما يشجيني وانظر اليه منذ الساعة بعين
 مقروحة وكبد معتلة . اجل ، اني لاخاف يا ضحاك من فوران يزيد . فاني
 للقباض على مقوده ما دمت حياً ، ولكن من يقبض على مقوده اذا ما نأيت ؟ ...
 كنت اعهد اليك في امره ، ولكنك لن تقوى على الامساك بسورة احقاده .
 فهو اعصار ، بل زلزال !

وغرق الرجلان في هواجسها . ان يزيد في ثورته لقوة جارفة . فليس
 يملك حكمة معاوية ولا طول اناته وهو نار مضطربة ابدآ . فلا يقيم قدراً
 لحرمة . فاذا فار فائره استباح المصون واستحل المحرم . وخاف معاوية ان
 تنهار هذه الدولة بصلابة يزيد وجبروته ، فيتناثر المجهود ويضيع المسعى ،
 مع ان ابن هند سيد البيان لدهور لا لاعوام

وعلت صيحات في قصر الحضراء شفت عن دعوات وشتائم . فاستفاق معاوية والضحاك ، وهما يعيانها ، من غشوتها السادرة . ونظر احدهما الى الآخر مستطلعاً حدة الجلبة . فما بال قصر الحضراء يمور بالزعقات النوافر كبطون الازقة ؟ ... ونادى اليه معاوية حاجبه . ما الخبر ؟ ... قال الحاجب : هذا عبدالله بن سلام يا امير المؤمنين . اقبل مهدداً فابينا عليه المشول بين يديك فهبت فيه عاصفة من جنون . وانه ليشتم الشتم الغليظ ويضرب كل من يدنو منه . ولقد اضطررنا الى القبض عليه فلقينا من ارعاده وازباده المشقة . فهل يرى امير المؤمنين ان ندفع الحاقق الى السجن ؟

فقال معاوية وقد اوجعته من عبدالله هذه الاستساطة وقلق لها خاطره : بل عليّ به يا سعد . ما هذه الجرأة علينا تنتفض في ابن سلام أياكون قصر الحضراء مستباح الحمى فيقتحمه عبدالله ويصب علينا فحش القول وهجره ونحن سكوت ؟

وغلت فيه موجدته . لن يرضى بان تعلق في بلاطه صيحة موتور . هذا قصر امير المؤمنين لا قارة الطريق . وجمجم يخاطب الضحاك : ان نحن اجزنا لكل صاحب ان ينسلّ الينا مندداً بنا جازفنا بعالي مكانتنا وسهل على الناس امرنا . سوف يرى الاحمق اي قصاص نضربه به عبرة لامثاله المشاغبين !

وبدا عبدالله يباب الايوان والاضطراب في وجهه والزبد في شفتيه . ووجد نظراه على حقد يستعر وسخيمة ينطح قرناها . وصاح دون ان يجي معاوية بتحية الخلاقة : ابن هند ، ما جئتك اسلم عليك ، بل جئت انعى اليك المروءة والشتم . انت لا تتحلى بالنبل يا ابن ابي سفيان ، بل بالخذعة والحيلة . ملكت

الامر فينا بالكر ولا تبرح تسوسنا بالكر . فالعذر طبع اختمرت به عظامك .
وعبدالله بن سلام وقد عانى من كيدك الوبلات اقبل الى قصر الخصراء لينفت
في وجهك الشتمية . سخرت بي وعرضت علي ابتك كي اطلق امرأتي وصدقك
ان تزفها الى ابنك . ولما جئت اطالبك بالانجاز دفعت صفة الى التكر لابن
سلام . وما حملها على التكر بعد الرضا ؟ ... انت اهبت بها الى الرفض
بعد القبول وليس ابن سلام بمن يحق لهم مصاهرة امير المؤمنين . بالاستذئاب ! ...
كان امير المؤمنين ليس من طينة ابن سلام . ولكن من زين لك ان تغرر
بي ؟ ... كنت في مشواي آمناً فحرمتني النعمة والهناة . يا قاتل ، يا قاتل ،
أتريد منا جميعاً ان نذهب كعلي بن ابي طالب ضحايا على ضحايا لنقر عينك
ويتعش بك ؟ ... والله انما لعصاة اللؤم . ان سيفاً ضربت به سوف
تؤخذ به يا مضم الحزازات ومحطم الارواح !

فوثب حاجب معاوية على عبدالله . ومشى اليه الضحاك يدعو الى الكف
عن المثلبة . فليعلم انه في حضرة امير المؤمنين . فنهاما معاوية عن التعرض
له بسوء . قال : ليتكلم . ليفرغ كل ما في صدره . ان بيني وبينه لموقف
حساب !

وادّرع الحلم المالك اعنته . والتفت الى عبدالله يقول بصفاء في النبوة
كان القذع لم يطرق اذنيه ، وكان القدح فيه لم يلم به : واين اساءتنا اليك
يا عبدالله؟ ... شئنا لك السموفنا عنك . اقمناك منا مقام الابن فالتوى فيك
السعد . رغبت في ان اعقد لك على صفة ابنتي فعاندي كيد الدهر . اين
تراني ملوماً وقد بذلت في خيرك وسعي فما جاراني حظك العاثر؟ ... كنت اشد
بك اليّ وبعبدك حظك عني كان له عندك ثاراً يا ابن اخي . ألا امسك

لسانك عن عمك ، ان عمك لبريء الضمير حبال نسيبه وصفيّه عبدالله بن سلام !

وتناهى في الملاينة . ماذا يرجو عبدالله بن سلام ومعاوية لم يبق على مشتهى الا طمع له فيه ، ولا حامت عيناه على خير وبركة الا تمنى ان يرتع منها ابن سلام في اكبر نصيب ؟... ولكن عبدالله وقد اورده حتفه هذه الجماملة الحادعة ، الزائفة ، لم يستم الى ابن هند في مسيرته ، بل هاج فيه غله الطفعان وصاح : معاوية ، هذا السلاح يلي بالفلول لفرط استعانتك به علينا . نحن قوم اصبحنا لا نؤمن بتدليسك ومماذقتك . فانك لتملك لساناً ذرياً ، ودهاً وسيعاً تطلقهما على ضحاياك لتنعن فيهم دعساً وتمشياً . اما من جربوك فاضحوا على يقين انك تحتال عليهم في اعراضهم بدمانة مقالك ، وخيل بحسك . معاوية ، انت افعى . ومن يجرو على ان يفتح صدره للافعى تمرح فيه ؟... انت حرباء ، فتبدو في اللحظة الواحدة بالف لون ولون . ولست تثبت على لون . فصلتني عن امرأتي لتطرحني في دمشق سخريه للقوم . فالجميع يستحقونني وقد وثقت بك ، وركنت اليك . والجميع يعلمون ان من يضافحك مغبون حتى في مصافحتك . فليس يلقي يده بيدك الا وهو على بأس من جذب يده سالمة . فلا بد ان تتزع منه احدى اصابعه . يا ويلك من يوم الحساب يا ظالم . ألا أعد اليّ امرأتي . لن ابرح هذه الدار الا وارينب في عصتي . فكما سلبتني اياها أعدها اليّ !

فقبه معاوية ضاحكاً وقال : أعيدها اليك ؟... ولكنها لا تزال في الكوفة ترقب عودتك . فانطلق اليها يا صاحبي ، نحن لم نمنعك من اكلة ولم نحبب عنك شربة . ارينب لا تبرح في خدرها سالمة آمنة . فما نزعناها منك

ولا ابعدها عنك . اتنا لقوم نتحامي الائم ونتخرج من الهضيمة . ارينب
باقية على عهدك فبارك الله لك فيها !

فصاح بغيظ راعد : اتظل ماضياً في خداعك ولا تحجل ؟... ولكنك
اروفدت ابا الدرداء الى ارينب يخطبها . ألا تعرف للصدق وجهاً فتلوذ به
في مقال ، في نظرة ؟

وتراعى للضحك ، فيما عبد الله بن سلام يقذف معاوية بالشتيمة العضوض ،
ان ابن ابي سفيان سينقض عن سريره على الشاتم ويمسك بخنثاقه وينتزع
روحه . غير ان معاوية ظل في سدته لا يتحرك . بلى ، لقد أعلن بهدوء توسك
ان تلمّ به الغضبة ثم تشني : عبدالله ، ارينب لا تزال في الكوفة ، فلماذا
الحق البغيض ؟... لا نحن على هيام بها ولا هي على شوق الينا . طرّ اليها ،
لسنا بمن ينافسك فيها يا ابن اخي !

فادركت الحيرة ابن سلام . فهو لا يفهم . قال والغيظ فيه على جمام : لا
تنافسوني فيها ؟... انك لتدهشني يا معاوية . لا اراك على سوى لف
وعرج ، كأن طبعك يأبى ان تستقيم . أتوفد الى ارينب من يخطبها لابنك
يزيد ثم تجرؤ على الزعم انك لم تنافسني فيها ؟... اللهم رفقاً وعوناً ، ان هذا
لافك بليغ !

فلم يتخرج معاوية في طول أناته . قال بلؤم زعاف : لا تبرح ارينب
في الكوفة . نحن لسنا مزاحميك عليها . مزاحمك الحسين بن علي سيد بني
اعمامك الكوفيين . حاميمهم ومفخرتهم . شاقه في ارينب الحسن فعدا عليك
فيها . لقد تزوجها يا ابن اخي !

فتلطخت عيننا ابن سلام بالدم . وبداله الايوان بؤرة شر وفساد فرعد :

معاوية ، انت سلبتني اياها . لولاك لم تقو يد على انتزاعها مني . لكنك وقد اردتها لابنك فتحت عليها العيون . وكيف السبيل الى استعادتها بعد اجفائها ؟... لادعون عليك بالنكال والوبال . يا قاطع القلوب ، هلا قطعت الاجساد ؟... اقتلني وانقذني من عذاب اعاني فيه الوبلة . رفعتني واهويت بي . هزرت مني النية واللب وكدت تبليني بالسقم . ألا خذ حياتي وخلصني من نكد احترق فيه . ما ضرك انت تغصب حياتي بعد ما فجعتني بمنتهى املي ؟... معاوية ، انك لما كرم مجرم ، لينزل عليك غضب الله !

فضحك معاوية . استطاع ان يضحك . قال : هذه كلمات لانرمي بها يا عبد الله . فالمسيء اليك احق بها منا . والمسيء اليك ليس معاوية ولا ابنه يزيد ، بل الحسين بن علي بن ابي طالب . وهو من ابناء اعمامك مثلي . فانطلق اليه وعاتبه بما تعاتبني به . لو كانت اربنب في قصر الخضراء ، معقوداً عليها ليزيد ، وسمعتني هذا القول الصافع ، لاعدتها اليك مباركاً لك فيها . على انها انتهت الى الحسين فسر اليه وارشفه بهذه المستملحات ، فقد تبلغ بها الارب . اما انا فاني لنظيف اليدين من دمك . ابحت عما يجديك يا ابن اخي ولا تضع ايامك في المحال . اربنب في الكوفة لا في دمشق ، في مقر الحسين لا في هذا الصرح . اني ادعوك بالسفر الحميد !

ونض الحليفة كأنه يعالن عبدالله بن سلام ان عليه الانصراف . فلم يبق الى متابعة الحديث مجال . ولكن عبدالله ابى ان ينصرف . فظل مكانه يفيض بالقول المعتكر ، اللفظ : معاوية ، لن ابرح هذا الابوان الا وقد انصفتني . والا فاني مذبح في الناس فضيحتك . فصلتني عن امرأتي لتزوجني ابنتك ، فطلقت اربنب وكان ان حرمتني صفة امتهاناً لي . بل انت ما شدت علي

في طلاق اربنب لسوى رغبتك في ان تعقد عليها ليزيد ، فاذا بالحسين يسبقك اليها . فضيحة ادت الى فضيحة . وانت في الفضيحتين ذليل المهزلة ، مهين الكرامة . لك الويل من بني قومك حين يدرون ما كان منك وما آل اليه امرك . ساطلهم على مثابنك فكن رضي النفس . ان من ازدريته سيكون منك في طليعة المحترقين المؤذنين!

فصاح معاوية وقد طفح فيه غضبه ، وتوترت اعصابه مع جهده في تنويمها : سعد ، اقبض على هذا المهذار واخرج به من ابواننا ، فليس له بيننا مقام ! فعمي عبدالله في سورة غله . ايطرده معاوية بعد ما جرده من النعمة على مديد سعتها ؟ ... وصاح بصوت اهتز له الايوان : معاوية ، معاوية ، أتدرك ما تقول ؟ ... لا يخطر لك في بال انك خليفة وان الخلافة تبيح لك اعراض المسلمين . انك لما فون الرأي ان يكن هذا الوهم ينفذ منك الى مستقر الضمير . ما انت في الخلافة لسوى كوننا اردنا ان تكون فيها . كنا نحسبك في عدل عمر وحزمه فساعدناك على انفسنا وغالبنا فيك اكرم وجه ، فاذا بك تستعين بالبطل على الحق ، وبسلطانك المطلق على الضعيف المظلوم . انها لقحة ياأباها الله ويستجير منها رسوله . اين امرأتى ايها المفتت بالقلوب والارواح ؟ فأعاد معاوية كلامه كأنه لم يسمع : سعد ، اخرج بهذا المهذار من حضرتي !

فزجر عبد الله : أيجرح بي من حضرتك ؟ ... انك لتدعوني الى ما تميل اليه نفسي . فلست ارضى عن بقائي لحظة امام رجل يخنق فينا الحق وينصر علينا الغضبية . اني لمنصرف عنك . فلا اطمع في شرف الوقوف بين يدي هاضم الحقوق . ولكنني لن ابتعد خطوة الا وقد انصفتني او انتصفت منك !

وهدد . فزأر الضحاك : أتوعد يا ابن سلام ؟

قال وهو يحس بأنه الخاسر ويميل الى عرض ظلامته على كل ذي سمع وبصر لتبريد فورة احقاده : ايها الضحاك ، هل رأيت من اجتاحه الظلم مثلي ؟ ... كنت هامة فأصبحت ذنابى . كنت في فضلة من نعيم فتدحرجت الى وهدة البأساء . وهذا هو ظالمي يا ضحاك . ذلك السيد القابض بيمينه على دنيانا ، المعتصم بسلطة الرسول فينا لا ليهدينا بل ليقودنا في فجوات الضلال . اذا سئلت غداً يا ضحاك عن صالح النعمة مني فاجب انه هذا الشانىء الخادع ، الضاحك من الناس في احسابهم واقدارهم لينعم بتعسهم ويسعد بكرهم . اني استعديك عليه في ملمي فكُن الجير المغيث !

وبكى . كل ما بذل من جهد التوى . كل همة فيه صارت الى وهن . ورفق به الضحاك فقال على معاوية يوشوشه باستعطاف الحنان : ألا سبيل الى الرأفة به والحدب عليه يا امير المؤمنين ؟

فقال معاوية وقد وضحت له فكرة الضحاك بن قيس الفهري : وكيف

يا ضحاك ؟

— بان نرف اليه ابنتك صفة فنعوضه مما لقي !

— ابنتي لا ترغب فيه . أددعوني الى اكرائها على ما تفر منه ؟ ... ما

تعودت ان اداوي النفور بالاكراه !

— ولكنه قد يملا رجبة الاسلام شكوى ويتهمك بانك تجنيت عليه .

وله في سرد روايته شفيح بغض من منزلة امير المؤمنين !

— نحن لم نسلبه امراته يا ضحاك ، فليضع من سلبه اياها . خصمه الحسين

ابن علي لا معاوية بن ابي سفيان ، ولا ابني يزيد !

والتفت معاوية الى سعد يقول : هلا حجبتنا ؟ .. طال مرآنا اياه !
فقبض سعد على عبدالله بن سلام . فمانع عبدالله بقوة واصر على
البقاء . واشتبك والحاجب في صراع انتضى به سيفه وهو يزعم : سابقى هنا
ريثا ادرك النصفه . فلن ابرح هذا الايوان الا وقد عادت الي امرأتي . يا من
سخرت بي لتنال مأربك مني حرمك التنعم بمأربك الله . هذه دولة ادعو عليها
بوشيك الانهار وهي تجري على خسف وسقال !

وطاب له المضي في نقت اوتاره ، الا ان الحاجب دعا اليه نفرآ من حرس
القصر فجرآوا عبدالله الى باب الحضراء ومعاوية ينظر ويسمع ولا يبالي . فعاد الى
سدته يجلس عليها كأن لم تقع في الايوان مأساة . قال يخاطب الفهري ويوارب
في رثاء وكيد : ما به يشكو الينا امره يا ضحاك وامرأته في دار سوانا ؟ ...
ليطالب بها الحسين . نحن ما اردنا له مكروهاً . وكيف نزيد له المكروه
وقد اعدناه للعالي ؟ ... ولكن حظه قاتله . لم يكتب له زمنه التوفيق
والفلاح !

فقال الضحاك : على امير المؤمنين ان يقصيه عن دمشق . بقاؤه في هذه
الحاضرة بادرة تسيء الى الخليفة . فلا بد ان يمضي في اذاعة حكايته ، وليس
في اذاعتها فخر !

— صدقت يا ضحاك . علينا بنبذه . ليرجع الى الكوفة وليقم فيها القيامة
على الحسين . سنقصيه عنا ليزعج المستقر هناك . فقد ينقذنا منه ابن علي
بقطع رأسه . ما تعف عنه يدنا سوف يجد من يقدم عليه . فالى الكوفة .
لا بأس ان يصغي الحسين الى هذه الانعام !
وعاد يدعو اليه حاجبه قائلاً : سعد ، لا تطلق عبدالله في دمشق ، بل ادفعه

الى الحدود وامنعه من العودة الينا . دمشق ليست متواها . فليعد الى الكوفة . فهي مقره بعد الآن !

فامتثل سعد وعمد الى عبدالله بن سلام يبلغه امر معاوية فيه : لا تقم في دمشق . اقامتك فيها تعرضك للهلكة . مكانك الكوفة . فارجع اليها ، فهي مأواك . سيحملك رجالنا الى اطراف هذه الحاضرة . فاسلك منها طريقك الى العراق !

فاشدد به الاعوال : أهذه مشيئة امير المؤمنين في عامل من اصدق عماله؟ ... انه ليجود وغمط فضل . آه من اللئيم !... دعاني اليه على سوؤدد وابعديني عنه على مذلة . فسح لي داراً بخدمها ورياشها ليرذلني بعد ما امتص عودي وبأبي علي ان استظل هذه السماء . معاوية ، لن تخلد في مقامك . سوف ينتقم لي منك من يقلقك في مضجعك وينثر رمادك طعاماً للريح . هذا الدهاء الحامل لواءه سوف ينقلب عليك إحناً يثلم بها مجدك . فالبعي لن يدوم ايها الثعلبان ! واستسلم الى سعد يقول له : افعل بي ما يوحى به اليك ضميرك . نفسي كرهت البقاء في مستوقد النار !

وقاده عشرة من الجنود الى اطراف دمشق قائلين : تابع طريقك الى العراق . عودتك الى عاصمة معاوية تكلفك حياتك . اذا شئت الاحتفاظ بروحك فانزل على حكم امير المؤمنين !
فدمدم وهز برأسه : أليكون أمير المؤمنين من يخادع وينافق ويجور على الاخيار؟... واخية الاسلام !

الرمال محرقة ، تنأجج سعيراً ، وعبدالله بن سلام يفرق فيها بهمة حسيرة
لا تطيق دفعاً . فهو يسير الى العراق لرؤية اربنبن . ولكن هل يستطيع
رؤية امرأة افلتت منه وبانت تستظل جناحاً آخر ؟

وكيف يجرؤ على المثول امام اربنبن وقد طلقها جزافاً ، وسخر بجها
له وبخلجات قلبها ؟ ... انها لغضاضة هذه العودة الى العراق ، بل هي خسة
داعرة . فهل نضب جبين عبدالله بن سلام من الحياء وماتت فيه الكرامة ؟
قاتل الله معاوية ما اقسى جنانه . رام ان يسلم منه اربنبن فرماه
بالغواشي على متعدد ضروبها دون ان يطول المشتى . اربنبن عزت عليه ،
فادى عبد الله بن سلام بدل الحزبة المكساف

وتعجب من نفسه كيف يعود . وتذكر كيف اقبل . كان يسير في
موكب جرّار ، على صهوة جواد كريم بطوي الصحراء كأنها ثوب من الخز ،
في وثبات ضوامر كالوميض . فما شعر مثله الآن بلذعات الشمس تقرص رأسه ،
وعنقه ، وبديه ، ورجليه ، وتسيل في بدنه خيوطاً من رصاص تنزوها عروقه ،
فيروي الرمال ويجهده الظلم . ألا كم سوف يطول هذا الشقاء اللاهب ؟ ..
فلم يكن عبدالله يلقي على نفسه هذا السؤال في اقباله الى معاوية ، غير
انه يلقيه في ادباره عنه وهو يحيط بنعليه الباليتين فجيعة على الصفحة الغبراء
وسافر في قافلة تقطع الفلوات الى السواد نكرة لا يبوح باسمه . شقي

من اشقياء الناس نبت به دمشق بعد عز سميح فلاذ منها بالكوفة . وشاهدته
القافلة يتورغ في يأسه وبؤسه فتحدثت عليه . الصدقة تجوز في المساكين .
ومد عبدالله الى العطايا يداً ترتجف ، وانمض عينيه لثلا يري . فهو على خجل
من نفسه . أأستجداء بعد سعة ؟ ... احسنت اربنب في نسيانه واجسادت
التدبير في الانصراف عنه الى الحسين بن علي . فالحسين اوفى الماماً بقدرها من
عبدالله . عبدالله خانها ولفظها وانه ليحسر على الجبو الى الكوفة وهذا وزره .
وسوف يقتحم في الكوفة خدر اربنب . أملكك هذه الشكيمة ؟ ... لا بد
من القصة . اودع اربنب اموالاً وزاناً وهو بحاجة الى هذه الاموال يرد
بها عنه الاملاق والحصاصة . فهل تبخل بها عليه اربنب ؟ ... انها لتطحنه اذا
فعلت . وبوسعها ان تفعل . فليس لتلك الاموال قيد . ومن حقها ان تفعل
وعبدالله ليح في العواية . وخشي ان تمسكها عنه . وكيف يطالبها بها اذا
انكرت ونفض الثوب والدين ؟

هي اموال تضمها البدر الطفاح . فالدر فيها ، والذهب فيها ، واللؤلؤ
فيها . وجل اعتماده عليها في تقليم محالب الدهر . واعتلجت في صدره الآمال
والظنون . وكاد ينسى مكر معاوية حيال ضيعة الاموال الراسية في قبضة اربنب .
على انه ارتضى بمن طلقها كل عدوان وانتقام . فهو المفترى . لم يحجم عن
الدناءة لنحر حبه ، وليس على اربنب من حرج اذا انتقت منه بسلاحه .
انكر هواها فلا عجب اذا انكرت ما استودعها من نضار

ولولا الفقر المستحکم منه لاشاح عن هذا المال مها بلغ من قدره . بيد
انه في ضيق خائق يسد عليه منافذ النور . وهذه الغبشة المسدولة على عينيه
اهابت به الى البحث عن درهمه الماجد ، فلو انتشعت عن باصرتية لابي على

قدمه ان تمتد به الى مشوى فاتنة نهاه

فاتنة نهاه ، اجل . ولكنه هام بصفية بنت معاوية . لا ، ما هام بصفية
هيام المشتاق ، بل هيام الطامع في الرفة . فلم تطلع عليه صفية بصباحتها
ليهم بها . كل ما شغف به منها انها ابنة معاوية ، وان معاوية خليفة المسلمين ،
واي سيد ضخم هو خليفة المسلمين . فاذا ما انجده شديد له في الافلاك دارات
ومقاصير . وهياماً منه بهذا السراب الواعد كفر بامرأته ، فاذا به يبقى على
سراب !

وهل يميز له الحسين بن علي رؤية اربنب ومحاطبتها ولم يبق له من حق
عليها ؟ ... قد يكون الحسين من الغيرة على قسط راجح ، فهل يرضى بمن
باعها وتعرف فيها الى نضرة الفتوة ان تحادث فتى اذابت في حبه مخمور
الصبابات ؟ ... ان قلبين تحابا لا يتباغضان . والحسين فيهم فطين ، فلن
تخدعه المطالبة بالمال ويخبر لعبدالله رؤية من لا يزال حيا لها العاشق المستهام
وبمن يستجير هناك عبدالله لا بلاغ اربنب انه عاد الى الكوفة ؟ ... كان
له في الكوفة اصدقاء ، ولكن ألا يبرح هؤلاء الاصدقاء على ولاه ؟ ...
ليس يجهل قدر الناس . فلا صديق في المحنة ، بينما هم كثير في الرفاهة . ربما
تتاساه من كان له صديقاً وهو من عمال معاوية ، وال من الولاة ، يدير الامر
باسم خليفة دمشق وتنحني له الجباه . وهل من يلتفت اليه وهو صعلوك هش
لا يملك عشاء ليلة ؟ ... لولا رفد من فزع اليهم في الطريق لقضى جوعاً ونهشت
جثائه الافاعي والسباع

قال : وما يحول دون مثولي امام الحسين بن علي استشفعه في امري ؟ ...
ان الحسين لرحب الصدر ، سبط البنان ، فلا يمانع في محادثتي اربنب في ثروتي .

وارينب صادقة في امانتها ، فلن تمسك عني وفري عندما تلمّ بجالي !
ورأى ان يسعى لنفسه . فهو يعرف الحسين معرفة فضفاضة . هذا ابن
عمه تجمعه به اسرة قريش ، فلن يحتاج الى من ينصره لديه ، ولا الى من
يستميل اليه حفيد الرسول . فان يكن النسب لا يرفق بالنسب فمن يرجى
الرفق والحنان ؟ .. ولكن معاوية نسيبه ولم يرفق به . ان معاوية منه لاشبه
بالحسين في وحدة المنتمى وما رأف به معاوية ، بل هزه حتى جرده من
اوراقه النضرات . فهو الآن شجرة عدا عليها الحريف المتلاف . قال : اذا وقعت
في الحسين على ما وقعت عليه في معاوية فلا كانت الحياة . ليس لي غير حفرة
اهوي فيها والتحف بالتراب !

ومال الى الانتحار يخفي به لؤم زمنه . وطالت لحيته وجله شعره .
واشدت به سمرة وألمّ به الهزال . ولم يكن ينطق الا اذا سبق اليه الكلام .
واذا تكلم اكتفى بما قلّ . فكاد يكون ابكم . وما جهلت القافلة انه
موتور ، على انه لم يكن يفضي بامرّه . فكل ما ادلى به انه يشكي عسرّه
ولم يزد في الايضاح . كان على ثروة جرّارة الاردان فاذا به في عوز فاضح .
هذا كل ما استطاعت القافلة ان تستجلي من خفاياه

والقافلة تحدثت على مسعاه عن غدر معاوية بعبد الله بن سلام ، فاصفى
ولم يعلن نفسه . وعلام تقوى القافلة في اسعاده وليست تملك المقدرة على
تبديل حرف من المكتوب ؟ ... فليخنق اشجانه في صدره ، ان خنقها اولى
من فضحها ونشرها والاحترق بلوعتها على مرأى من كل عين

واطالت القافلة الحديث عن مكر الخليفة . قال رجالها : ولكن معاوية
سقط حيث أمن العنار . نافسه في ارينب من هو اطول باعاً ، واسمى جاهلاً ،

وحرمه اقتطاف الثمرة !

وعرف الجميع من هو السيد البرز والمهام الذنب . هذا الحسين بن علي رجل الكوفة وواحدها . ولم تعجب القافلة من اسفاف معاوية في مناظرة الحسين . فالبنصر دون السبابة في القوة والمكنة . قالوا : ان ابن فاطمة للمولى الخطير . فليس لابن انثى في هذا الزمن ان يضارعه في الصولة . ان تكن الخدعة نالت منالها من ابيه فلا بد من يوم يعود فيه الليث الى العرين . وبأوي الحق الى مغناه !

وطعنوا على معاوية وشتموا به . نصب الشرك فسقط فيه . وضحكوا طويلاً بما افضى اليه امر يزيد ، تبع النساء وطلبهن ، فكأنه يأبى ان تفوته حسناء . ما كفاء ما ينعم به منهن حتى ضاق به حب اربنب ، زوجة عبدالله ابن سلام ، فطاب له ان يسلمها من زوجها . ولقد فرض معاوية على زوجها طلاقاً ليأنس بها يزيد ، فكان ان امتدت اليها بين الحسين غير هيابة ولا واهنة تسبق الجميع الى لذوى الشهوات .

ولاحت الكوفة . هذه هي بنخيلها وقيابها ودورها البيض . كسبتها الصعراء غلالة غرباء الاديم الا انها شفافة النسيج ، لا تحجب هيكلها ولا ظللاً . وارعد عبدالله بن سلام وهو يطل على الكوفة . انه لمقبل على شدة لم يعرفها في دمشق في انكد وقفة . فالأساة لا تبرح مستمرة في الدهمة والاحراج . سيرفه القوم في الكوفة وسيتهكمون عليه . وخشي النظرات الحبيثة الواقفة له في الطريق توري بقدره . فليس بين الكوفيين من لا يجيد الهزء والسخر . كلهم سيضحك من غفلته ومن حمقه . باع الدر في مقابل وعد مهلهل نفعه به معاوية . ولقد خسر الدر ولم يظفر بالثمن ، فكسفه

العين في الصفة . هو مظلوم أبه . ولم ينكر على نفسه البه . افلت ما تملك
يناه في سبيل ما لا يبرح مشكوكاً في غنمه . استرَى بذخور حنينه غمام
زهراً في الافق البعيد ، تتألق في شروق الشمس وغروبها ، فتبصرها عينه
ولا تطولها يده .

وتنت ثيابه . وتلاشت فيه اناقة الامس . فالاجير في الركب خير
منه . وتحمى العيون في ازقة الكوفة . هذا جواب آفاق لا عبدالله بن سلام .
والتصق نظراه بالارض . فليس يميل الى معرفة احد . وتذكر ماضيه القريب .
لم يكن يبدو حتى يتحلق عليه القوم منادين باسمه . فهو الوالي المطاع . اما
اليوم فانه لنفاته موبوءة بقيها حتى الموبوءون

ودنا من صرح الحسين بن علي . قد تلوح له اربنب في احدى النواقد ،
في شرفة من الشرف ، فتراه في اسماله فتوق له وتشفق عليه . ولكن أيجلج
عنه كل حياء ويحبو الى اربنب ؟ ... هل نسي ما كان منه فيها ؟ ... على انها
الضرورة ، والضرورة سيده قاهرة . وهو الاضطراب ، والاضطراب رهيب
السلطان . ووقف امام الصرح بين الواقفين المستوفدين . وباب الحسين يغص
بالمبظلمين يعرضون اشجانهم ولم يكن يحتجب ابن علي عن الناس . هؤلاء عدته
لليوم الانور الجهم . فينصفهم ويعينهم على زمنهم كي ينصفوه ويعينوه على
الغاصب . ودخل الجميع يقبلون الارض بين يدي الحسين الا ذلك المائم الوجه ،
الحائف رؤية النور . فناداه احدموالي الحسين وقد اوشك النهار ان ينقضي :
ما بك يا ذا القناع في ازورارنا ؟ ... أتقبل الينا وتبتعد عن حمانا ؟ ... ما
جاء بك الى امير المؤمنين ؟

فاجاب المائم بانين المكروب ، الغائر الصوت في غصة : جئت استظل هذه

الجدران . فقد اشعر وانا اتقيأها بالراحة . اخوك نضو اسقام ، فدعه في
جشته . ليس ينبغي رفقاً ولا قرى !
فادهشه المنطق الشاذ . ما تعود هذه النعمة الغربية اللون والثبرة . قال :
ومن انت يا اخا العرب !

— انا من نبت به ارضه وغضبت عليه سماؤه فلم يجد غير هذه الرحبة
ياوي اليها لانقاء العدوان . حسبه هذا الفيء ينشر عليه ملاءته . فانه فيه
لناغم بالصفاء !

فازداد مولى الحسين دهشاً . وحبا الى الملم يقول : يا بني انت وامي ،
اني لاشم فيك طيب النبل وأمس في مقالك نواح الحق الدمي . فمن انت
ايها المعتل الحشاشة ؟

ودنا منه وقد اوشك ان ينضو عنه لثامه . فمانع المقنع وقال بتأوه :
لا فائدة من رؤية وجهي . ان وجهي لتشجيك غضونه . فهو كقلبي غريب
الضك والغم . واني لاخشى عليك من دمامته وانت تقف على جلي اساريه ،
فارفق بنفسك ولا تقنجم الهلكة . اني اضن بك ان اثير فيك الروح !

فجمدت يد مولى الحسين وقد تولتها الرجفة . كادت تميط اللثام عن
وجه المنكود فحاذرت وهلة المفاجأة . وانكفاً المولى الى سيده ينحني
امامه ويقول بوجل : اني لمبلغ امير المؤمنين نبأ ذا خطر . بالباب رجل مقنع
يتلفع بيؤس نبيل . طغت عليه اطماره الا انها لم تطمس فيه إباهه . دعوته
الى عرض ظلامته فاحجم مكتفياً بان يتفياً ظلال معقل المكرمات !

فانتابت سامعيه رعشة من حيرة ووجوم . من البائس النبيل المقبل على
تلك العرصات يلوذ بفيئها ؟ ... وفزعت العيون الى العيون . قال الحسين بن

علي : اما استطعت ان تربح عنه قناعه وتفوص على سره ؟
- ليس يبوح بما تضطرب به نفسه . جلّ ما استطعت ان ادرك من
حديثه انه عزيز ذلّ و كريم كلّ !

فسادت الرهبة المجلس . قال الحسين يغالب فيه القلق : عليّ بالرجل .
لن نرضى بان يؤم دارنا طالب نصفه ونعانده في احقاق حقه . نحن هنا لدفع
الجور والمكروه !

فعاد مولى الحسين الى الرجل المقنع يقول : أجب امير المؤمنين يا ابن
أمي . فالحسين بن علي يدعوك !

فاعترض الغصة في المنكوب مجال النطق . كيف يمثل في حضرة ابن
علي وقددهم الارتباك الممض ؟... يريد رفع ظلامته الى الحسين ويخشى
ابدائها . قال بارتعاش : وهل ابليت امير المؤمنين امري ؟

- ابليت انك بالباب ، وهو يريد ان يراك . فقم اليه . ان الحسين
خليم رحيم . سينقذك من اوصابك ويضمد كلومك . ما عرفت ارحب منه
صدراً واندى بدأ !

وقاده الى الحسين . واشتد بين ضمتهم الحلقة الاكمداد والروع وهم يبصرون
بذلك المقنع الرثّ في مجلس ابن علي . وتطأوا من مرآه . فان في خطواته
جلالاً مع كل ما يمور فيه من غشائه نكداء . فكانه روح من الارواح
المقهورة بفجأهم من مطاوي الغيب . ومشى الملمم الوجه الى ابن علي يمشو
امامه ويقبل الارض بين يديه ويقول : السلام على امير المؤمنين ابن
الاصفياء الابرار !

فزادت هذه المهزة في الارتباع المستحکم . أنسان من لحم ودم

يتكلم ام طيف من الاطياف؟... قال الحسين : والسلام عليك يا هذا ،
فمن تكون ؟

فاعلمن : انا من احتضنته النعمة فكفر بها ، ومن حالقه السعد فناكره
واقصاه !

— عرفناك مظلوماً ومرآك يشير الى بؤسك ، ولكن من انت وما جاء
بك الى حمانا ؟

— رأيت ان ألوذ بكف حفيد الرسول بما ألمّ بي ، فاقبلت اتوسد هذه
الجدران ومناي انت ألقى في ظلها امناً وسلاماً . انا من كواه المكر
والخداع يا امير المؤمنين !

— ولكن اسمك ، ما اسمك ؟... ألا تدري انك تسيء الى الكياسة
بدخولك علينا ملثماً ؟

فارتفع صوت جريح من تحت اللثام يقول : اؤثر ألا ترى عينك هذا الوجه
الملثم يا امير المؤمنين . فان وراء اللثام لاشجاناً قوارص واهوالاً صواعق .
فالتسترو عنك بعفوك افضل من كشف عربي وشهامة العاذلين بي . فقد
اقدمت على منكر لا تحمد مغيبه اخشى فيه من تنديدك واستهانتك . فاني
لمجرم سخييف استجير بحلمك من غباوتي الرعناء !

فاشتاق الجميع ان يعرفوا الرجل . فمن هو ؟... لقد اثارت كلماته
عاصفة من فضول وشجو . قال الحسين : زحزح قناعك عنك . لا بأس ان
تقف على شرك ونلمّ بامرك . فمن تكون ؟

فامتثل واماط اللثام بيد ترتجف . واذا غمغمة تعلو المجلس وقد مازجها
الحواف : عبدالله بن سلام ، ضحية يزيد !

واتسعت العيون رعباً حيال الدمامة العارضة . انه لوجه شؤم . وجه عائد من القبر . طالت لحيته على اصفرار حيا ، وذبول عينين ، وهزال ، وغثور . فلولا اعلان نفسه لانكره من مجمعهم المجلس . ألا كم تبدل عبدالله؟ ... كل ما نعم به من روعة ونضارة انطفأ فيه ، الا الالباء . فقد بقي . والتوت قامته وهو يكشف طلعه . وخاف ان تجول عيناه في الابصار المسددة اليه فاطرق . فهو مهزوم خجول . وبلغ الحسين ربه وقد ايقن انه هو . ففي اي حاجة شتم اليه؟ ... و تماسك حفيد الرسول وقال بلوعة الاشفاق : عبدالله ، أأفضى بك نكدك الى هذا الحال العسير ؟

فكاد دمعه يفضحه . قال : هذا جزء من يؤمن بذوي الحتل والغدر يا امير المؤمنين . خدعتني معاوية عن نفسي فاستتمت اليه ولم اكن اعلم انه يراوغ كالذئب . غرّتني ملامسه فعانبت لسعته . واني لراض بما انتهى اليه جهلي . لم امثل بين يدي امير المؤمنين معاتباً بل مستنصراً مستغيثاً . ان استثاره بارينب لانتقام لي من الرجيم . بارك الله له فيها ، فقد اخزى بعقد قرانه عليها خصمي ولطمه لطمه افقدته البصر والرشد . واذا ملكت الجراءة على ارتياد هذا المعقل فاني لا بدو فيه للاستمتاع ببعض تنافات من مال اودعتها ارينب وابي لي دهري العاتي ان اتاساها . فالفقر جرّني الى امير المؤمنين ابحت عن وفري ، لا طمعي في حسن لست به ذلك الحقيق !

فقلت غمرة من الالم سامعيه . انه لمنكود مرزوء . قال الحسين : أياكون الك عند ارينب مال جئت تطالبها به ؟

فاجاب بصوته الكئيب : هو مال لا يجوز لمثلي ان يدعيه . ولكن نضوب يدي وشحّ موردي اهابا بي الى استدرار عطف من ليس لي ان اقدم

على مخاطبتها في الخطير ولا الحقير !

فقال الحسين : ان تكن ارينب مؤتمنة على هذا المال يا عبدالله فلا اراها
جازفت به . فانها لتستبقيه على عذرته . وانت تعرف ارينب كما اعرفها ،
فما تؤمن عليه يرتع لديها في حرز حرز !

قال عبدالله وهو يتأوه : ليس في النساء كأرينب يا ابن علي . فان فيها لمن الحرص
على الحرمات ما يندر في سواها . هذه آية الله في خلقه ، فمن غنمها غم
الحسن والوفاء والرفاء . فالجنة حيث تكون !

واجاد وصفها . ونضضت الشفاء بالوشوشات : لا يزال يهاها !

فقال الحسين : سنوفد الى ارينب من يستوضحها طلبتك ، فاذا ايدتك
في ما تعلن جئناك بالوديعة سليمة مجلوة !

وصاح باحدى الجوارى : ادخلي الساعة على ارينب في محدنها وحديثها
بما يسأل عنه عبدالله بن سلام ، وعودي اليّ بالجواب العجلان !

ودعا عبدالله بن سلام الى الجلوس ، فاستحيا عبدالله . أنجلس بنته وورثاته
بين هؤلاء المتلألئة فيهم النعمة ، الفواحة اجسادهم بالطيب ؟ ... والقى على
الحسين نظرة يستشفع بها في نفسه : ألا عفوك عن الازراء بي !

فنضت في خاطر الحسين خشية عبدالله . قال ابن علي : لا عليك ،
اجلس ، ما كان الثوب ليرفع من قدر الناس ولا الفقر ليحط من مكاتهم .
انت من قريش سواء كنت على املاق او نعمت بالوفر . ولقريش منزلتها
في العرب ورايتها في المسلمين !

وابى عليه الا ان يجلس في المقام العالي . ونادى خادماً من خدمه يقول
له : يا غلام ، احمل الى عبدالله كساء وعباءة من نخبة ما عندي !

وما نسي الخداء . فاستغفر ابن سلام الله عن هذا الازعاج . فقال
الحسين : انت في دارك ، فاطلب ما تشتهي . ما جردك منه معاوية من مال
ومتاع سنسخو به عليك . انك لمن ابناء الاعمام . فلسنا نريدك عرياناً مملقاً!
فبكى . هذا السباح استنزف منه الدمع الهاتن . وبكى كل من في
المجلس . قال الحسين : ألا حدثنا عما لقيت من مكر ابن هند . فهل بلغ به
الكيد الى الوعد ثم النكث ؟... خدعك بصفية ثم لواها عنك ؟... انه
لهادم يستطيع العبث بالناس كأن الناس سبحة يلهو بها هذا رجل لا يبرح
يعيش بعقل الجاهلية . ابوه تاجر بالعباد وهو ولوع بهذه المتاجرة . فلا شأن
لديه لتحطيم القلوب ما دام قلبه على صفو ومرح ، وما دام القوم يجررون في
ركابه خاضعين . وقد يخضعون كرهاً وقسراً ، الا ان الافراط لا بد ان
يجرّ الى العصيان . عبدالله، ستكون بيننا عزيزاً جليلاً . اذا ضاعت في خدر
ارنبب الوديعه فانك لواجدها في كف الحسين !

فعاد ابن سلام الى تقييل الارض بين يدي ابن علي . انه لشهم مفضل
هذا السيد النجد وليس يفر من حق ولا يخاتل في عهد
ووقفت الجارية بين يدي ابنة اسحاق . وارنبب ، مع رضاها عن مباعه
الحسين اياها ، ظلت تعيش بنبضات قلبها . فالحب الاول الخافق فيها يموج على
غليان . هويت عبدالله بن سلام وان تهوى سواه . ان الحسين لاسمى عزة
وارفع جينياً . بيد ان الحب لا يقيم وزناً للحسب والجاه . ومع كل ما لقيت
ابنة اسحاق من اكرام ورفاهة في عصمة ابن علي ظل فؤادها هائماً بابن عمها ،
بن طلقها منه في غشبة عشواء

وعذرتة . اغراه معاوية بالمعالي فانقاد اليه . وللهجامة نصيب من هذا

الانقياد الاخرق . وهي مجاملة ذهب ضحيتها عبدالله . فهزأ به ابن هند فور ادراك البغية . غير ان طابع السم آكله . فما طمع فيه معاوية باغواء عبدالله انقلب شره على معاوية وابنه . واطمأنت اربنب الى انتقام القدرة وما زالت ترجو لقاء عبدالله . ولما ابلغتها الجارية ان عبدالله في حضرة الحسين بن علي تراءى لها انها لم تسمع ، وان الوصيعة اخطأت اليان . فاستوضحت :
تقولين ماذا ؟

واضطرب لها قبل ان تدلي الوصيعة بالايضاح . قالت الوصيعة : جاء عبدالله بن سلام يسأل عن وديعته لديك ، فهو يقول انه ائتمنك على مال . ومولاي الحسين بن علي يريد ان يعلم اي امانة عندك لعبدالله !

فايقنت بعد التكرار ان عبدالله هنا ، على خطوات فلانل منها . واشتد بها الحفقان وقد ادركت ان من تهوى ياوي الى دار تقيم فيها . وسألت بدعش يلمع فيه الشوق الطروب : أياكون عبدالله هنا ، في ديوان امير المؤمنين ؟
— هو فيه . رجع من دمشق على هزال وأصفاء !

فصاحت اربنب : على هزال وأصفاء ؟... ماذا تعلنين ؟... نزلت بك العلة !
قالت وقد تعودت هذه اللواذع : اعلن ما شهدت عيناى . الحسين بن علي يرقب جوابك !

— ألا ابلغيه ان لعبدالله بن سلام عندي ثلاث بدر طافحة بالنضار . فهي له فليتسلمها مني ساعة يشاء . احتفظت له بها ليقبني انها دين في عنقي . اين عبدالله ابن سلام ؟... انا امرأة احرص على الوديعة واؤدي الامانة . ليقبل وليأخذ ماله . فليس من الانصاف ان اشبع ويجوع . هذه امواله حلال له . انها لتحي من بلي في القبور !

وهاجبا الحنين الى عبدالله . فهي ترغّب في ان تراه كي تؤذي اليه الامانة
يدأ بيد . وهو هنا . فيا شوقها الى اللقاء !... عاليتها الوصيفة انه في هزال
واصفا . لا قامت لمعاوية قائمة كم بالغ في الانتقام من هذا البريء المظلوم !
واضاه الحب كبد ارينب . هذا هو الوله اللباب . واندفعت ابنة اسحاق
تمتم دون ان تدري ما تقول : اين عبدالله ؟ ... اريد ان اراه !

فالاخلاص والهيام نطقا فيها . وانكفأت الوصيفة الى الحسين بن علي
تجاهره بما افضت به اليها ارينب . قالت : مولاي ، لا تبرح الوديعه بين يديها
على جمام . متى اراد عبدالله ان يتسامها فان ابنة اسحاق ، زوجة امير المؤمنين ،
لتلقيا بين يديه !

فاستفهم الحسين : أيكون المال عندها ؟

— لا يزال كما اتمنها عليه ابن سلام !

فبلغ الاعجاب بارينب مبلغه الحفي . واطلق الحسين صيحة الرضا
والتقدير فقال : بورك فيها من سيدة نقيه الجيب . سلامة طوبتها ورفعة خلقها
تقيمها في الذروة السامقة من كرم النفس ونساعة الفطرة !

والتفت الى عبد الله يقول : مالك مصون يا ابن عمي ، بوسعك ان تتقاضاه
ساعة يطيب لك . فان ما تؤمن عليه ارينب لفي نجوة من الهلكة . الحمد لله
الذي وهب لنا من مخلوقاته نساء لا يعدو عليهن الطمع ولا يفضحن الحفية .
فلم تصارحني ارينب بان المال يستقر في يدها بل رأته ان تبقي الامر على
كتمان حتى يوم اداء الامانات . والآن وقد حصص الحق يا عبدالله فلك
ان تدخل على ارينب وتسترد مالك كاملاً . فلست انجل عليك بهذا اللقاء
وقد جئت تأخذ حقاً واضحاً لا سبيل فيه الى روغان !

وقاده بيده الى مخدع اربنب وهو يقول : هنا تقيم ابنة اسحاق، فادخل
ولا تحذر . الحسين بنفسه يبيع لك مرأى من طلقت بالامس وحفظت لك
امانتك مع كل ما اصابها من جفوتك !
ونادى باعلى صوته : اربنب !

فاطلت من شق الباب . قال : اقتحي . هذا ابن عمك عبدالله بن سلام
جاء يسألك في نفسه . فاعيدي اليه وديعته . ان المطبوعة على الجلال لتجانع
في هضم الحق النطاح . بورك فيك من سيدة تنوء بالمروءات !
وفتح بنفسه الباب وانصرف . ان امرأة كأربنب ليست بحاجة الى
رقيب عليها . فان ما نشأت عليه من حفاظ ليعاند في ركوبها الزلل . لها
من نفسها ما يقبها التمرغ في الدرر

واطل الحسين على ديوانه وكل من حوله فائر الدهش . أيجيز لعبدالله وارنب
ان يقيا على خلوة والحب بينها تتلظى منه النار ؟ ... فرفع الحسين هامته
حتى كادت تطاول الفلك ، وقال بوقار في اللهجة واطمئنان في النظرة : انا
مؤمن بطهارة اربنب واباء عبدالله . فالمرأة الحصان الرزان، والرجل العفيف
الكميل ، لا يحتاجان الى من يحصي عليها الحراك والكلام !

فخلع على المجلس جواً من مهابة خشعت فيه الابصار، وتعثرت الانفاس
بالوقار المبسوط فامتدت على حذر . هذه الثقة بعبدالله وارنب دلفت على
ايمان بالخلق وعلى اعتزاز بالصلة . فما تقبض عليه بين الحسين بن علي لايجزو
ذو نفس يتردد ان يشزره بنظرة حرام

الحبيبان القديمان ، بل المزمانان ، على خلوة . هما هنا ، وجهاً لوجه .
 ارينب تلقي على عبد الله عينين صافيتين ، باسنتين ، وعبدالله مطرق ، تغيب
 باصرته في الارض ويخونه العزم في تسديدهما الى ارينب
 هو على خجل منها ، يخشى احتمال وقع المقلتين العابتين ، وربما الشامتين .
 فله يكن يرجو هذا الموقف الادمم المتفتحة فيه الجراح ، ولكن فقره جرته
 الى ما يتقي . وخانه الكلام . فهو ابكم . ماذا يعالن ارينب وقد طلقها
 عفواً؟... فما نشزت ولا ائمت . ما اخرجته في مطلب ولا استمسكت
 بهوى ذميم

لقد جنى على نفسه لا على سواه بطلاق ابنة اسحاق . نفض طوقه منها
 ليزيدها قدراً . فاقبل عليها الملوك وابناء الملوك يفتحون لها الصدور . اما هو
 فالى اي شقاء انتهى والى اي حقارة؟... ارتدى الاسمال وخلت قبضته من
 الفلس . فالجوع يبرح به . والزراية بمكانته تسبق خطوه . كان وارينب في
 عصمه على شرف مرموق ، فاضى وقد افلتت منه على مهانة فاضحة
 واعتبر . وادرك مرمى جريمته . لم يبق في الوطاب امل ولا حيلة في دفع المبروم .
 فاليد الممسكة بارينب قابضة بجمعها عليها . فليس بين الاصابع فرجة تشف
 اعن تناقة من رجاء . واذا رضي الحسين برد المطلقة فقد تمنع ارينب . ابنة
 اسحاق غير منقوصة القدر لتعطى وتوهب كالمستباح

ونظرت اليه اربنب في جبهته وهزاله فتألمت وناح فيها جأشها . ما هذا الانقلاب العاصف به ؟... تبدل حتى تنكر . فهو في نفن الحشرات ، ونحول العرثي ، وذل المستعطين . واشفت عليه في ذبوله . انه ليتناثر كالملاء المهلهلة . ودنت منه تقول برعشة في الصوت وبلوعة في الاداء : هل انتهى بك سوء الطالع الى هذا الحال الانكد يا عبدالله ؟

فتواثبت حنجرته في غصة واخزة . اربنب تكسوء عطفها ورحمتها وكان يرقب منها التعمير والتنقص . وابتلّت عيناه بالدمع الا انه تجلد وقال وهو لا ينفك على اطراق : جنف عليّ الزمان فافضي بي الى المهلكة يا اربنب . واني للملوم . خدعني معاوية فبذلت له نفسي فاودى بي . انا قاتل كرامتي يا ابنة عمي فلقيت جزائي . اشيتي بي ما استطعت . سفالي اذلني . ما كانت قدماي تقوداني اليك ، الا انه الاملاق يا اربنب . فمذ شهر وانا اجتاز اليك القفار على استجداء غضيض . عبدالله بن سلام ، ابن عمك ، اضطر الى السؤال ليأكل اللقمة . فانظري الى ما انتهى بي اليه بؤسي وسوء تدييري !

فانتفضا معاً بالبكاء . هو لا يطيق الابقاء على دمهه وهي لا تستطيع كبت عبرتها . قالت وما عينها يشرق في خديها : هل بليت بهذا الشقاء كه يا عبدالله ؟ قال : بلغت من الخزي ما لا يبلغه الذليل الناصية . صرفني معاوية عن دمشق مطروداً مهيناً فجئت اليك على فقري اسألك في امري . كنت اودعتك بعض المال ، كما ينضّ وهي ، فهل اكون صادقاً في وهي ؟ قالت : مالك لا يبرح على تمامه . هذه هي البدر الثلاث في خزانتي ترقب ان تتسلها مني . فتعال انقذك اياها ديناراً فديناراً ! فاعجب فيها بهذا السماح وقال : ليس من حقي ان اتقاضى درهماً منها .

فهي لك يا اربنب بدل غدري بك . واني لارضى منك ببعضها كي يستقيم امري ، فهاقي ما يجود به عليّ حملك !

وتعثو قوله بدمعه . ولم تكن اربنب لنتقطع عن البكاء . قالت : بل المال لك كله . فلن استبقي منه فلساً . هذه البدر اماتة لك عندي ، واني لاعيدها اليك مها بدر منك ازائي . فلست اجعل انك كنت مكرهاً في ما اقدمت عليه من هجران !

قال بشدة وحزم : من المحال ان اتقاضى هذا المال باجمعه . فاني لارضى بما تتفضلين به عليّ . اعطيني بعضه . انا قانع منه بما يرد عني لبعض الزمن الفاقة . فلن يتنكر لي السعد مدى العمر . فاذا وترني معاوية حقي فان لي من شباني مسعفاً على قهر الحن مها يبلغ من تسرها واستدثابها . القليل من البرّ يكفيني . ساركب المتفاوز الى المدينة اختفي فيها دافئاً عليّ في صدري ! فهاها ما ازمع عليه . قالت : ان تمسك يميني على درهم بما لك . اني لاكون في خسة معاوية اذا حجبت عنك من تقودك سحتوتاً . ألا اخبرني ، هل صدقت معاوية في ما اخلدك به ؟

فاجاب بانكسار المهض الهمة : ما كنت اعتقد ان معاوية يغدر بمثلي وانا لا ازاحه في سوؤد ولا مرتبة . فاني لعامل من عماله بوسعه ان يقينني ويقعدني بايامة . فما ذهمني الظن انه يرفعني اليه ليسلبي اياك ؟ ... حسبته على صفاء نية وهو يحدثني عن مباعلة ابنته صفية ، غير ان الماكر لا يقوى على نفض مكره منه . فالحبث يلزمه حتى في ما بينه وبين نفسه . انه ليخدع نفسه ان تكن المنفعة تقدر عليه هذا الخداع . واني لي ان ادري انه يسدد اليك نبلته وهو يواربني في صفية ؟ ... اني اقر بعجزني عن ادراك مخازيه !

قالت : وهل تضحى بارينب لاجل صفة ؟ ... أتعدل بابنة معاوية ابنة
اسحاق ؟

فاعلم في غمرة من الشجن : وهذه من مشابهي يا ابنة عمي . اطفأ ابن
ابي سفيان بمقاله الكاذب بصيرتي فأمنت ومشيت وراءه كلالعمى . ما ابقى
لي الممازق على نية وقد ذهب وعده الباطل بما يختلج به صوابي من رشد .
فغفوا عني . جنيت وما دريت الا بعد الاوان بائي الجاني !

قالت بجرقة يعرفوها الوجد : عفا الله عنك . كلما تواتت الايام زالت
من غيظي ، الا انها لا تربل من كمدي . فلا ابرح على حين الى عهدنا الحالي .
ولكن ما قضى به علينا التعس لا يشفع في رجاء . والحسين بن علي ارحب
حدرأ من ذلك ، من يزيد بن معاوية . فلو ألقى بي سوء حظي في قبضة يزيد
لكان من المحال علي ان اراك ، ولربما قتلني تفجعي . فالعناية لا تقفأ ترأف
بنا يا عبد الله . أتذكر ما كان مني يوم دعاك اليه معاوية ؟ ... أبيت عليك
اجابة الدعوة وحدثك بما ينبض به قلبي . كنت على ريب بحسن المآل . اما
انت فلم تحفل بسوء ظني وتلملت شوقاً الى دمشق . فماذا لقيت فيها ؟ ...
العش والموت . ما في قصر الخضراء غير هذه السوق يبيع فيها معاوية ويشترى .
أما رأيت باي بدل اشتراك وباي ثمن باعك ؟ ... اشتراك بالمداجاة وباعك
بالخاتلة ، لا وفقة الله في مبغى . وارى ان اقص عليك حكاية يزيد في ابنة عمك ،
ربما لن يتفق لنا ان تتلاقي . في نفس يزيد مني اشياء يا عبدالله . هو يبحث عني
ويسعى للاهداء اليّ منذ اصيب ابوه بضربة الحارجي ، الحجاج بن عبدالله الصرمي .
فارتدت يومذاك قصر الخضراء بصحبي ابي وامي لهيادة الخليفة الجريح . وتحملت
واترابي على الطبيب الساعدي نسأل عن حالة معاوية . فاقبل يزيد يبغى

الساعدي . وما وقعت عينه عليّ حتى ساورته الرعدة . فوقف ازائي معتتاً
بل مشدوهاً . ولست بمن يخفى عليها طبع يزيد . فان ابن معاوية ليطأ
نساء . ورايت الرجولة في الحرب فتواريت بين الجموع لا يطواني بصر .
وتعجب يزيد من نفسه كيف غفل عني . وجاهد في ادراكي فخاب مسعاه .
واقام يتحسر على فرصة ضاعت من يديه . ودرى بائي في حيازتك فنظم
ومعاوية تلك المكيدة الدهياء وكنا من ضحاياها . فلم يكن في نفس ابن
ابي سفيان ان يزف اليك ابنته ، بل شاء ان يغريك بها لفصلك عني . ولقد
ينجح في فصل بعضنا عن بعض . غير ان الامر عاد عليه بالوبال . فنعم بي
الحسين دون يزيد !

فججهم عبدالله : نجنا اللهم من الشيطان الرجيم !

قالت اربنب : ذاك بيت قام على الدسيسة وسينهار بالدسيسة . فمن المحال .
ان يحسن معاوية غير المكر والاغواء . ان خراب البيوت ديدنه . فالفطور
على الشر لا يرحى منه صلاح !

فقال عبدالله : لا عرف الهناء في ساعة من ساعاته . افترى عليّ وانا في
امن وطمانينة فهدم انسي وشوّه يانع دهري . فماذا سوف القى في غدي وقد
سلخ مني سعدي وداس بنعليه مسرتي ؟... اربنب ، سأقضي العمر على مشقة
وحسرة . كل ما بقي فيّ من رمق ينعي اليّ غدي . فلا اراني بآمن من الويل
والشؤم لن يبتعد عني ما دمت بعيداً عنك . وعزائي كله انك للحسين لا
ليزيد . ولو كان يسخو علي الحسين بك لكنت استعيد صفائي . غير انها امنية
تعز علي . ومن الوقاحة ان استجديها من ابن علي . حسبه انه اجاز لي
مراك . عفوك عني في حمقي وقد اسقيت به نفسي . اما انت فتمتعي من

دينك بما تشتهين . اذا ارحتك يد عبدالله فقد صرت الى يد من هو اكرم
مني ، الى يد من ترشح بالنبل طلعتة ويستعصم بالاقتدار !
فهتت شؤونها وهي تشرق بدمعها وقالت : ان الحسين بن علي لمن سادة الجنة ،
الوفاء من طبعه والشهامة سجية فيه وهو من صفوة الاخبار في المسلمين الانجاد .
الا ان الاقامة في حوزتك احب الى نفسي واصفي لخاطري . فما ابثك اياه
لا اقدم على مباحثة الحسين فيه . فانا ابدأ منه على اجلال وخشية . وما القاء
تحت جناحك من هناءة غير موفورة لي في هذا الصرح على ما يمور في ارجائه
من فاتن بهيج . فاللقمة الجافية في كنفك اطيب طعماً عندي من مدمت
الافاويه في رحاب سواك . فان نغشة الحب النابض بها قلبي لا تبرح تجذبني
اليك !

فبكي بدمع مدرار . بها مثل ما به . قال وهو في ماضي لهفته : ارينب ،
ارينب ، لا كانت ساعة ابصرك فيها يزيد . ما العمل ؟ ... كيف نعود الى
ما كنا فيه ؟ ... أأختطفك ؟ ... ان قطع يدي لاسبق من هذه الحياة اجزي
بها ابن علي . لسنا نطبق الحياة والمسافات تباعد بيننا ، فهل من سبيل الى
اللقاء على كرامة دون ان نسيء في عودة ليالينا الى ذي فضل ولا ننجحد
يد ذي معروف ؟

فقات والكلام يوشك ان يغور في صدرها : و كيف يا عبدالله ؟ ... ابن
هذه السبيل الى المرتجى ؟ ...

قال والزفرات تصوح حنجرتة والعبوات تكوي ناظره : ارينب ،
فكري في ما يرجع بنا الى ماضينا الحبيب . عرفت الحسين معرفة جليلة ، انما
تبينت فيه . مكنناً للرحمة ؟ ... ربما اسفق علينا معاً ووهبك لي . خاطيه في

امرنا . عاليه انك لا تبرحين على ميل اليّ . ليس الحسين بالاغلف القلب ،
الصفيق الشعور . فان انطباعه على الكرم والنبل يهيب به الى الرفق بنا . فما تزوجك
عن هيام بك بل عن كره لمعاوية الكريه . وعودتك اليّ تجرح ابن هند في
صميمه جرحاً لا يبرأ . فيشيع ندى الحسين ، ويعلم المسلمون جميعاً ان ابن علي
عزّ حيث هان ابن هند !

فقالت والوهلة ترين عليها : ألا يبدو لك اني اعطت فضله وانا افجأه بهذا
الحديث .? ... سيشرح بانني لا اريده وبروّعه مني انكار يده . وهو بما لا
يشوقني ان اظهر فيه . فما لقيت منه غير المروءة والاكرام . فكأنني سيده
هذا الصرح ، يتوفر الجميع على خدمتي باخلاص وولاء . ومباحثة رجل هذا
موقفه مني في التأني عنه بما يغمز من احسانه اليّ . ولست اريد ان ارتدي
اللؤم حيال من دفع عني مكابد قصر الحضراء وانتقم لي ولك من جنى علينا!
فاقنعته بضرورة الصبر . ليس من امل بجمع الشمل . واحرق خاطرهما
هذا الحائل المفروض فارتما في الارض ينتحبان بعضها بجانب بعض . وهال
ارينب ان يدهمها الحسين بن علي في نشيجها وجشمتها في الارض متدائنين فحجت
الى البدر الثلاث المحشودة في خزانها تعرف منها الحجارة الكريمة وتعدّها
فيما تلقيها في قبضة عبدالله . وكان عبدالله يتقاضى ماله وهو ضائع عما يملأ
راحتيه . فينتقل الحجر الكريم من يد ارينب الى يد عبدالله مبتلاً بدمعتين ،
بدمعة ارينب بنت اسحاق ودمعة عبدالله بن سلام . وتمنيا ان تطول الوقفة .
فينقضي العمر في عدّ البدر الثلاث . وكم تندحرج الدنانير في ارض الخدع
من يد عبدالله وقد تاه عنها ابن سلام . فلم يكن يشعر بسوى مرأى ارينب .
لا تزال كما افترق عنها . فالاناقة لا تبرح فيها على روعتها والطلالة الخضلة

هذه هي . فكل ما تبدل فيها تلك العذوبة الطاغية وقد حل محلها وقار
كئيب لم يسلم من سهو وجفاف .

وتتلامس الايدي في عدّ الدرام فتجري في الاعصاب رعشة تطفح بلذة
مخمورة . واستنبطاً الحسين هذه الخلوة فشاقه ان يرى . ولم يكن منه الا
ان نهض الى المخدع اربنب مستطعاً . فدخله على روؤس اصابع رجله دون
ان يشعر به الحبيبان الباكيان . وسمع النواح وابصر بالدمع يرشّ المال .
بل هو شاهد الدنانير تجري في الارض وترصع البساط الممدود يريقها ونفاسها
والعاشقان غائبان عما هما فيه من شأن . اربنب تعدّ وتجهل كم عدّت ، وعبدالله
يستوفي ولا يعلم كم استوفي !

ووضع للحسين ان الحب لا يفتأ يشغل القلبين ، وان هيام عبدالله
بارينب وهيام اربنب بعبدالله لم تهدرهما القطيعة . ولم ينسخها الطلاق .
فهما لا ينفكان على طفاح ، فكأن لم يقع بين الزوجين ما افسد عليها الجوى
المخصاب .

وأعجب الحسين بهذا الحب المناجع الضرم . وظل في وقفته لا يحاول
ان يمزق حجاب السحر بكلمة ، بنفثة . واستطالت فيه بسمه الرضا . فليس
ناقماً على هذا المشهد البريء النابض فيه القلبان نبضات الحب الينيع .
وتمادت الدنانير في دحرجتها في ارض المخدع وعبدالله لا يكلف نفسه
التقاطها ، وارينب لا تحس بسقوط النزار من يديها . فالانثان في غشية تقصيهما
عن الحقيقة الصراح . وامتلأت راحتا عبدالله بالمال وهو لا يزال يبسطهما
فلا يهدأ فيها الفلاس . فقال الحسين مازحاً : ألا ابن جرابك تفرغ فيه
حفتك يا ابن عمي ؟

فتمزقت غشاوة السحر وارتعد الحبيبان. فامسكا عن عدّ المال ووثبا من
جشتهما بانتفاض الملعوع . وسادهما الذعر والتوت الرقبتان وودّوا لو يطويهما
التراب . فيا للفضيحة الكاشرة الناب !... فضحك الحسين ضحكة رؤوفاً
وقال : لا عليكما . ايقنت الآن انكما لا تبرحان على مودة . واني لاعيدكما
الى ما كنتما فيه من نعمة . ارينب لك يا عبدالله . فاني اخلعها مني . وانت
يا ارينب هذا هو عبدالله ابن عمك فارجعي اليه . والله لن ارضى لنفسي
القضاء على هذا الحب المتأصل في اعماقكما . تمتعا بغضارة الهوى وانغرفا من
لذاذات الصبوة ما تطول ايديكما . ما كنت بمن يعكر على المحبين صفاء
ايامهم . ان للحب في شرعة المنصفين حرمة تصان !

وفادى اليه كل من ضمهم مجلسه يخطب فيهم : اشهدوا عليّ ان ارينب
بربنة مني . فهي لزوجها الاول عبدالله بن سلام . عبدالله احق فيها منا جميعاً .
فاني اعيدها اليه مثقلة بصداقها . فمن العبت محاولة الاستئثار بقلب يضيء فيه
حب تليد !

فتعجب منه سامعوه . ما الخبر ؟... قال : نظرت اليهما في جلستها
فراعتني منها فرحة اللقاء . منذ ساعة وهما يعدّان المال وما انتبيا من حفتة .
انهما لفي غفلة عما هما فيه . ها هو المال منشور في الارض وما شعرا به
يتناثر . ومن الظلم ان يواثب الانطفاء هذا الحب المتقد في اضعالهما . اني اعيدهما
الى ما كانا عليه من بعولة !

فتولى الحبل القوم . ما كانوا ليؤمنوا بما يسمعون . وراعهم ما يسود
عبدالله وارينب من بحران . فالخوف من الحسين في ما باغتها فيه ذهب بقلبيهما .
فالقتل لا محالة جزاؤهما . بيد ان الاصغاء الى ما ينطق به الحسين اذهلها

عن امرهما فتضعها . فلم يدريا ما يصدقان . أصبحان الى القتل ام تغمرهما
الرحمة ؟ ... قال الحسين : اننا حرران في البقاء عندى او الانصراف عنى ايها
النسيان !

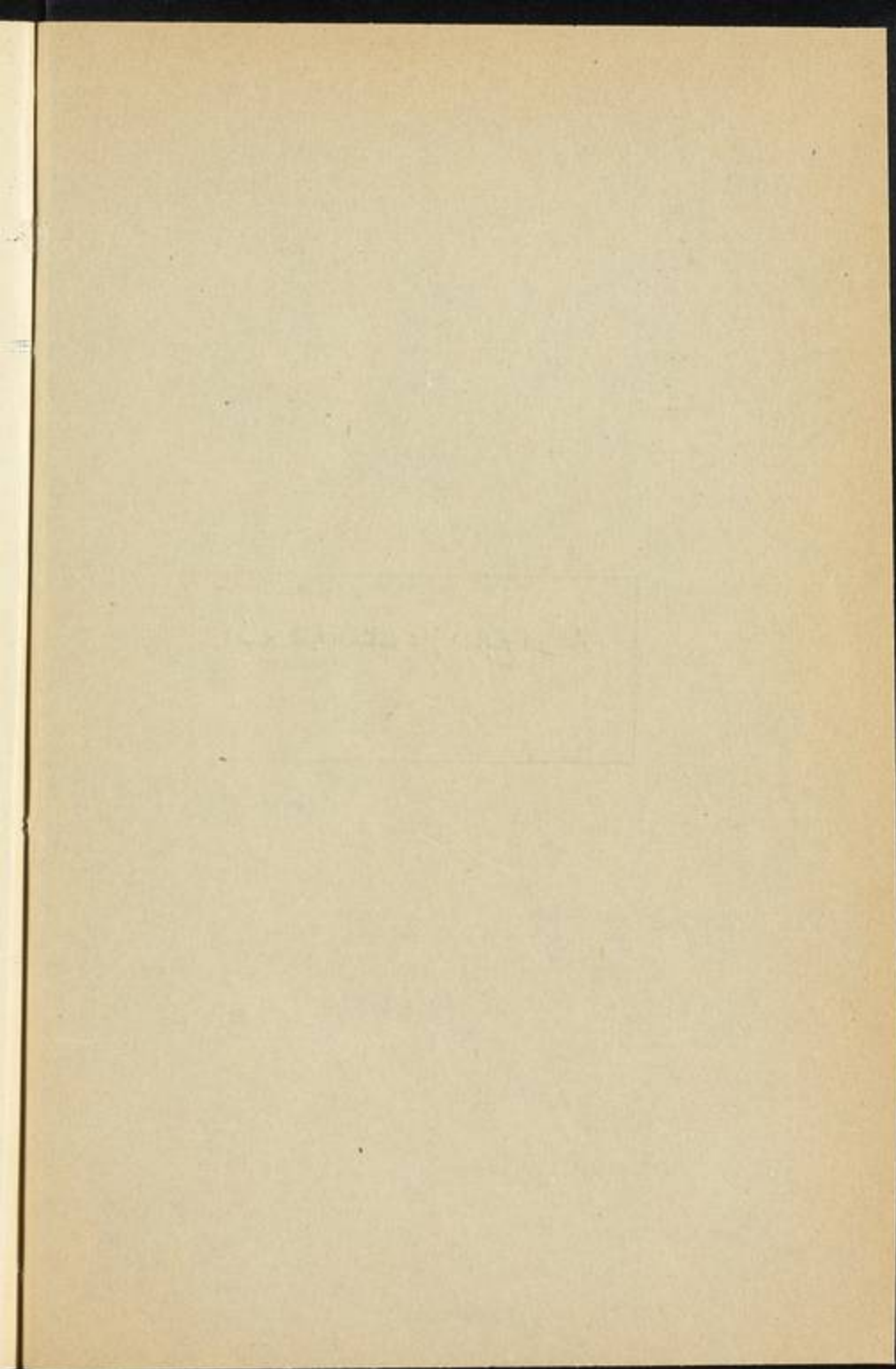
قللاشت فيهما الرهبة متدافعة . أصبح انها عادا الى جنبها الظليق ؟ ...
ولم تسعفها ارجلها في الوقوف حيا ل رعشة الغبطة ، فسقطا بين يدي الحسين
في سجدة الشكر وهما يرددان : ما اعظمك في سماحك يا حفيد الرسول !
وانها لا على يديه النديتين بشفاهما العطشى . فقال الحسين وهو يباركها
بيمناه : لملكما تطيب الحياة . فاجرعا من ثمالاتها بما تنتشيان !

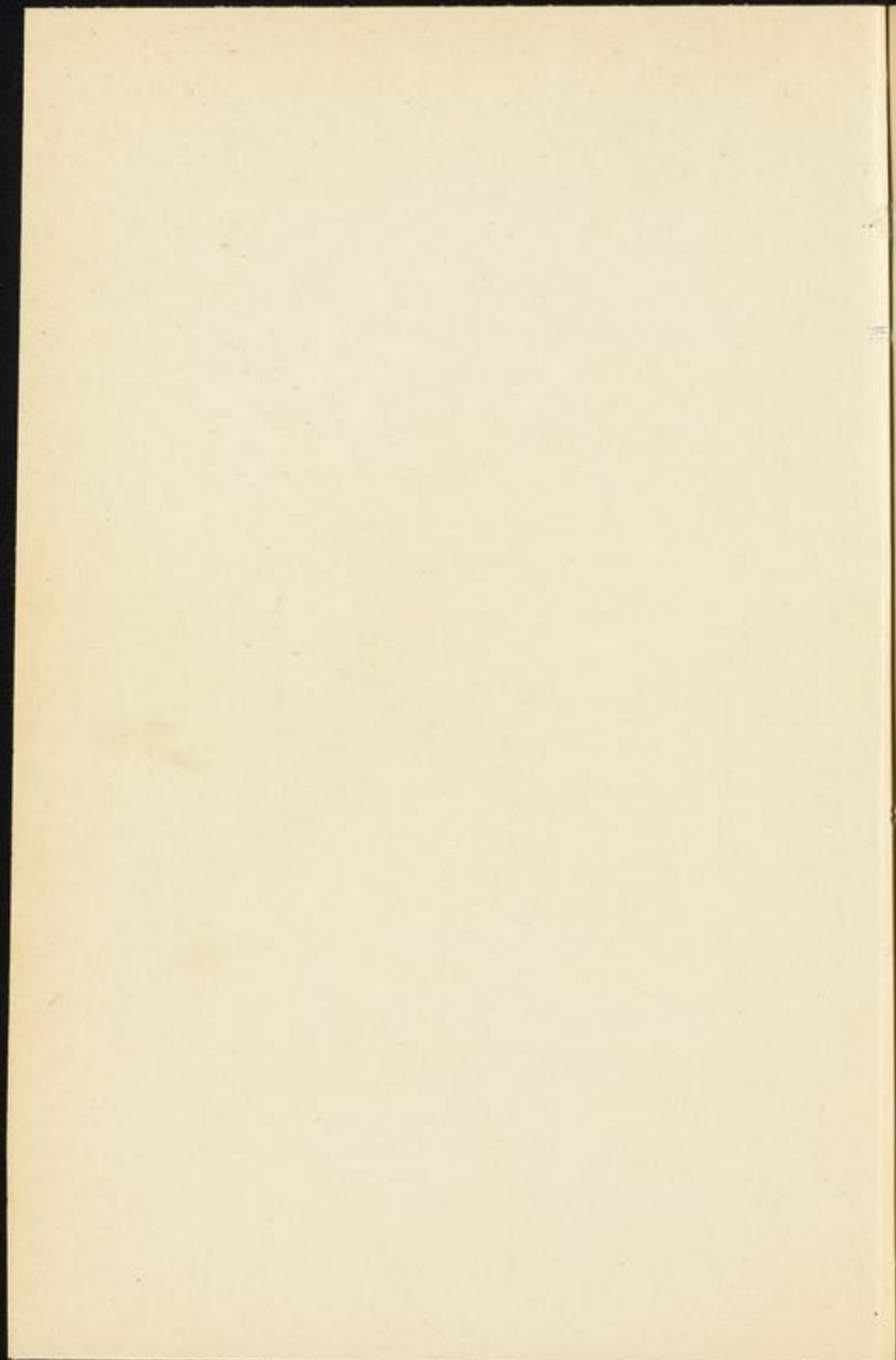
فارتفعت الدعوات بالتأييد والعمر المديد . وروح عبدالله وارينب الكوفة
الى المدينة يرتعان في افيائها الظليلة على جنل خميل ، فيما ينقت ، هنالك في
دمشق ، قلب مكروب مهزوم ، الزفرات الحرار ، ويستحم بدموع سواجم
تريد في الحرقه كأنها الزيت على متأجج النار . وتوعد مرشقان ، يتلجلجان
خيبة وغلا ، بغد كالح حقوق ، كأن فاجعة كربلاء حبكت خيوطها السود
انتقاماً للخيبة الأكل في اربنب بنت اسحاق !

[تمت]

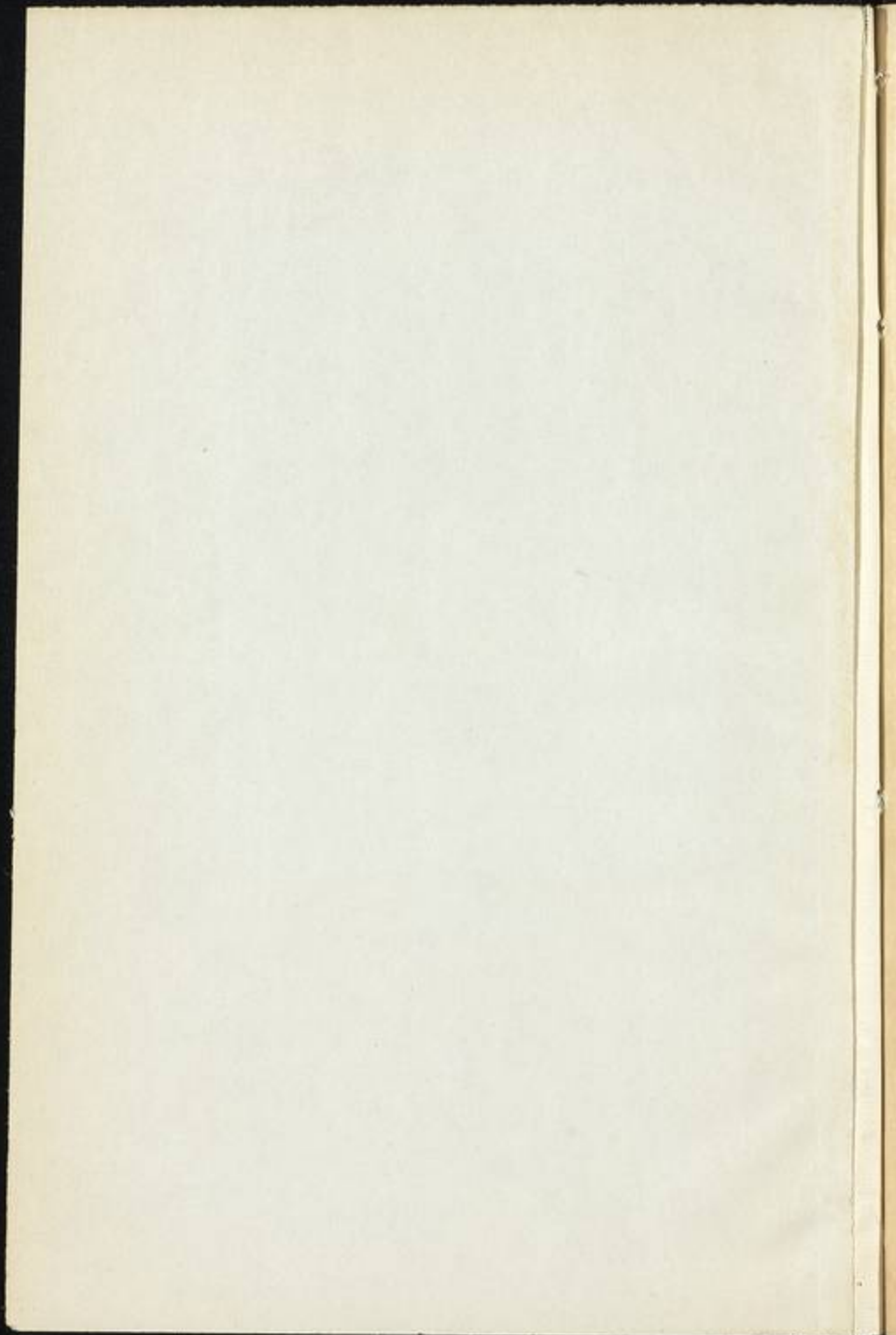
طبع هذا الكتاب على مطابع الاتحاد

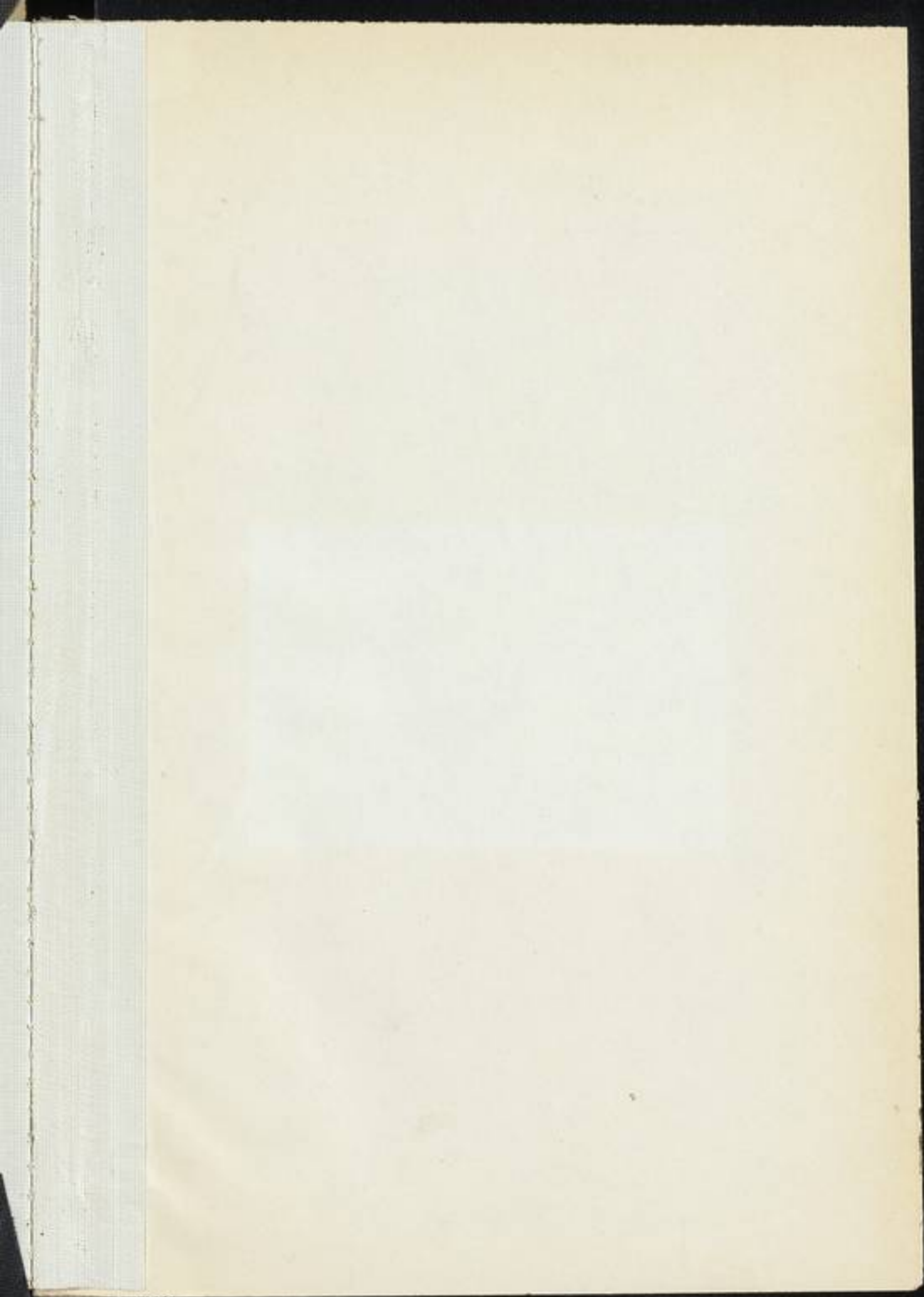
سنة ١٩٤٦ - بيروت





2. .





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074067354